

مكتبة
الدكتور مروان العطيّة

تخت الخلفاء

في
مطارحات بني العصر

درويش محمد بن أحمد الطالوي الأرنقي الدمشقي
٩٥٠ هـ - ١٠١٤ هـ

بتحقيق
الدكتور محمد رسي الخولي

الجزء الأول

عالم الكتب
بيروت

الطبعة الاولى
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

بيروت - المزرعة بشاية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقية : نابعلكي - تلكر : ٢٣٣٩٠



بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة الدكتور مروان العظيمة

مقدمة المحقق

هذا الكتاب

يعد نموذجاً فريداً بين كتب التراجم والأدب في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، ذلك أن هذه الفترة قد حظيت بمؤلفين من أعيان العلماء ألفوا الكتب الآتية:

١ - تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبوريني (الحسن بن محمد الصفوري الدمشقي) المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ، وترجم به علماء عصره.

٢ - ريجانة الألبا، وزهرة الحياة الدنيا، للشهاب الخفاجي (أحمد بن محمد) المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ، وقد ترجم به لعلماء مصر والشام والحجاز في عصره ممن التقى بهم وراهم أو لم يلتق بهم ولا رآهم.

٣ - نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، للمحيي (محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين) المتوفى سنة ١١١١ هـ، وقد حذا فيه حذو المحيي في ترجمة العلماء الذين كانوا في عصره، ولكن ليس بقيد رؤيتهم، وعلى هذا فقد أورد ذكر العديد من العلماء وأكمل عمل الخفاجي إذ أن عمله هذا طبع في خمس مجلدات، على حين لم يزد عمل الخفاجي عن مجلدين.

٤ - خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر، وهو للمحيي أيضاً، وهو عمل قيم، ترجم فيه لأعيان الناس من العلماء أو غيرهم من

القادة أو الرؤساء أو الولاة، وجعله قاصراً على أعيان القرن الحادي عشر، ولم يتعدهم إلى رجال القرن العاشر كالكتاب السابق، وطبع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات.

هـ - ثم يأتي كتابنا هذا مصاحباً لهذه الكتب، كتاب تراجم وأدب لن عاصرهم المؤلف من القرنين العاشر والحادي عشر، ولكنه يمتاز عنها كلها بما يلي:

أ - أن المؤلف ترجم للعلماء أو الأعيان الذين صاحبهم أو عرفهم عن كتب، ولم يتحدث عن أحد لم يعرفه.

ب - وبناء على هذا الأمر فقد جاء الحديث عن هؤلاء العلماء بطريقة فيها حياة، وفيها من المعلومات عنهم قدر مختلف عما في الكتب الأخرى إما قليلاً وإما كثيراً، ولكنها معلومات جديدة ومفيدة ويمكن أن تضاف إلى تراجمهم في الكتب الأخرى فتزيدهم جلاء ووضوحاً، فضلاً عن تصحيحها لبعض المعلومات التي وردت في كتب الآخرين غير مصححة ولا ممحصّة.

ج - أن مؤلفنا أبا المعالي الطالوي كان غفّ اللسان، فلم يقع فيما وقع فيه المؤرخون من أمثال البوريني من التعرض لهجاء من ترجموا لهم أو عملوا على إظهار بعض عيوبهم، بل لزم الجانب الطيب فيهم وأبرزه، وقلما تعرض لأحد إلا على سبيل الفكاهة أو التندر، أو إلا إذا كان والياً ظالماً، أو حاكماً غشوماً فإنه حينئذ لا يتورع عن هجوه والتعرض له.

كل ذلك في هذا الكتاب لمؤلفه الأديب الشاعر درويش محمد بن أحمد الطالوي الأرتقي الدمشقي الذي عاش في الفترة من سنة ٩٥٠ إلى

١٠١٤ هـ. وسبى كتابه: سانحات دمي القصر في مطارحات بني العصر.

والسانحات جمع سانحة، والسانحة أو السانح من الطير أو الظباء هو ما مرّ من مياسرك إلى ميامنك فولّك ميامنه، وكانت العرب في زجرها للطير تتيمن به وتمضي قدماً في أسفارها أو قضاء حوائجها متى صادفوا شيئاً منه.

والسانحات هنا ليست سانحات الصحراء من طيور أو ظباء بل هي من دمي القصر، والدمية هي الصورة الممثلة من عاج ونحوه، ويضرب بها المثل في الحسن، فكأن ما أودعه فيه الطالوي من رائع شعره، أو فائق نثره غيدٌ حسان من جميلات القصور، وحسبك بمرآهن تيمنا وبجهاهن تفاؤلاً.

وفي مطارحات بني العصر، أي في الحوار وتبادل الأحاديث أو القصائد معهم فالمطارحة هي التمازج والمناظرة.

هكذا اختار المؤلف هذا العنوان المتأنق، لمضمون كتابه الذي انتقى فيه مجموعة طيبة من أشعاره وترسلاته، وبدأ في وضعها في كتاب عام ٩٨١ هـ، واستمر يضيف إليها ويختار الأجود حتى قبيل وفاته بعام واحد، أي في سنة ١٠١٣ هـ.

تعريف المطارحات ومن ألفوا فيها:

واختياره لكلمة المطارحات اختيار جيد وموفق، فهي تسمية محددة لما كان يفعله الأدباء الناشئون في عصره، من إرسال قصيدة منمقة إلى أحد كبار الأدباء، يفيض عليه فيها من صنوف المديح والثناء، ويرجوه في نهايتها أن يتفضل تكريماً بالرد، ومن هنا فهو قد طرح نفسه عليه.

فإما أن يقبل الأديب الكبير القصيدة فيجيب عليها بأحسن منها فتشر القصيدتان ويخطو الأديب الناشئ خطوة نحو الشهرة أو ينكت عن الرد عليها، لأسباب في نفسه فلا يتحقق هذا الرجاء .

ومن أمثلة ذلك ما أرسله الشهاب الخفاجي للطالوي وكان الخفاجي في أول الطريق والطالوي في أوج مجده من قصيدة يرجوه فيها الرد عليها، وهو يعبر عن هذه الواقعة بقوله: ومما كتبتة إليه لأستمطر سحائب طبائعه الغرّ، وأستجدي كرمًا من رقيق خلّقه الحرّ، وأستمرىء منها ماء الحياة على غلة، قطراتٍ لو وقعت في بحور الأشعار لم يكن بها علة، قولي:

ثم يورد قصيدته ورد الطالوي عليها^(١).

فهذا مثال مما رُدَّ عليه من القصائد وهو كثير بطبيعة الحال بين الأدباء أو هو النوع الغالب، ومثال ما لم يُردَّ عليه (وهو لا يَرِدُ صراحة في الكتب)، ما ذكره الشيخ حسن البوريني صاحب كتاب تراجم الأعيان وأحد الأدباء الكبار في ذلك العصر، من قوله إن الشيخ صلاح الدين الكوراني الحنفي كبير كتاب محكمة حلب أرسل إليه ثلاث قصائد وطلب الإجابة عليها، فرد على واحدة واعتذر عن الباقيتين^(٢).

وهناك ما يدل على أن الذين كانوا يرسلون القصائد كانوا يعاتبون أصدقاءهم لعدم وصول رَدِّ إليهم عنها كما حدث عندما أرسل الشيخ إبراهيم الحلبي الشهير بـابن الملا قصيدة إلى الشيخ البوريني أيضاً فتأخر

(١) ربحانة الألبا: ٥٥/١ .

(٢) تراجم الأعيان: ٢٤٣/٢ .

عليه البوريني في الرد، فأرسل إليه يعاتبه قائلاً^(١):

سَأَلْتُكَ أَيُّهَا الْمَوْلَى الْمُهَابُ	وَكَانَ الْقَصْدُ مِنْكَ هُوَ الْجَوَابُ
لِنُخْبِي سُنَّةَ الْأَدْبَاءِ قَدْماً	وَيُفْتَحَ بَيْنَنَا مِنْ ذَاكَ بَابُ
وَنَسْقِي مِنْ رُبَا الْأَدَابِ مَا قَدْ	ذَوَى شُحاً بِهِ سَحَّ السَّحَابُ
وَتَحْرِيكَ الطَّبَاعِ بِعَذْبِ نَظْمٍ	لَهُ يَخْلُو السَّاعُ وَيَسْتَطَابُ
فَلَمْ أَرْ جَاءَ فِي مِنْكُمْ جَوَابُ	فَزَادَ بِي الْجَوَى وَالْإِلْتِهَابُ
فَأَشْبَهْتُ الصَّدَى قَالاً وَحَالاً	وَكُنْتُ أَنَا الْمَجِيبُ كَذَا الْمُجَابُ

فإذن كانت هذه المطارحات من سنن الأدباء في هذا العصر، وما سبقه من عصور قريبة منه، وإذا نظرنا إلى حقيقتها لأدركنا أنها نوع من التقريظ لشخص الأديب وأدبه، وكلما زادت هذه المطارحات بين أديب ما وأدباء عصره دل ذلك على اتساع دائرة معارفه وشهرته وتقدير الأدباء له.

وقد جمع الأدباء في فن المطارحات كتباً أشهرها:

كتاب «لحن السواجع بين البادي والمراجع»، من تأليف صلاح الدين خليل ابن أبيك الصفدي، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ، وقد جمع فيه ما دار بينه وبين فضلاء عصره، من الأئمة الذين يجب أن تكتب محاسنهم، مما بدأ فيه وراجع، وقلد فيه غيره وتابع من مقتطعات شعرية، ورتب الأسماء فيه على حروف المعجم، وذكر في كل حرف اسم من كاتبه.

ويليه كتاب ابن نباتة المصري (جمال الدين أبو بكر محمد بن نباتة)

(١) تراجم الأعيان: ١١/٢.

المتوفى سنة ٧٦٨ هـ، والذي سماه «سجع المطوق»، وجمع فيه ما أنشأ علماء الشام وأدباؤها من المديح والتقريظات لكتابه «مجمع الفرائد» وذكر فيه تراجمهم، ثم أتبع كل ترجمة بنبذة من مكاتباته لصاحبها ومداخله فيه، ورد صاحبه عليه .

وثمة كتاب مجهول المؤلف يحتوي على نبذ من مطارحات شعراء العصر المملوكي، منهم المولى بدر الدين الدماميني، وفخر الدين بن مكانس، وزين الدين العجمي، وكلهم ممن نبغوا في القرن الثامن الهجري .

وهذه الكتب في العصر المملوكي، أما كتب العصر التركي في المطارحات فمن بينها:

١ - كتاب «سوانح الأفكار والقرائح، في غرر الأشعار والمداخيل» الشمس الدين محمد بن نجم الدين الصالح الهلالي الدمشقي، المتوفى سنة ١٠١٢ هـ، وكان صديقاً للطالوي، وقد ضمن كتابه قصائد مما دار بينه وبين معاصريه مع تراجم لهم وبعض رسائله النثرية إليهم ورددهم عليها

٢ - كتاب الطالوي هذا الذي بين أيدينا .

٣ - كتاب «ألحان الحادي بين المراجع والبادي» لمحمد بن محيي الدين المعروف بالحادي الصيداوي، المتوفى سنة ١٠٤٢ هـ، وقد وضعه على أسلوب ألحان السواجع للصلاح الصفدي .

وهذه أمثلة فحسب لهذا النوع من الكتب، ويستطيع المتتبع أن يجد أمثلة أكثر، هذا فضلاً عن ورود هذا النوع ضمن الكثير من الكتب الأدبية في ذلك العصر، وقد لا تخلو منه كتب التراجم أيضاً .

ما الهدف من هذه المطارحات الأدبية، ولماذا كان يلجأ إليها
الأدباء؟

الواقع أن تلك المطارحات كانت تمثل ضرورة لهم في ذلك الوقت،
فليس هناك من وسيلة للتعريف بهم أجدى من هذه الوسيلة، فيكفي أن
يرد أديب كبير على قصيدة ترسل إليه حتى يكون هذا اعترافاً منه
بموهبة صاحبها وجدارته للرد، وغالباً ما تكون القصيدتان في مستوى
طيب وتتضمنان الكثير من عبارات المجاملة والتكريم، وسرعان ما تجدان
طريقهما إلى ألسنة الرواة فيظفر الأديب الناشئ على أساس ذلك بحظ
من الشهرة والتكريم، وهذه الطريقة تحل محل الرواة الذين كانوا قديماً
ينقلون قصائد الشعراء وبخاصة ما كانت في مدح خليفة أو أمير ويقومون
بإذاعتها.

وقد انتفت آنذاك الطريق إلى قصور الخلفاء والعظماء، كما أن
وسائل الإعلام الحديثة من صحف ومجلات وغيرها كانت ما تزال في علم
الغيب، فإذن كانت هذه هي الطريقة التي تسد مسدها في مجمع الأدباء،
الذين كانوا ينتظرون أمثال هذه القصائد وغيرها مما يقال في مجتمعهم من
شعر في مختلف شؤون الحياة، جدها وهوها ليقوموا بنشره وإذاعته في
مجالسهم وتدوينه في مؤلفاتهم.

ودعنا نسأل بعد ذلك، وما هي فائدة ذلك للأديب الذي يجد حظاً
من الشهرة عن هذه الطريق؟ ونستطيع أن نجيب على ذلك بداهة بأنه
سوف يجد طريقه إلى وظيفة في التدريس أو الفتوى أو غيرها من
وظائف الدولة في ذلك العصر، وتكون هذه بداية ينطلق منها إلى ما هو
أرفع إذا كانت مواهبه وطموحه يدفعانه إلى ذلك ويؤهلانه له.

وقد سلك مؤلف كتابنا هذا، تلك الطريقة في مبتدأ أمره ومطلع حياته، فطارح أعلام عصره من مثل شيخ الإسلام عماد الدين المهادي مفتي الحنفية في دمشق، أرسل له قصيدتين، فرد الرجل عليهما كليهما رداً طيباً.

كما تطارح هو وشمس الدين بن المنقار الحلبي أحد أعيان العلماء في عصره، وابن نجم الدين الصالحى الأديب الكبير وغيرهم ممن سird ذكرهم في الكتاب.

وحين وصل هو إلى درجة من الشهرة وذيوع الصيت وجد من يطارحه ببعض القصائد وكأنه يقتضيه ما استسلفه هو من الدهر، وبالطبع فإن ذلك كان من غير قصد ولكنها سنة العصر، ومن ضمن من طارحوه الشهاب الخفاجي وابن العجمي الحلبي والشهاب النعمي وغيرهم من العلماء الذين اشتهروا ذلك الوقت.

تبقى بعد ذلك كلمة الأدب، هل تعدّ هذه المطارحات من باب الإخوانيات المعروف؟ ونرد على ذلك بالقول إنه يمكن أن يعد هذا النوع من الإخوانيات إلى حدّ ما، وذلك إذا اعتبرناه علاقة محدودة بين شخصين يحمل كل منهما قدراً من المعرفة أو الود للآخر، ولكن المستقرىء له يدرك أنه غرض مستقل تماماً، تختلف أهدافه التي شرحناها عن أهداف الإخوانيات المعروفة من المودة والشوق والدعوة إلى مجالس الأُنس، والمشاركة في السراء والضراء وما إلى ذلك من الموضوعات المعروفة في هذا الغرض.

مكتبة الدكتور مروان العطيّة

كتاب الطالوي وموضوعاته:

بالرغم من أن الطالوي سمى كتابه «ساعات دمي القصر في مطارحات بني العصر» فجعل المطارحات أساس كتابه إلا أن الكتاب في الحقيقة لا يتضمن المطارحات وحدها، بل هي تحتل جانباً منه فقط، يمثل ما قاله الطالوي من شعر في مبتدأ أمره، في مدح المشايخ من أعيان دمشق وعلمائها، وأعلام الحركة الأدبية بها مِمَّن طارحهم بقصائده فردّ عليه معظمهم بقصائد أشادوا فيها به وقرظوا شعره، ثم حين علا شأنه، نرى في الكتاب عدة قصائد من أدباء طارحوه بشعرهم فرد عليهم الطالوي تحيتهم بأحسن منها، ولكن ذلك ليس كل الكتاب، بل يمكننا أن نقول إن المؤلف قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام:

الأول:

تلك المطارحات والمراسلات التي قالها على حد قوله في ريعان الشباب وغشيان بلوغ الأتراب... ثم طرحها في مطارح الصبا، وفرقها أيادي سباً، وذلك.. لجفوة الحظ ونبو الدهر.. ثم ساعده على جمعها تولّي أحد موالي الروم واسمه المولى محمد بن بستان قضاء دمشق، الذي أسبغ على الطالوي حمايته ومنحه منصباً استقرّ فيه، وأتاح له بذلك من الوقت وهذوء البال ما جعله يجمع هذه المطارحات والمراسلات، ناظماً ما انتشر من عقودها بيد الشتات، فجمعها تذكرة لمن تذكر، وتبصرة لمن تبصر.

الثاني:

أخبار ونوادر، وأشعار وقصائد، لشيخه أبي الفتح محمد بن عبد السلام المالكي، التونسي مولداً، الدمشقي داراً، وكان الطالوي يجلّ

شيخه هذا وينزله من نفسه منزلة عالية، ولما لم يكن للرجل مصنف معروف فقد كان ما فعله الطالوي بجمعه ما أملاه عليه شيخه من نظمه، في المسائل العلمية واللطائف الأدبية في كتابه هذا بمثابة كتاب له وهو بذلك حفظ لنا أدباً قيماً مما أنتجته قريحة هذا الرجل الذي كان منزله في دمشق مجمعاً للأدباء، وأدبه وعلمه مورداً سائغاً لكثير من الفضلاء.

الثالث:

ما اتفق له كتابته إلى بعض الموالى من له شأن من مشايخ هذا العصر والأوان، بالديار الرومية والشامية والقاهرة، وما سُئل في عمله من مكاتبات ومراسلات على لسان بعض العلماء الأجلاء في أزمنة مختلفة، ووقائع شتى غير مؤتلفة... الخ.

وهذا على حد قوله، والواقع أن هذا الجزء يمثل معظم الكتاب ويعد أيضاً الجزء المهم منه، فهو يمثل العلاقات الشخصية التي ربطت بين المؤلف وبين علماء بلاد الروم حين ذهب إلى الآستانة يبحث له عن مكان بين العلماء في ذلك الوقت، فقد كان لا بد لكي يظفر بهذا أن يكون قريباً من أولي الأمر في عاصمة الدولة العلية.

ولقد تبوأ الطالوي عدة مناصب في الآستانة في مدارسها ومحاكمها، ولكن طريق الوصول إلى هذه المناصب لم يكن سهلاً ولا مفروشاً بالورود، بل اقتضاه بذل العناء والجهد في التعريف بنفسه عن طريق أدبه وقصائده التي كان يمدح بها علماء الدولة وأمرائها، ممن كان ييدهم أن يعينوه في تلك المناصب، وخصوصاً المفتي الأكبر الشيخ سعد الدين ابن حسن جان التبريزي شيخ الإسلام ومعلم السلطان مراد، ثم ابنه أسعد ومحمد، وقد مدحها المؤلف بقصائد كثيرة.

ثم إن الطالوي في كتابه هذا لم يكن منفصلاً عن عصره فقد سجل الكثير من الأحداث التي وقعت في بلاد الشام وبلاد الروم، ولكن ليس على طريقة المؤرخ، بل على طريقة الأديب الذي يمدح أو يذم أو يشكو، وهي طريقة مهمة جداً تكمل عمل المؤرخ وتواكبه، بل إنني أؤمنُ بأنه لدراسة عصر من العصور لا بد أن يصاحب ذلك دراسة ما قاله الأدباء والشعراء في كتبهم لنظفر بصورة متكاملة لذلك العصر، وقد أودع المؤلف في كتابه هذا كثيراً من المعلومات التي تفيد حقاً في هذه الناحية، وفي نشر هذا الكتاب ما يعتبر خطوة إلى الأمام في سبيل نشر النصوص التي تتعلق بتاريخ مصر والشام في هذه الفترة، والتي ما زال الكثير منها ينتظر النشر.

المؤلف

من ترجموا له

ترجم للطالوي اثنان من الذين عاصروه، هما الشيخ حسن البوريني في كتابه «تراجم الأعيان»^(١)، والشهاب الخفاجي في كتابه «ريحانة الألبا»^(٢)، والترجمة الأولى فيها بعض التحامل على الرجل، فقد كان له معاصراً، ويبدو أنها كانا متنافسين على المنزلة العالية بين معاصريهما، وقد أتاح هذا التنافس لعناصر الوشاة أن تندسّ بينهما وأن تفسد صداقتهما في بعض الأحيان مما جعل البوريني ينحو على زميله باللائمة ويصفه بعبارات فيها الكثير من القسوة فيما يتعلق بمعاملته للناس وتكبره عليهم وعدم اكتساب ودهم.

أما في جانبه الأدبي فلم يستطع أو قل لم تتح له، موهبة الرجل ومقدرته الفنية العالية إلا أن يعترف ويشيد بها كلما أورد له شيئاً من شعره.

أما الترجمة الثانية فهي عبارات مسجوعة على طريقة الشهاب الخفاجي في كتابه «الريحانة» وهي تكاد تخلو إلا من بعض معلومات

(١) الجزء الثاني من صفحة: ٢٠١ إلى ٢٢١.

(٢) الجزء الأول من صفحة: ٥٣ إلى ٧٧.

قليلة مكررة عن الرجل، غير أنها ترمز بعباراتها الفخمة وألفاظها المنتقاة إلى تكريم بالغ للطالوي، بل حب شديد له، وهو يصفه بأنه شامة الشام، ويبالغ في تعظيم شأنه، ويضرب المثل بمقدرته اللفظية التي فاقت مقدرة الحريري صاحب المقامات، بقصيدة له استعمل فيها لفظ (الغرب) بما لم يستطع الحريري أن يأتي به.

وقد يرجع هذا الحب إلى الظروف التي تقابل فيها الرجلان في عاصمة الدولة العلية، فقد كان الشهاب الخفاجي في مقتبل عمره، غريباً في عاصمة كبيرة تزخر بالعلماء والأعلام والطالوي يمثل مكانة طيبة بين هؤلاء العلماء، وحين يلجأ إليه الخفاجي يجد فيه صدراً رحباً وخلقاً سمحاً، يرحب به ويصادقه في مودة وألفة، وحين يطارحه الشهاب بقصيدة يرد عليه الطالوي بأحسن منها، وهذا كله شيء عظيم يترك في نفس الخفاجي أعظم الأثر، ويكشف عن سبب تقديره للرجل وإعرازه له أكثر من غيره ممن ترجوا له.

تأتي بعد ذلك ترجتان لرجلين غير معاصرين للطالوي، أولهما المحيي صاحب «خلاصة الأثر»^(١) المتوفى في سنة ١١١١ هـ، وهي ترجمة عظيمة حقاً، فقد كان المحيي مؤرخاً عظيماً وأديباً كبيراً، وقد ذكر الجانب التاريخي للرجل في إفاضة وفي موضوعية شديدة، ثم ذكر الجانب الأدبي مبيناً نواحي الجمال في أدبه، وما أخذه من معاني غيره، وما برع هو فيه.

والآخر شمس الدين الغزي صاحب ديوان الإسلام^(٢)، والمتوفى سنة

(١) الجزء الثاني من صفحة ١٤٩ إلى ١٥٥.

(٢) ورقة ٥٥ ب.

١١٦٧ هـ وهي ترجمة مختصرة لا تخرج عما ورد في الكتب السابقة.

نسه ونشأته

هو درويش محمد بن محمد أو أحمد، وكلمة درويش تعني بالفارسية المتعبد أو الراهب، وأصل معناه قدام الباب^(١)، ولكن الكلمة في عُرفنا اليوم تطلق على بعض رجال الطرق الصوفية ممن وصلوا إلى درجة الجذب فتركوا الدنيا وساروا في طريق الله، وهي درجة عالية عند الصوفية.

وكلمة درويش محمد قد تعني خادم محمد وربما يقترب معناها من عبد النبي أو عبد الرسول وإن كانت أخف منهما معنى.

وقد اشتهر هذا الاسم في ذلك الوقت، سمي به عدة رجال في عهد صاحبنا الطالوي منهم درويش محمد باشا الجركسي الوزير الأعظم، الذي تولى الصدارة العظمى من عام ٩٦٣ هـ إلى عام ٩٦٥ هـ، وكان قبل ذلك والياً على الشام عام ٩٤٥ هـ، فلعله أن يكون ولد في ولاية ذلك الوالي فسمي باسمه تيمناً بأن يبلغ مبلغه^(٢).

وهناك المولى درويش محمد قاضي القدس، ثم قاضي مصر، ويعرف بجبار زاده وكان مشهوراً بالعلم والعمل لا سيما فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه^(٣). وبعض المؤرخين يسميه درويش بن محمد وهو خطأ صحته ما ذكرنا.

(١) أنظر الكلمات الفارسية المعربة لأدى شير الكلداني ٣٢.

(٢) خلاصة الأثر ١٥٧/٢.

(٣) تراجم الأعيان ١٩٨/٢.

أما والده فقيل إن اسمه محمد، وقيل اسمه أحمد، ولا يعرف له نسب بعد ذلك، أما نسبته وهي الطالوي الأرتقي فهي نسبة إلى أمه التي كانت سيدة كريمة المحتد، إذ هي عتقاء بنت الأمير علي بن طالو الأرتقي^(١) فنسب إليها وكان شديد الفخر بهذا النسب، وقد تزوجت بأبيه الذي كان رجلاً تركياً ورد إلى الشام في حاشية السلطان سليم الأول خادماً لبعض أتباعه، وحينما انتصر السلطان انتصاره المعروف على قانصوه الغوري في موقعة مرج دابق، منح ذلك الرجل إقطاعاً في دمشق على مال يؤديه.

(١) كان بنو أرتق يتولون حكم عدة بلاد وحصون تقع في الجزيرة الفراتية التي هي بين دجلة والفرات والتي تشمل على ديار مضر وديار بكر مجاورة الشام، وقد تولى الحكم منهم ثلاثة أفرع:

١ - فرع بمحسن كيفا وآمد:

وقد بدأ هذا الفرع بمعين الدين سقان الأول بن أرتق سنة ٤٩٥ هـ، ثم توالى على الحكم تسعة ملوك آخرهم الملك المسعود الذي عزله الكامل محمد الثاني بن المظفر غازي صاحب ميافارقين المجاورة سنة ٦٢٩ هـ.

٢ - فرع بخرتبرت:

أولهم عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان سنة ٥٨١ هـ، ثم توالى أربعة ملوك آخرهم نور الدين أرتق شاه بن الملك المعز سنة ٦٦٠ هـ.

٣ - فرع بماردين:

بدأ بنجم الدين إيلغاز الأول بن أرتق سنة ٥٠٠ هـ، وتوالى منهم ١٧ ملكاً آخرهم الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن داود، ثم فتحها آل قراقيونلو سنة ٨١١ هـ. أنظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في الإسلام ٣٤٤، ٣٤٥، وأنظر معجم البلدان في المواضع التي ذكرت فيها البلدان السالفة الذكر.

فأتاح له ذلك معيشة طيبة سمحت له بأن يتزوج هذه الزيجة الكريمة التي أثمرت له في عام ٩٥٠ هـ ابنه درويش محمد.

على أن الرجل على ما يبدو عاش عيشة مترفة فانكسر عليه المال الذي كان ملزماً بأدائه، ويبدو أنه كان مالاً جليلاً إذ نراه بعدها يفر من دمشق كلها، ويترك أسرته إلى حيث لا يدري أحد.

وهذا أمر عجيب، فرجل عاش في دمشق منذ عام ٩٢٢ حتى عام ٩٥٠ أي ما يقرب من ثلاثين عاماً، وهي الفترة التي بين حدوث موقعة مرج دابق وولادة ابنه، يفر هارباً منها تاركاً أسرته، لا بد أن يكون أمراً شديداً هذا الذي بهظه، وقد يكون هذا الأمر هو المصادرة أو الحبس أو إيذاء أسرته، فلم ير أمامه بُدّاً من الفرار.

ويبدو أنه أحسن فعلاً في ذلك، إذ نرى القائمين على الأمر لم يصادروا الأسرة المنكوبة بعد فرار عائلها، بل إنهم يتركون للصغير حصة سيرة من إقطاع والده بُلغة تساعد على العيش، ولكنها بُلغة طفيفة سرعان ما يتنازل عنها لما كان يجد في اقتضاؤها من مشقة وعسر.

يتجه الصبي بعد ذلك إلى تعلم صناعة السروج، ولكنه ما يكاد يقطع في ذلك مرحلة حتى يقيض الله له عالماً جليلاً هو شيخ الإسلام الشهاب الغزي الذي يلمس في الغلام ذكاءً حاداً وفهماً ثاقباً جعله يعرض عليه أن يتجه إلى العلم ويحببه إليه ويرغبه فيه، فيترك الغلام صناعة السروج، ويتجه إلى حلقات العلم ينهل من معينها.

شيوخه

ويذكر الحبي شيوخه الذين تلقى عليهم بقوله^(١) إنه صحب العلامة أبا الفتح محمد المالكي فقرأ عليه الأدب والرياضي والمنطق والحكمة والتصوف وغيرها، ولزمه مدة مديدة. ثم يذكر أنه أخذ على جماعة من فضلاء العجم الواردين على دمشق، منهم المولى محمد بن حسن المغاني - وذلك حين أنزله في مدرسة جده لأمه الأمير علي بن طالو وقرأ عليه حاشية المطالع ومنلا زادة في الحكمة وغير ذلك.

وأخذ التصوف عن منلا غياث الدين الشهير بمير مخدوم اللألائي التبريزي، قرأ عليه بدمشق مقدمات الفصوص للشيخ داود القصيري، وشرح الرباعيات للمولى عبد الرحمن الجامي.

وأخذ عن الشيخ سراج الدين التبريزي نزيل مكة المشرفة، وصحبه برهة لما قدم من مكة إلى دمشق في سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة.

وأخذ خرقه التصوف عن الشيخ محمد الناشري نزيل المدينة المنورة وإمام مسجد قبا.

ثم قرأ الفقه بعد وفاة شيخه أبي الفتح (عام ٩٧٥ هـ) على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه على الشيخ نجم الدين محمد البهنسي خطيب دمشق ومفتيها، والمعاني والبيان على العماد الحنفي.

وحضر مجالس التفسير على الشيخ بدر الدين الغزي في تفسيره بالمدرسة التقوية وبالجامع الأموي.

(١) خلاصة الأثر ١٤٩/٢.

مع ملازمة ولده شهاب الدين أحمد (ت سنة ٩٨٣ هـ) وهو الذي أشار عليه بالتعلم، وقد عرف الشهاب إلى جانب علمه الغزير بالفضل وحسن الخلق، كان جواداً كريماً حليماً، يؤثر إخوانه، ويوقر أقرانه، تنجذب إليه القلوب، وترتاح إليه الأرواح، وتشرح لجمال طلعه الصدور، وأجمع الناس على محبته واعتقاده، وتقديمه واعتياده، ورجاء بركته وطلب الدعاء، ومن هنا جاءت ملازمة الطالوي له، وقد أشار عليه الغزي بأن يترك زي الجند الذي كان يرتديه أبناء الأتراك من أمثاله ويرتدي زي العلماء.

وفي الفترة التي كان الطالوي يتلقى فيها تعليمه، كان يحتل اهتمامه جانب آخر من المعرفة وهو التصوف، فتعلق بكلام الشيخ محيي الدين ابن عربي، وشرع يكتب الكلام الموزون، وذاق لذة العلم عن هذا الطريق ويبدو أن تأثره بالتصوف كان كبيراً في مظهره وتصرفاته، إذ يصفه البوريني آنذاك بقوله: فتاه في بيداء أهل الهوى، وصار في طريق الغرام من أرباب الجوى، وكان صوته يجرح الفؤاد، ويهم بالعاشقين في كل واد.

وهذه جل من تعابير الصوفية وألفاظهم التي يستعملونها حينما يفيض بهم الوجد وتطير بهم أصوات المنشدين في حلقات الذكر والسماع إلى آفاق علوية ينفكون معها من أسر الأجاد الترابية إلى الآفاق الروحية العلوية.

ولكننا لا نرى هذا التأثير الصوفي واضحاً في كتابنا هذا، اللهم إلا بعض الإشارات التي يضمنها بعض قصائده، والتي تدل على دراية بالتصوف، ولكن لا على استغراق فيه.

حياته العملية

إن أول منصب تولاه الطالوي كان هو التدريس بالمدرسة الخاتونية بدمشق، ويبدو أن ذلك كان بعد اتصاله بقاضي دمشق المولى محمد بن إلياس المعروف بجوي زادة ومدحه له، وكان ذلك سنة ٩٧٦ هـ.

ومن المفيد هنا أن نعرف بعض الحقائق بصدد المؤلف.

أولاً: إن الطالوي كان يؤرخ معظم قصائده الكبيرة التي ذكرها في كتابه هذا، ويغفل ما عداها من المقطعات الصغيرة وما يرى أنه لا يستأهل تاريخاً؛ لكونه يتضمن فكاهة أو وصفاً لمجلس أنس أو نحو ذلك، ولا ريب أن تاريخ القصائد يفيد المؤرخ في تراجم الأشخاص الذين مدحهم، ويفيد في معرفة حياة الطالوي نفسه وأين كان في تلك السنة التي ذكرها، ثم يفيد في دراسة تطور شعره منذ أن كان شاباً حتى استوى أديباً كبيراً متمكناً.

ثانياً: وبقدر ما حرص الطالوي على تاريخ قصائده، بقدر ما أغفل ذكر الوظائف التي شغلها، فلم يذكر ذلك إلا لماماً، وكأن ذكره ذلك من باب الافتخار بالنفس الذي يجب أن ينأى عنه الكريم.

ولكن ذلك في الواقع جعلنا لا ندري شيئاً عن المناصب التي تولاه، اللهم إلا بعض الوظائف التي ذكرها عَرَضاً أو ذكرها المؤرخون عنه، مما دعانا إلى أن نستنتج فترات عمله وفترات تعطله يساعدنا على ذلك أن المؤلف كان يكف في الجملة عن قول الشعر في فترات عمله، ولما كان هذا الشيء غريباً ولا يكاد يصدق إذ أن الشاعر يقول الشعر بنفسه لا بوظيفته، لهذا فإنه يمكننا أن نستعمل عبارة أخرى وهي أن الطالوي لم

يسجل شعره في فترات عمله في كتابه هذا، ثم نراه حين يتعطل عن العمل يقوم بتسجيل ما يقوله.

ثالثاً: إن وسيلة التوظيف في تلك الفترة كانت تقوم على ملازمة أحد موالي الروم من القضاة أو المدرسين (والمدرسون هنا يقصد بهم القيمون على المدارس، فحينما يقال فلان أعطي مدرسة فلان باشا أو المدرسة الفلانية، أي أنه أعطي النظارة عليها). وهؤلاء القضاة أو المدرسون هم الذين كانوا يعطون ملازميهم الوظائف^(١).

كيف كان هؤلاء يختارون ملازميهم؟ إننا نعتقد أن ذلك كان يتم على أساس اختيارهم من الأشخاص المعروفين في الأوساط العلمية بالكفاءة أو الموهبة، أو من الشباب الذين يظهرون نجابة وتقدماً في العلم وتلقي الدروس، وكانت وظيفة «المعيد» معروفة جداً في المدارس في العصر التركي، ومعناها يقرب من معنى الوظيفة المعروفة في هذه الأيام بمعنى أنه يساعد الأستاذ في تدريس مادته التي يليقها^(٢).

وبطبيعة الحال فقد كانت الوساطة تتدخل كثيراً في تعيين بعض الأشخاص في وظائفهم، وكانت هذه الوساطة في محلها أحياناً وفي غير محلها في أحيان أخرى.

والغالب أن الشخص كان يعتمد على نفسه في التقرب إلى العلماء والكبراء وتعريفهم بنفسه، فإذا كانت لديه دراية بالعلم وفهم له، أو

(١) أنظر تراجم الأعيان ٢/٢ + ٢، وأنظر الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية في معظم التراجم.

(٢) أنظر أيضاً الشقائق النعمانية في العديد من المواضع.

موهبة في قول الشعر وإجادته لقي من أوساط العلماء ما يستحقه على قدر علمه وموهبته.

وكثيراً ما كنت ترى بعض الصور الهزلية في هذا التقرب إلى ذوي الفضل من الناس، فإن البوريني^(١) يقص أن قاضياً (تركياً بطبيعة الحال) ورد إلى دمشق، وهو يعرف شعر اللسان العربي وشاع ذلك عنه فمدحه من يعرف الشعر العربي بدمشق، فاتفق أن من لا يشعر بالشعر تصنع وتكلف نظم الشعر وإن لم يكن عارفاً به، وصدر في ذلك عجائب وغرائب، ولعل أغربها محاولة من يدعى الحسين بن عبد النبي الذي كان إماماً بالمسجد الأموي في مدح القاضي المذكور، فقد نظم قصيدة غريبة منها:

محمّد قرم حشد محدث خدل خبر
مظهر حدث خدن مصدر الحكم مسبار

★ ★ ★

سطاع سعدك سلع سمالك سمحك سرح
سككات سرك سهم سباط سجلك مدرار

وهي قصيدة عرفت بالقرمحشدية وظلت مصدر فكاهة في دمشق لفترة طويلة، وقد شرحها البوريني شرحاً سهلاً يمتلىء بالسخرية والهزء في كتابه تراجم الأعيان^(٢).

(١) تراجم الأعيان ١٧٨/٢.

(٢) أنظر الجزء الثاني الصفحات من ١٧٨ إلى ١٩٤.

على أن هذا مثال نضربه فحسب لنبرز أن الشعراء والأدباء كانوا يتبارون في إظهار مواهبهم الشعرية والأدبية، كما يدل أيضاً على أن الولاة كانوا يرحبون بأمثال هذه المحاولات لمدهم والإشادة بهم، فإذا كانت القصائد جيدة سارت بذكرهم وفضلهم واستحق قائلوها صنوف التكريم.

عود إلى الطالوي

وبالنسبة للطلالوي فقد التصق في مبدأ أمره - على حد قول البوريني - ببعض موالي الروم، وبحث معه عن طريق المنطوق والمفهوم، وناب عنه في محكمة ميدان الحصا^(١).

ونحن نعتقد أن هذا المولى هو محمد بن إلياس المعروف بجوى زاده، وقد تولى قضاء دمشق عام ٩٧٦ هـ وكان من أفضل القضاة على الإطلاق، وقد مدحه الطالوي بقصيدة طويلة، يصفها بأنها أول ما انبعث عن الجنان، ونطق به هديل اللسان، ومطلعها:

أطيب سرى وهناً فأحيا متياً أم الروض بكاه الحيا فتبسم
ومنها في مدحه:

فيا أوحـد الدنيا ويا عالماً غدا له الفخر والشيخ الرئيس مسلماً
ومن عدلُهُ قد شاع في كل موطن فأنجـد في قطر البلاد وأتـها
قصـدت ذراعـُك فالدهر قد جنى عليّ ومالي غير بابك منتمى

(١) تراجم الأعيان ٢/٢٠٢، وميدان الحصا: حلة كبيرة قرب دمشق.

وتبلغ عدتها ستة وعشرين بيتاً، وهي قصيدة جيدة السبك، ويبعد أن تكون هذه أول محاولة يقوم بها في نظم الشعر كما يقول وإلا لكان نابغة آخر كنايفة بني ذبيان.

وعلى أي حال فقد أسعدت الرجل فحقق للطالوي ما كان يرجوه من منصب، وهذا المولى وإن كان قد ترك دمشق بعد عام واحد، إلا أن الطالوي ظل على علاقة طيبة به ومدحه بعد ذلك بعدة قصائد وهو ببلاد الروم.

ويذكر المحي أن الطالوي قد تولى التدريس بالمدرسة الخاتونية داخل دمشق في مطلع شبابه أيضاً، فلعل ذلك أن يكون بوساطة المولى عبد الحليم أخي زادة قاضي العسكر بدمشق، والذي مدحه الطالوي في تلك الفترة وأشاد به.

مطارحاته وصلاته الشخصية

من هذه المناصب الصغيرة التي أحتلها الطالوي في مبدأ حياته، أخذ يتطلع إلى التعرف بعلماء عصره ومحاولة ربط صداقة بينه وبينهم، وقد سلك لذلك طريق المطارحات الشعرية، فتراه في هذه الفترة من عام ٩٧٦ إلى عام ٩٨١ هـ يرسل بقصيدة إلى الشيخ عماد الدين العمادي مفتي الحنفية في دمشق ومدرس الناصرية الجوانية بها، يمدحه بها ويطلب الجواب ومطلعها:

عهد السرور وريعان الهوى النضر سقاك عهد الحيا رقراق منحدر

فيرد عليه العمادي بقصيدة مطلعها:

أَحْلِي حوراء أم عِقْد من الدُرَر أم زاهر الزَّهر أم زاهٍ من الزُّهرِ

وكلا القصيدتين من رائق الشعر وأحلاه.

ثم يرسل بقصائد على هذا النمط إلى مشاهير الأدباء في دمشق مثل شمس الدين ابن المنقار مدرس المدرسة القصاعية وأحد الشعراء المشهورين، والأديب شمس الدين بن نجم الدين الصالحى، والشيخ شهاب الدين النعمي، وجمال الدين العلموي، والشيخ أبي الصفاء العجمي الحلبي، والشيخ موسى السيوري، وغيرهم، وكل هؤلاء رد على قصيدته بثلاثها.

ومن رجال الدولة الرسميين:

قاضي دمشق محمد بن إلياس، وقاضي العسكر علي أفندي قبلي زاده، وقاضي حلب علي أم ولد زاده، وعبد الحليم أخي زاده القاضي بالآستانة، والشيخ علي المحاسبجي بدمشق.

ويتضح من كثرة هذه الصلات ذكاء الطالوي في خلق صداقات له بين العلماء وولاة الأمر، كما تدل على جودة شعره ومستواه الرفيع الذي جعل هؤلاء المشاهير يردون على قصائده ولا يهملونها، بل يفسحون مكاناً له فيما بينهم كما يتضح من أسلوب قصائدهم إليه.

صلته بالشيخ أبي الفتح المالكي التونسي

كانت صلة الطالوي بالشيخ أبي الفتح محمد بن عبد السلام التونسي الربعي المالكي صلة وثيقة جداً إلى الحد الذي دفع به إلى تخصيص جانب من كتابه هذا لما أملاه عليه الشيخ من نخب الأشعار ومنتخب الأحاديث والأخبار... الخ.

وكان الشيخ أبو الفتح علماً من أعلام دمشق علماً وأدباً، وقد تلقى العلم عليه الكثير من أدبائها وعلماؤها.

وفد على دمشق شاباً فأحبها كما أحبها الآلاف غيره من العجم والعرب الوافدين عليها، فقرر الإقامة فيها حياته.

حب العلماء لدمشق:

وليسمح لي القارئ الكريم أن أتحدث بهذه المناسبة قليلاً عن دمشق. فهذه المدينة المتلفة أبدأ برداء الجلال والجلال، الرائعة الحسن فما لحسنها أبدأ مثال، لا تكاد تزورها حتى تشدك إليها، ولقد كنت أقرأ ما قاله الشعراء فيها من التغني بجمالها، وما وصفها به الأدباء من أنها جنة الأرض بلا خلاف، وأعجب لجموع البشر الذين يتركون أوطانهم ويتخذونها موطناً على ما هو معروف من حب المرء لوطنه.

إلى أن زرت دمشق في عام ١٩٧١ (عضواً في حلقة دراسية عن المخطوطات)، فشدتني إليها للوهلة الأولى، وبعد عدة أيام كنت أتوق إلى مدّ أمد البقاء فيها، أو إذا لم تسمح الظروف في تلك المرة أن أعمل كل ما أستطيع لزيارتها لفترة أطول في المستقبل.

أي شيء شدني إليها هكذا؟ حاولت أن أستوضح الأمر بيني وبين نفسي، أهو عراقة المدينة وطابعها العربي الأصيل والذي يجعلها توأم القاهرة، أم لأنها جنة تجري من تحتها الأنهار، وتمتلىء بأطيب الفواكه وأحلى الثمار أم هي أسماء الأبطال العرب الذين سميت الشوارع بأسمائهم فهم يذكرونك بأنفسهم أينما حللت وحيثما توجهت. ولقد فرض عليّ هذا أن أسرح بخاطري إلى هؤلاء الأبطال الذين أبلوا في نصره العروبة

والإسلام أحسن البلاء، وتخيلتهم أمامي بقاماتهم المديدة وجباههم العالية، يدقون الأرض من ثبات وثقة يسرون بيننا جيئة وذهوباً. مذكّرين إيانا بأبجادهم العظيمة التي سطرها لهم التاريخ، وسجل لهم فيها طردهم للغزاة، وسحقهم للمعتدين.

أم هو الإحساس بأن هذه المدينة تُغرّ مخوف. كما كان يعتبرها المجاهدون الأقدمون وأنها قطعة عزيزة من نفسك تود لو حرصت عليها وفديتها بأغلى ما تملك؟.

أم هو كرم الضيافة^(١)، وما قولنا به من ترحاب أحسننا معه بأننا لم نفارق أهلنا.

أم هو مئات الأشياء الصغيرة التي تترك في نفسك أثراً طيباً، كبائع العطر الهرم السح الوجه الذي يقابلك عند سوق الحميدية، أو مياه عين الفيجا الرائعة المذاق، أو كلمة «تكرم» التي تسمعها عقب أي طلب تطلبه، ولم أستطع تحديد معناها إلى الآن أو ما يقابلها باللهجة المصرية، كل ذلك ترك في نفسي أجمل الأثر، وأحببته، ولعل هذا أو غيره من المشاعر هو ما جعل الكثيرين من الناس يعيش دمشق، ويقرر الإقامة فيها، ولعلمهم لو تكلموا عن مشاعرهم لعبروا عن إحساسهم نحو المدينة العظيمة بأحسن مما عبرت.

هذا وليس صحيحاً ما يقال من أن السبب في ذلك هو تقدير الدمشقيين للعلماء الغرباء بدرجة ربما تزيد على تقديرهم لعلمائهم

(١) لا بد أن يذكر المرء في هذا المقام الأخ الكريم الأستاذ العلامة أحمد راتب النفاخ الذي بالغ في الاحتفاء بنا، ثم صديقه الأستاذ عصام البيطار والأستاذ الدكتور شاعر النعام وأحد القادري وسهيل زكار وغيرهم من الإخوة الأفاضل.

أنفسهم، فالواقع أن تقديرهم للعلماء الغرباء ليس عيباً يؤخذ عليهم
فذلك شيء يسر العلماء ولا يقلل من قدر الدمشقيين، أما كونهم يقدرونهم
أكثر من علمائهم فذلك ليس صحيحاً وهو إن صح فهو قدر مشترك بين
الشعوب كلها، وقديماً قيل: «لا كرامة لني في وطنه، وزامر الحي لا
يطرب».

وعلى أي حال فلقد أحبت دمشق لسبب ملأ نفسي لا أكاد أعرفه،
برغم قصر المدة التي بقيتها فيها، وبرغم أنني زرت عدة بلاد بعدها،
وهذا القدر من التعبير عن إحساسي نحوها يكفي هنا، ولكنه لا يكفي
في التعبير عن تقديري لهذه المدينة العظيمة وأهلها الكرام.

ولنعد الآن إلى الشيخ أبي الفتح المالكي التونسي، أحد من عشقوا
دمشق ووجدنا في حبه هذا مناسبة لما سطرناه آنفاً.

يذكر المؤرخون^(١) عن أبي الفتح أنه كان فقيهاً أصولياً يغني الناس
على مذهبه (أي المذهب المالكي)، وفتاويه مقبولة، وله حرمة باسطة
ووجاهة ظاهرة، وقد تولى نيابة القضاء بالحكمة الكبرى زماناً طويلاً،
كما تولى التدريس في دار الحديث الأشرفية بدمشق.

وفضلاً عن ذلك فقد كان علامة في النحو والصرف والمعاني والبيان
والبدیع والعروض والمنطق وأكثر العلوم العقلية والنقلية، وله الباع
الطويل في الأدب ونقد الشعر، وكان شعره في غاية الحسن، وقد حمل
عنه الناس العلم وانتفعوا به. إلا أنه كان يؤخذ على الشيخ بعض

(١) انظر الكواكب السائرة ٢١/٣ وما بعدها، والريحانة ١٧٤/١، وتراجم الأعيان
٢٤٩/١.

الماخذ، مثل كونه على مذاهب الشعراء من التظاهر بحجة الصور والأشكال الحسنة، حتى رمى واتهم، وكان لا يتحاشى من مخالطة المرد الحسن.

كما أنه كان مغالياً في نصرة القهوة المتخذة من البن غير منكر له، (في الوقت الذي كان فيه بعض العلماء يجرمها)، وله في نصرتها مقاطيع مشهورة، ولطائف غير منكورة.

وليست هذه هي وحدها الاتهامات التي وجهت للشيخ، ولكننا ذكرنا منها ما له صلة بالاختيارات الشعرية التي اختارها له الطالوي وأثبتها في كتابه هذا.

وقد أورد المؤلف للشيخ أبي الفتح جملة وافرة من شعره، ولعله أن يكون هو المصدر الوحيد الذي احتفظ بها، ومن بين هذه المختارات موشح في الإشادة بقهوة البن، يكشف إلى جانب براعة ألفاظه وطرافة وزنه آراء الذين يبيحون قهوة البن أمام المتشددین الذين يذكرون أنها بدعة قبيحة يحرم ارتكابها.

وإلى جانب هذا فهناك عدد من المقطوعات في وصف مجالس الأنس والطرب، والغزل في المرد الحسان، والأخوانيات وقصائد في مدح الولاة والعلماء، وقصائد في وصف حنينه لوطنه وقدر من الطرائف والأخبار الأدبية التي رواها الشيخ وأثبتها الطالوي هنا، باهتمام زائد، واحتفاء كبير.

أما سبب هذا الاحتفاء فلم يقدم لنا الطالوي عنه تفسيراً، ولم يبق إلا أن نقول إنه ارتياح منه إلى شخصية شيخه وإعجاب به، فقد كان الرجل عالماً وأديباً كبيراً تلمذ عليه الكثير من أعلام عصره، وكان ذا

طبيعة هادئة ولين جانب عرفا عنه. ومع ذلك فقد كان رجلاً رقيق الحال، ابتلى بتعاطي الأفيون، وكان ربما هجا بعض الناس أو هجا نفسه، وقد أخذ عليه ذلك فقليل إنه كان يمدح من يعطيه ويهجو من لا يعطيه، وربما كان هذا صحيحاً ولكن الذنب في هذا لا يقع عليه بقدر ما يقع على زمانه وأهله، ويصف الشهاب الخفاجي حاله تلك بقوله: «...إلا أنه مع تملك جواهر العلوم، وتقلد جيد كماله بعقود المنثور والمنظوم عاداه دهره، وصافاه فقره، فظل يمتري صباة عيش لو أنها نوم ما شعرت بها. الأحداق ويحمل من أثقالها ما يرهق ويوهي القوى والأعناق».

ورجل هذا شأنه، لن يعدم صديقاً شهياً ينصفه ويصافيه؛ ويجاريه ويماشيه، فيما كان يميل إليه من المجالس، ويسجل ما كانت تجود به قريحته من طرائف وشعر.

ويذكر النجم الغزي صلة الطالوي بشيخه أبي الفتح فيقول: «وأنبل من تخرج به في الشعر والعربية العلامة درويش بن طبالو مفتي الحنفية في دمشق ومدرس السليمانية بها، وسلك طريقته فيما هو فيه، وكان الشيخ أبو الفتح حجته في كل ما يأتيه»^(١).

وهذا النص يكشف عن عمق العلاقة عن التقدير الذي كان يكنه الطالوي لشيخه.

والواقع أن الطالوي قد يكون مديناً للرجل بالكثير، فهو لم يستفد من علمه فحسب، بل استفاد من الأعلام الذين كانوا يؤمنونه ويقصدون مجلسه، وقد مدح الطالوي بعض هؤلاء ومنهم القاضي معروف الصهيوني

(١) الكواكب السائرة ٢٢/٣.

القاضي بجمعية صنف كما مدح ولديه الأمير نجمي وتقي الدين المعروف بالراصد، وكان أعظم فلكي ذلك العصر، وقد أفادته صلاته تلك فائدة كبيرة فيما بعد على ما سنبينه.

لهذا ليس غريباً أن يجعل للشيخ نصيباً في كتابه هذا، بل إنه فعل أكثر من ذلك إذ ألف كتاباً سماه: « هدايا الكلام في أخبار محمد أبي الفتح بن عبد السلام » وهو يحيل القارئ للمختارات التي هنا ويريد الزيادة إلى كتابه المشار إليه.

هذا وقد توفي الشيخ أبو الفتح رحمه الله عام ٩٧٥ هـ، وكان الطالوي آنئذ شاباً في الخامسة والعشرين، ويبدو أنه كان لم يتجه تماماً لقول الشعر، ولهذا فقد نقل ما قاله الشعراء في مرثيته، ولم يقل هو في ذلك شيئاً.

صلته بالمولى محمد بن بستان:

تمثل هذه الصلة جانباً من الحياة العملية للمؤلف، والمولى محمد بن بستان ولي قضاء دمشق عام ٩٨١ هـ، وبأشر الأحكام الشرعية بها، وقد عرف بكرم الأخلاق والفضل الزائد والتودد إلى الناس مع المداراة لهم، وعنده معرفة في دربة القضاء^(١).

هذا بالنسبة للناس، أما بالنسبة للطلوي فقد كان يمثل شيئاً مهماً جداً في حياته فقد اتصل به ومدحه، وقبله المولى ابن بستان ملازماً له

(١) أنظر قضاة دمشق ٣٣٢.

على طريقة علماء الروم وقانونهم وعينه قسماً^(١)، وعندما انفصل عن قضاء دمشق عام ٩٨٣ هـ أخذ معه إلى القسطنطينية وعينه هناك مدرساً بإحدى المدارس، إلا أن الطالوي لم يلبث أن أحسّ بوحشة إلى دمشق، فسرعان ما نراه فيها مرة ثانية يرتع مع أصحابه، ويدبج قصيدة يرسلها إلى صديق له يصف له فيها مجلس أنس له مع بعض الخلان في موضع يسمى بالنيرب، ومعهم شاب اسمه عبد النبي.

ولكنه يحس بعد ذلك بالندم ويخشى أن تضيع من يده فرصة تعرّفه على ابن بستان فيهرع إلى القسطنطينية ثانية، وبالطبع فإنه يجد إغراضاً متوقّعة من الذين عمل معهم، فيذهب ليمدح شمس باشا المصاحب والي مدينة أسكودار بقصيدة، ثم يمدح ابن بستان وقد تولى قضاء استانبول بقصيدة ثانية، ولكن ذلك لا يجد صداه السريع، ويظل الطالوي متسكماً بلا عمل حتى العام التالي، وحينئذ يضحج بالشكوى، ويطلب من ابن بستان أن يوليه أي عمل حتى ولو كان الإشراف على دار الفنم، ولا ندري إن كان الرجل قد حقق له هذه الرغبة أم لا، ولكننا نراه بعد فترة يعمل بمحكمة داود باشا بالعاصمة نائباً عن ابن بستان، ويتمكّن بذلك من العيش فترة تمتد إلى عامين باستانبول.

وكما هي عادة الطالوي فقد راح في تلك الفترة يوثق صلاته برجال الدولة وعلمائها، فنراه يمدح الشيخ صلاح الدين الكوراني الحلبي حين يوليه السلطان قضاء صفد وأرض كنعان.

(١) القسام أو ناظر القسة، هو أحد نواب قاضي عسكر أفندي، ويتولى قسمة الموارث بين الرعية في محكمة القسة، انظر جدول المصطلحات في كتاب الإدارة في مصر في العصر العثماني.

كما يمدح المولى نصح المعروف بنوالي، المدرس بإحدى المدارس الثانية (وهي المدارس التي أنشأها السلطان محمد الفاتح عقب فتحه القسطنطينية).

ولكن هذه الفترة لا تخلو من بعض المنغصات للطالوي، إذ نرى أحدهم يوشي به لدى المولى ابن بستان، ونراه يعتذر عن هذه الوشاية بحرارة شديدة، ويسارع بالتنصل عنها، مظهراً غاية التعجب والاستنكار من تصديق شيء كهذا، أو تصور صدوره عنه، لمن هو ولي نعمته، وصاحب الآلاء الكثيرة عليه.

وقد تكون هذه الوشاية قد أثرت قليلاً في علاقة الرجلين، ولكن زال أثرها بالتأكيد فيما بعد، إذ أن العلاقة بين الطالوي وابن بستان ظلت متصلة دائماً، فهو يلوذ به بين الحين والآخر، مثلما نراه في قصيدته التي أرسلها له في عام ٩٩٤ هـ يهنئه فيها بمنصب قضاء العساكر الروم إيلية، ويرجوه أن يعينه بأحد مناصب التدريس، ثم قصيدة أخرى عام ١٠٠٠ هـ يهنئه فيها بمنصب مفتي السلطنة الرفيع، وفي عام ١٠٠٣ هـ يكتب إليه شاكياً من أن قضاء الركب الشامي الذي كان مسنداً إليه في مرات سابقة حرم منه وأعطى لمن يدعى ابن الحلواني، وآخر قصيدة أرسلها إليه كانت صدر مكاتبة إليه عام ١٠٠٥ هـ، يعظمه فيها ويثني عليه، ثم يشكو إليه ضياعه في دمشق، متعطلاً دون عمل.

وهكذا فإننا يمكن أن نعتبر ابن بستان صديقاً للطالوي وسنداً له وظهيراً يلجأ إليه كلما ألجأته الضرورة، وهي كثيراً ما كانت تفعل في ذلك الزمان العجيب الذي كان الاستقرار فيه بعيداً عن الأفراد على

اختلاف وظائفهم وأعمالهم، مما كان يؤدي بهؤلاء إلى الحرص على هذه الصداقات والاستزادة منها كلما أمكن.

صلته بالمولى سعد الدين التبريزي:

التبريزي هو المولى سعد الدين محمد بن حسن جان التبريزي الأصل القسطنطيني المولد والمنشأ والوفاة ولد سنة

قرأ ودأب، ولزم درس شيخ الإسلام المولى أبي السعود أفندي شيخ الإسلام وصاحب التفسير الشهير، وكان هذا رجلاً عالي المكانة لدى السلاطين حظياً عندهم، وقد أعجب المولى أبو السعود بالتبريزي لنجافته وأدبه، فأتاح له التدريس بإحدى المدارس الثماني باستانبول.

ثم اختاره السلطان مراد معلماً لنفسه فأقبلت عليه الدنيا، ولما توفي السلطان مراد أبقاه نجله السلطان محمد معلماً لنفسه أيضاً، ثم ولاه منصب الافتاء، فازدادت مكانته في الدولة، وصار مقصد الناس من كل فج.

يتحدث عنه المحي في الرجانة بقوله: «كانت أيامه ربيع الأفاضل، وسدته محط رجال الآمال وسابلة المسائل، تلقى عنده عصا التسيار، وتنزل بحرم سعادته قوافل الأسفار، وقد جمع له من الكمال ما ليس له مثال، وإن ضربت به الأمثال».

وخلاصة القول إن الرجل كان ذا نفوذ عظيم، بحكم صلته بالسلاطين الذين جعلوه معلماً لهم عن اعتقاد وتقدير منهم له، ثم بحكم منصبه الذي هو أعلى منصب ديني في الامبراطورية العثمانية كلها.

(١) انظر في ترجمته: رجانة الألبا ٢١٠.

ولهذا فقد كثر قاصدوه من العلماء والأدباء ، الذين كانوا يجدون فيه كنفاً وملاذاً وكان يتيح للمبرزين منهم مناصب الدولة من تدريس وقضاء ، أو يرفع أمرهم للسلطان للإنعام عليهم بأنواع التكريم من هبات وعطايا ، أو إقطاع أو نظارة على وقف ، أو ما شابه ذلك من مناصب الدولة وهي كثيرة .

ولذلك فقد أكثر الشعراء من مدحه ، ومنهم الطالوي ، وقد نشأت الصلة بين الطالوي وبين المولى سعد الدين التبريزي بدافع الطموح من جانب الطالوي إلى التعرف بذلك المولى الجليل والاحتماء بحماه وملاذه .

وربما كانت حادثة الوشاية به لدى ابن بستان واضطراره إلى الاعتذار عما قيل في حقه ما دفع به إلى التماس جانب آخر تتوفر فيه الحماية والأمان إذا أعوزت الظروف . أو ربما كان الطالوي قد أحس بكثرة طلباته من ابن بستان ، ورغب في ألا يثقل عليه بها ، وأن تتوزع هذه الطلبات بينه وبين غيره فتخف مئونتها ، ويغلب تحققها .

هذا ، وقد تحققت الصلة بينهما بفضل الشيخ تقي الدين الراصد ، وهو الذي عرفه عن طريق شيخه محمد بن عبد السلام التونسي ، وكان هذا الرجل فلكياً بارعاً ورياضياً كبيراً له مؤلفات عديدة في ذلك ، وقد ذكر الذين ترجعوا له أنه تولى قضاء نابلس ولكن الرجل كان أهم من ذلك بكثير ، فقد كان يسكن بيتاً قرب القصر السلطاني بطوب خانة سراي وقد زاره الطالوي فيه وسهر معه ليلة ، وهو يصف منزله بالمنزل الشريف ، والحل السامي النيف ، وكان الرجل ينتوي بناء مرصد ضخم بعاصمة الدولة ، كما فعل نصير الدين الطوسي مع ألوغ بك السلجوقي ، ولكن لم يقدر لمشروعه هذا النجاح كما كان ينبغي .

إلا أن الراصد بطبيعة الحال كان علماً من أعلام الدولة وصديقاً للمولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، وقد نصح الشيخ تقي الدين صديقه الطالوي بعد أن وثق بمقدرته الشعرية بعمل قصيدة في مدح المولى سعد الدين، فيكتب هذا قصيدة يستعمل فيها ألفاظ صناعة التنجيم مطلعها:

مطالع سعد للسعود مظالع وشهب العلا من أفقهن طوابع
وأنجم إقبال بأفلاك دولة بدت من بروج السعد والسعد طالع

ثم يقول فيها:

لدى سدة الأجيال سدة عالم إمام لدى أعتابه الفخر خاضع
ملك النهى ماضٍ على الحزم أمره وليس له نحو المعالي مضارع
إلخ...

وهي قصيدة طنانة، أسبغ فيها على ممدوحه كل صنوف السمو والرفعة بما يليق بمقامه السامي في الدولة، إلا أن هذه القصيدة لم تحدث أثراً كبيراً للوهلة الأولى لدى الرجل الجليل، في منصبه هذا الخطير الذي يفد عليه فيه مئات الشعراء إلا أنها كانت مع ذلك فاتحة للتعرف عليه، والقرب من ساحته.

وبعد هذه القصيدة الأولى التي قالها سنة ٩٨٤ هـ، لا نراه يعاود الاتصال به إلا بعد ثلاث سنوات أي في عام ٩٨٧ هـ، وكان وقتها قد فقد وظيفته في دمشق حيث كان يعمل قساماً، فيذهب إلى القسطنطينية ويمدحه بقصيدة طويلة يشكو إليه فيها حاله، ويرجوه أن ينظر إليه بعين إحسان فيقول:

ولقد عطفت ببابه أملي وقد ضاق العطن
وطنته خيراً ذاكراً أنا عند عبدي حيث ظن
فهو الذي يُهدي الثى من راحتيه وليس من
وعلى ما نعتقد فقد أثرت هذه القصيدة وعين الطالوي في إحدى
وظائف التدريس.

وثمة عادة قد اعتادها المؤلف في كتابه هنا، فهو حينما يكون في
منصب ما لا نراه يسجل شيئاً من شعره، ولذا تمر فترة طويلة قبل أن
نراه في عام ٩٩٢ هـ يلجأ إلى القاضي عبد الكريم بن قطب الدين قاضي
العسكر بولاية الروم إبلي بقصيدة يطلب فيها منصب التدريس، ولا
تؤثر القصيدة أثرها فيلجأ للمولى محمد بن إلياس المعروف بجوي زاده
صديقه القديم يستشفع به لدى قاضي العسكر، ولكن هذه الشفاعة أيضاً
لا تحدث أثرها.

وحينئذ يلجأ إلى جناب مفتي السلطنة المولى سعد الدين التبريزي
فيمدحه بقصيدتين متتاليتين، فينصفه الرجل ويأخذ بيده وذلك
بالتعيين بإحدى مدارس العاصمة وتتاح له فرصة التشفي حينئذ من
القاضي عبد الكريم بن قطب الدين حين يُعزل ويتولى المولى عوض
منصبه، فيرسل إلى عوض هذا بقصيدة يشرح فيها ما فعله فيه القاضي
المعزول، وكيف أن الحظ الآن قد أقبل بإقباله، وأدبر النحس بعزل
القاضي ابن قطب الدين.

ويمكث الطالوي قريباً من سنتين في منصب التدريس بدار السلطنة
السنية، ويزداد قرباً من المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي،
ويكل إليه الرجل بعد أن وثق بمقدرته الإنشائية الفائقة أمر الرد على

بعض ما يرد إليه من رسائل فيرد عليها بمقدرة وتمكن.

ثم يجد من نفسه الجرأة على طلب الترقية في وظيفته، والانفصال بمدرسة يكون هو القيم عليها، لأنه على ما يبدو لم يكن قد وصل إلى هذه الدرجة بعد، فيمدحه لذلك بعدة قصائد في غاية البلاغة والتفخيم ولما لم يجد استجابة سريعة يقرر السفر إلى بلده التي طال اشتياقه إليها فيستأذن من التبريزي ويذهب إلى دمشق، ولكن سرعان ما نراه في استامبول ثانية يسلك طريقاً آخر إلى ما يريده، وهو طريق المولى محمد بن بستان فيكتب إليه راجياً منصب التدريس وذلك في غرة رمضان سنة ٩٩٤ هـ، وهو بهذا كأنه لا يريد أن يثقل على المولى سعد الدين التبريزي بمطالبه كلها.

ويتحقق للطالوي ما كان يريد ولا ندري كيف، كما لا ندري الوظيفة التي عين فيها ولكننا نعرف ذلك من إضرابه عن قول الشعر وهي العلامة التي عودنا عليها حينما يعين في أحد الوظائف، ويستمر على ذلك أربع سنوات حتى سنة ٩٩٨ هـ،

وبعد ذلك نرى بعض القصائد الموجهة إلى المولى سعد الدين التبريزي في أغراض مختلفة، واحدة في مدح السلطان مراد مؤرخة في سنة ٩٩٩ هـ، وأخرى في غرة ذي القعدة عام ١٠٠٠ هـ يمدحه فيها بما يدل على تقديره العظيم لذلك الرجل النبيل، ويسأله على استحياء أن لا يففل عن رعايته وبسط جاهه عليه باعتباره منتسباً إليه فهو مولاه، ومولى القوم منهم قياساً على ما كان يقوله الرسول الكريم «سلمان منا أهل البيت» وهو يكرر هذا المعنى في كثير من القصائد التي أرسلها إليه.

وعلى أي حال فلقد ساعده المولى سعد الدين التبريزي مساعدات عدة، ويبدو ذلك أكثر بعد عودة الطالوي من رحلته إلى مضر وتلقيه على علمائها، وكتابتهم بالتوصية به لدى أولى الأمر في الدولة العلية.

ولقد ظل الطالوي على اتصال بالتبريزي حتى وفاته عام ١٠٠٨ هـ، ثم مدح ولديه محمداً وأسعد، اللذين توليا من بعده، وظل يطلب أن يمنح بعض المناصب، حتى ظفر بمنصب في مدرسة خير الدين باشا في استامبول بأربعين عثانياً، وكان هذا آخر منصب تولاه في استامبول قبل أن يذهب إلى بلده دمشق فيستقر فيها.

رحلته إلى مصر:

قبل أن نتكلم عن رحلة الطالوي إلى مصر، ينبغي أن نشير إلى ظاهرة قد تكون السبب في هذه الرحلة، وهي كثرة مطالبة الطالوي بواجدة من وظائف التدريس وإلحاحه في ذلك لكل من يتدحه في شعره.

وهذه ظاهرة تدل على أنه كثير التعطل، فلا يكاد يمكث في عمله عاماً أو عامين حتى يزحزحه عنه آخر ويظفر به، وربما كان ذلك لمداغة الأتراك للعلماء العرب عن المناصب في الدولة وعدم ترحيبهم بهم، مع أن الطالوي كان والده تركي الأصل، وإن لم ينتسب له صراحة، وقَصِّل أن ينتسب لأجداده من أمه الذين كانوا أمراء وملوكاً على الجزيرة الفراتية وكانوا من ذوي النعمة والجاه العريض كما قلنا، وهذا النسب من الجهتين كان يمكن أن يكون شافعاً له في الوصول إلى ما يريد، إلا أنه كان يعدّ عربياً دمشقياً وما أُتيح له لهذه الصفة من المناصب كان دون مواهبه وطموحه.

ولهذا فقد قرر الذهاب إلى مصر والتلقي عن علمائها، وكان هذا يشبه ما يفعله الدارسون في الذهاب إلى بلد معروف بعلمائه لنيل شهادة دراسية تضاف إلى شهادتهم، ولعل في ذلك ما يرفع من قدره فوق الذين لم يرحلوا مثله هذه الرحلة فينال من المناصب ما يرضيه.

وقد صادف عزمه الذهاب إلى القاهرة تولى ابن خالته الأمير إبراهيم الطالوي إمارة نابلس فتوجه معه، وأعطاه الأمير خيلاً ومالاً وزوده وودعه، وتوجه إلى مصر واستقرّ بها نحو سنة.

وقد أخذ بها عن أعلام علمائها في تلك الفترة مثل العلامة علي بن غانم المقدسي الحنفي والشمس محمد النحراوي البصير شيخ الشافعية في عصره، وشمس الدين محمد الرملي، وأعلام الأسرة البكرية الصديقية والشيخ داود الأنطاكي أكبر أطباء العصر، وغيرهم من العلماء والأدباء الذين ذكرهم في كتابه هذا، وذكر ما أجاز به كل واحد من قراءاته ومسموعاته، ومروياته التي رواها عن شيوخه مثبتة السند إلى الطبقة العالية منهم.

وقد حفظ لنا الطالوي بذلك سجلاً حافلاً بأسماء الكتب التي كانت تدرس في جامعات القاهرة ومدارسها في تلك الفترة في مختلف الفنون من علوم القرآن والحديث واللغة والأدب والنحو والرياضيات والطب وغيرها، بأسانيدها، وزاد من التعريف بأعلام العلماء في تلك الفترة أيضاً بما يدل على أن الحركة العلمية كانت نشطة في العواصم الإسلامية في صدر العصر التركي قبل أن تحمذ جذوتها ويقل نشاطها شيئاً فشيئاً مع المظالم المتفشية والأوبئة الفتاكة إلى أن هبطت عما كانت عليه درجات عدة.

ولم يستفد الطالوي في رحلته هذه فائدة علمية فحسب، بل إنه ابتكر وسيلة أخرى هداه إليها عقله، وهي أنه أراد أن يأخذ توصيات من علماء مصر إلى أولي الأمر بالدولة العثمانية، فألف رسالة سماها «رسالة الحسب الطالوي، وعجالة النسب الأرثقي» تشرح لهؤلاء العلماء ما كانت تتمتع به أسرته التي ينتسب إليها من أصل عريق ومحمد تليد وفي هذا ما يوجب على السلطان أن يعامل سليل هذه الأسرة الذي جمع إلى رفعة النسب جمال الأدب بما يستحقه من التكريم وقد كتب له العلماء المصريون موافقين على هذا الرأي ونحن نجتزئ من توصياتهم هذه بقطعة لأحدهم جاء فيها:

«وبعد، فقد وقفت على هذا المصنف المشتمل على ذكر نسب سيدنا ومولانا العالم المحقق والنحرير المدقق، كنز الدقائق ومفتاح الحقائق... صاحب الأبحاث، والمناظرات، والأجوبة المحققة في المحادثات...، سلالة السادة الكرام، وأعيان الأمراء العظام، من أكثر الناس من التصنيف في شرف نسبه وأطالوا، سيدنا ومولانا درويش جلبي الشهير بابن طالو...، فوجدته خير مصنف في ذكر نسب قد علا مناراً وشرف مقداراً... فله دره من نسب رفيع، وأصل بديع....»

إلى أن يقول:

فينبغي لمولانا السلطان أدام الله أيامه، ونشر في الخافقين أعلامه، النظر إليه بعين العناية، ومعاملته بمزيد الرفق والرعاية، والإنعام عليه بما طلبه من المناصب وأراده، فإنه أهل لذلك وزيادة، هذا والمناصب تشرف بتولية مثل هذا النسيب، والمراتب تفتخر بجلوس مثل هذا اللبيب، والعبارات تقصر عن استيعاب مفاخره، واللسان يكل عن تعديد مآثره، وبالجملة فهو مجمع الفضائل، ومفخر الأفاضل... إلخ.»

ونحن نعتقد أن هذه التوصيات قد آتت ثمارها، فإن المحي^(١) يذكر أن المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، معلم السلطان أكرم مشواه بناء على معرفة حقوق أبناء النعمة وأغنياء الأصالة، خصوصاً الجامعين إلى شرف النسب شرف الأدب، وامتدحه هو وولديه محمداً وأسعد بقصائد كثيرة وولي بعنايته مدارس عديدة في الروم.

فترة تعطل الطالوي الاضطرارية:

كان لا بد للطلوي أن يتعطل فترة عن العمل بحكم عرف سائد في وظائف التدريس بالدولة التركية، إذ يذكر البوريني^(٢) أن من قاعدة موالي الروم أنهم يعزلون المدرس ما بين الأربعين والخمسين نحو سبع سنين، ولا ندرى السبب في ذلك، أهو إتاحة الفرصة لآخرين ليأخذوا دورهم أم هو إتاحة الفرصة لمن عزلوا الاستزادة من العلم أو التأليف؟ على أي حال فبناء على هذه القاعدة عزل الطالوي، وهو قد استطاع تأخير هذا العزل فترة طويلة. وربما كان للتوصيات التي أتى بها من مصر أثر في استبقائه إلى سن الثالثة والخمسين، فهو بعد أن ذهب إلى مصر عام ٩٩٨ وبقي بها نحو سنة، عاد إلى دمشق لفترة قصيرة، ثم ذهب إلى القسطنطينية، فظل بها نحو أربع سنوات تولى فيها ما تولاه من المدارس قبل أن يتقرر عزله. فيعود إلى دمشق ليقضي بها الفترة المقررة لهذا العزل أو هذه الإجازة الإجبارية.

إذاً فهو قد استطاع تأجيل هذه الفترة قدر الاستطاعة، ويبدو أن

(١) خلاصة الأثر ١٥٠/٢.

(٢) تراجم الأعيان ٢٠٢/٢.

تحديد السن ما بين الأربعين والخمسين كان تقريبياً، والمهم أن يعزل المدرس فترة معينة سواء عزل في الأربعين تماماً أو استطاع تأخير ذلك لعدة سنوات.

وثمة أمر يلفت النظر في هذه المسألة، هو أن البوريني يقرر أن الطالوي عزل قبل ذهابه إلى مصر، وأنه انتهز فرصة هذا العزل ليذهب إليها، ونص كلامه هو كما يلي:

« من قاعدة موالي الروم أنهم يَعزِلُون المدرس ما بين الأربعين والخمسين نحو سبع سنين، ففي هذه المدة ورد (أي الطالوي) إلى مسقط رأسه بدمشق الشام، فاتفق أن ابن خالته الأمير إبراهيم الطالوي تولى الإمارة بولاية نابلس فتوجه معه وأعطاه الأمير إبراهيم خيلاً ومالاً وزوده وودّعه.. إلخ..

وعاد من مصر إلى دمشق فاجتمعت به وطلبني لمذاكرته في تفهيمه بعض المشكلات في عبارة الشرح المطول للمولى سعد الدين التفتازاني واستمر هناك إلى أن قربت المدة بين الأربعين والخمسين فتجهز للسفر إلى الروم.»

هذه عبارته، وهي تنص على أنه في مدة العزل قام برحلته إلى مصر، وأنه عاد إلى دمشق فمكث بهامدة طويلة حتى قرر أن يسافر إلى الروم.

والواقع أن هذا غير صحيح، فمن المعلوم أن هذه الرحلة كانت في عام ٩٩٨ هـ، وقد سجل ذلك الطالوي في أكثر من موضع، ثم سجل بعد ذلك وقت عزله بقوله: ولما انفصلت عن بعض مدارس الروم عن الأربعين توجهت إلى دمشق الشام أواخر سنة ١٠٠٣ هـ.

هذا ومنذ هذه السنة بقي الطالوي في دمشق حتى أواخر سنة ١٠٠٩ هـ، وكانت السنوات السبع قد قاربت نهايتها فعاد إلى الروم عن طريق البحر، وبدأ يتصل بمن يعرفهم من أولي الشأن فيها للعودة إلى منصبه في التدريس.

كيف قضى الطالوي وقته في دمشق:

قضى الطالوي سبع سنوات أو نحوها متعطلاً في دمشق بحكم قانون موالي الروم كما أسلفنا.

وكان الطالوي إبان تلك الفترة قد وصل إلى درجة كبيرة من الشهرة التي نالها بكده وجهده، ونشاطه الجهم بين دمشق والقاهرة وبلاد الروم، وتعرفه على أولي الأمر في الدولة من ولاة وعلماء وأعيان من الذين اتصل بهم ومدحهم، وأفاد منهم وأفادوا منه.

وقد عاد إلى بلده ليحتل مكان الصدارة بين علمائها، بحكم كونه شاعراً مجيداً، وأديباً تقلب في مختلف الوظائف في بلده وفي بلاد الروم.

وقد أتاح له ذلك أن يشارك في أحداث بلده بطرف، فهو مقرب من ولاة دمشق بمدحهم وبجالسهم ويأمنون إليه، ولا يعمل الواحد منهم عملاً عمرانياً إلا استحضره ليخلده في شعره.

وإلى جانب ذلك فهو يدافع عن بلاده الحبيبة، فنراه يهجو الظلمة من القضاة الذين تصادف أن تولوا القضاء في هذه الفترة ولم تحمد سيرتهم، كالقاضي أحمد الإباشي، الذي عرف بالجور والعسف والرشوة، فألف فيه كتاباً سرد فيه كل مظالمه وسماه «رفع الغواشي عن ظلم الإباشي» واشتهر الكتاب وكان سبباً في أن جرؤ الناس على ذلك

القاضي كما أسلفنا فقفوه بالحجارة في الطريق، ولم يرسل إليه الوالي
عساكر حمايته، ثم ما لبث أن جاء الأمر بعزله.

ونراه في موقف عكس هذا يكتب كتاباً على لسان أهالي دمشق
لرفعه إلى أولي الأمر لابقاء قاضٍ اشتهر بالعدل في منصبه، بعد أن كان
قد تقرر نقله.

ثم نراه يمدح المولى عبد الوهاب أحد القضاة المعروفين بمتانة الخلق
وقوة الشخصية لوقوفه ضد مظالم والي دمشق المعروف بأحد باشا
الحرامي.

كما نراه يمدح سنان باشا بن جمال أحد ولاة دمشق الذين قضوا على
كثير من مظاهر الفساد المنتشر بين العامة وأشاع العدل بين الرعية.

أما صلاته الشخصية التي توطدت بين الأعيان من العلماء والأدباء،
وأما المشاركة في الحياة الأدبية والإخوانية والاجتماعية السائدة آنذ فهي
مما يصعب حصر صورته هنا، ويكفي أن يطلع عليها القارئ في الكتاب
ليعلم مدى خصوبتها وتنوعها.

العودة إلى القسطنطينية:

ولما انقضت السنوات السبع المقررة هرع الطالوي إلى القسطنطينية
عن طريق البحر، وكان يحمل كتاباً من والي دمشق شريف باشا إلى والي
بعلبك فخر الدين المَغْنِيّ يوصيه به خيراً، ولكن لسوء الحظ يطمع ذلك
الوالي في غلام للطلوي كان أثيراً لديه ورآه معه فيستولي عليه لنفسه،
فيغضب الطالوي لذلك أشد الغضب ويهجوه بعد أن كان قد أسمعه
قصيدة في مدحه، ويستعدي عليه والي دمشق.

ثم يواصل رحلته بعد ذلك إلى بلاد الروم ليعود إلى مدح السادة أولى الأمر فيها، فيمدح شيخ الإسلام (صنع الله) الذي تولى بعد المولى سعد الدين التبريزي ولما انفصل الرجل عن منصبه وعين بدله أسعد أفندي ابن المولى سعد الدين أشاد به الطالوي في عدة قصائد كما مدح أخاه المولى محمد بقصائد مماثلة، ومدح غيرها من الرؤساء والولاة في الدولة، ولم يكتف بنظم قصائده باللغة العربية بل نظم باللغة الفارسية أيضاً بعض القصائد ليدل على براعته فيها، وقد أثمر هذا النشاط ثمرته بطبيعة الحال فأعطى مدرسة خير الدين باشا بخمسين عثمانياً.

على أنه لا يمكث في القسطنطينية فترة طويلة ولا يلبث أن يعود إلى دمشق وهو معين في منصبين بها، الأول منصب مفتي دمشق، والثاني قيم المدرسة السليمانية بها وذلك أرفع ما وصل إليه من المناصب، وليس هناك مطمع لشخص ليس تركياً صرفاً في أن يعين في مثلها، وفي بلده وبين أهله.

رأي مخالف للبوريني:

ولكن البوريني يرى في ذلك المنصب خطأ لمرتبة كان الطالوي قد وصل إليها في القسطنطينية، وهو يرجع هذا إلى أنه كان هجاء وهو يقول في ذلك إنه، هجا قاضي القضاة بدمشق أحد الشهير بالإباشي وأفحش في هجوه إلى الغاية، والحال أنه كان قد مدحه إلى الغاية وبالع في مدحه، وهجا قاضي العسكر المنصور، وهو المولى كمال الدين ابن المولى أحمد أفندي الشهير بطاشكيري زاده، ثم يقول: وكان هجوه للموالي سبباً لطرده من منازل العالي، وإبعاده عن مفاخر الأيام والليالي، فإنه لما أعطى مدرسة خير الدين باشا بخمسين عثمانياً دفعوه إلى الشام، وأبعدوه

عن قصده والمرام، فأعطوه مدرسة السليمانية بدمشق المحمية... إلخ.

ونحن يجب أن نأخذ كلام البوريني بحذر، فقد كان الرجلان متعاصرين، والمعاصرة كما يقولون حجاب، ثم إنه لم يكن بينها كبير وُد، بل كانت بينها معاتبات لما كان يصل كلاً منهما من وشايات في صاحبه.

أما القضية التي ذكرها عن هجائه للناس، فإنه لم يذكر غير مثالين اثنين، الأول القاضي الإلباشي وقد مدحه الطالوي باعتباره شاعر الشام حين توليه منصبه، مجاملة واجبة وترحيباً لازماً بموظف كبير سوف يتولى الحكم بين الناس وتحقيق الأمن والعدالة فيما بينهم.

ولكن بعد فترة ظهر ما كان خافياً من هذا القاضي إذ كان ظالماً غشوماً يجب جمع المال بأي طريق، فاشتهرت في أيامه الرشوة وفشت، وأحس الناس بقسوة حكمه لأنه لسوء حظه أتى بعد القاضي عبد الوهاب الذي اشتهر بالعدالة الفائقة وسار في الناس بسيرة السلف، فكان البون بينها شائعاً وضح العامة بالشكوى منه ثم جءوا على قذفه بالحجارة إبان خروج موكب الوالي لصلاة الجمعة، فلم يدافع عنه الوالي بإرساله عاكر لحمايته، مما كان يعد اعترافاً ضمناً بأنه يستأهل من الأهالي ذلك العقاب.

ورجلٌ والحالة هذه كان يستحق من الطالوي ما قاله فيه من هجاء مها قال فيه قبل ذلك من مدح، إذ أن ذلك المدح كان - في الغالب - لاستمالة قلبه لتحري العدل والرأفة بجموع الناس، فلما لم يتحقق ذلك منه كان حقيقاً بالهجو بلا نزاع.

أما القاضي الثاني فلم يرد له ذكر في كتابنا هذا. ثم يقول البوريني عنه: «إنه جاء إلى الشام بعظمة لا ترام، ووضع

على رأسه قبة تنازع قبة النسر كبراً، وسار سيرة صارت بين الناس مثلاً وخبراً، فكان يرفع رأسه إلى جانب السماء كأنه ينتظر حديثاً يسمعه أو يرقب مალأ يضمه إليه أو يجمعه».

والواقع أن العظمة التي أتى بها الطالوي إلى الشام عظمة يستأهلها، فالرجل قد لاقى الأمرين في سبيل الوصول إلى ما وصل إليه من منصب وجاء نالها بكفاحه وجهده وبما منحه الله من موهبة. ثم هو قد خبر الناس جميعاً بدءاً من كتبة المحاكم حتى ذوي المناصب الرفيعة في الدولة من أصحاب السلطة ومن حاشية السلطان الأفخم، ولا ننتظر من رجل كهذا أن يسير في الطرقات ويتبسط بالحديث إلى الناس حتى لا يوصف بالكبر.

ثم نعود إلى ما أخذه البوريني عليه أيضاً من أنه سار في الناس سيرة صارت مثلاً وخبراً فكان يرفع رأسه إلى السماء كأنه ينتظر حديثاً يسمعه أو يرقب مالا يضمه إليه ويجمعه...

وهذا كلام ليس مفهوماً على الإطلاق، ولا يعد نقداً موضوعياً يمكن أن يناقش! فهل جن الرجل مثلاً؟ أو أصابه السعار إلى المال فهو يصل إليه بكل سبيل، أم يا ترى عمي عن كل شيء غيره فهو يترقبه أنى سار وحيثما ذهب؟

لا ندري، وليس لهذا من تفسير إلا أنه قول رجل لا يحب صاحبه وينفس عليه مكانته ومنزلته من تقريب الولاة واحترام الناس جميعاً له.

ولو كان الرجل هجاء بطبعه كما يقول البوريني لاحتفظ بشعره في الهجاء في كتابه، ولكن يبدو أن هجاءه كان على نمط هجاء أبي تمام الذي كان يمدح بعض الناس ثم يهجوهم لأنهم لم يعرفوا قدره، أو على نمط هجاء

البحثري الذي هجا كثيراً من ممدوحيه ، وهي سنة معروفة عند الشعراء يهجون من يمدحونهم أحياناً ليخيفوهم وليعلموهم أنهم قادرون على المدح وقادرون على الهجاء وذلك ليجزلوا لهم في العطاء .

وليس كما يقول البوريني أثر في أفعال الرجل ولا أقواله ، لا فيما رواه عنه في ترجمته له ، ولا فيما أثبتته الطالوي نفسه في كتابه هذا من أخبار وأشعار ، بل إنه يبدو - كما يتضح للقارئ - رجلاً مهذب النفس ، عالي الخلق ، لم يذكر أحداً بسوء في كتابه إلا هذا الإباحي ، وإلا واحداً أو اثنين ممن وعدوه بعود لم يفوا بها ، وقد مسهم مساً رقيقاً لا يمكن أن يعد هجاء فاحشاً بحال .

أما البوريني فقد هجا الكثير من أوردتهم في كتابه (تراجم الأعيان) وأطنب في هجائهم ولم يُعَف الطالوي أيضاً من هجوه ، وذلك بالرغم من أنه كان له صديقاً ، وقد مدحه ببعض قصائده ، وما ذلك إلا أنه كان ينفس عليه ، كما قلنا ، مكانة لم يستطع هو أن يبلغها ، وكانت من الوضوح والشهرة بحيث لم يستطع أيضاً أن ينكرها حين ترجم له .

على أننا مع هذا يجب ألا نغفل أمراً وهو أن الطالوي قد هجا في مقدمة كتابه الأوضاع السائدة في بلاد الروم بصفة عامة ، وتولي المناصب من لا يستحقها من الناس وانقراض العلماء ، وانتشار الظلم والعدوان بين أمرائها ، وهو ما يعبر عنه بقوله «أصبحت مدارس الروم فوضى ما بين أغربة وبوم... تور محاريبها البيض سود الزنوج ، وتنزو عليها كالقردة حمر العلوج ، أما تراها الآن بين أسود نوبي وأحمر من بني أصفر شعوي.. جلت جثثهم ، ودقت أحلامهم ، فإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، صيغتهم في الجموع جمع تكسير ، وآيتهم في البحث إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

وهي صورة مؤلة شاركه في الحديث عنها الشهاب الخفاجي في كتابه
الريحانة في الفصل الذي عقده لبيان أحوال الروم^(١).

وهو يذكر أنه بعد وفاة سعد الدين التبريزي، ثم المولى صنع الله، ثم
انقضاء مدة محمد وأسعد نجلي التبريزي، أن صار الدين ملعباً وسخرية،
وآل الأمر إلى اجتراء السلاطين والوزراء على العلماء وقتلهم وإهانتهم.

وذلك ما كان يدمي قلب الطالوي، وأدى به إلى هجاء الكثير من
المشاركين فيه فدفع بهم إلى إزاحته من طريقهم وإعطائه منصباً في
دمشق، ولكن ذلك الهجاء كان للمصلحة العامة وهو أمر مطلوب من
الأدباء في كل عصر وليس هجاء شخصياً مما قد تثيره الكراهية أو الحسد
في النفس، وهو ما يجه الذوق والواجب في كل آن.

خاتمة الطالوي

قضى الطالوي أربع سنوات مفتياً لدمشق وقياً على المدرسة السلمانية
بها يزاول وظيفته ويستمتع بصحبة أقرانه ولداته، من العلماء والقضاة
والأعيان، وقد خصص منزلاً صغيراً في بيته (بمحلة التعديل) كان يقابل
فيه أصدقاءه وقاصديه، ويقول عنه إنه بيت الفتاوى وموضع الكتّاب.

وفي رمضان من سنة أربع عشرة بعد الألف مرض بالحمى، وتوفي
ليلة عيد الفطر من تلك السنة.

رحمه الله رحمة واسعة.

(١) أنظر الفصل الذي ساء الخفاجي: بيان أحوال الروم، وانقراض علمائها، ونشر الظلم
والمدوان بين أمرائها، في ريحانة الألباء ٢٨١/٢ - ٣٠٧.

شِعْرُهُ

يعد الطالوي من أكبر شعراء عصره، وقد حاز شعره على إعجاب معاصريه فأعطوه من المديح والإطراء الشيء الكثير، ولعل من أكثرهم في ذلك الشهاب الخفاجي الذي يصفه بقوله: «هو حَسَّان عصره، وأبو عبادة دهره، له في المجد زند وري، وللأسماع من مورده العذب شرب وري، ونجر فكره المديد سريع، ونسج طبعه أبهى وأبهج من وشي الربيع، إذا حلّى أجياد الفصون بعقود در الغمام، وألبس هامات الربى من النبت مخضر الغمام، فكأنه بسحر البيان أعدى عيون الغيد الحسان»^(١).

ويذكر البوريني أنه «راسل كثيراً من علماء عصره، وكاتب جملة من أدباء مصره، وأجابوه على الوزن والقافية، ومدحوه بالجملة الكافية...

ثم يقول رغم ما كان بينهما من منافسة:
ولعمري لقد اجتهد في الفن المذكور ودأب، حتى لقد استحسنت
قصائده وسارت شوارده...

ثم يقول: وقصائده مشهورة، وفي الدفاتر مسطورة^(٢).
ويصفه المحي بقوله: «أحد أفراد الدهر ومحاسن العصر، وكان

(١) رجانة الألباء ٥٣/١.

(٢) تراجم الأعيان ٢/٢١٣، ٢١٤.

ماهرآ في كل فن من الفنون، مفرط الذكاء فصيح العبارة منشأ حسن التصرف في النظم والنثر، وله كتاب (ساعات دمي القصر) جمع فيه أشعاره وترسلاته، وهو كتاب حن الوضع متداول في أيدي الناس... «^(١).

ثم يقول: «وهو في كل أسلوب من أساليب الشعر كثير الملح كأنما يصدر شعره عن طباع المفلقين من الشعراء» «^(٢).

وهكذا نرى استحساناً من الجميع لشعره، فما قصة شاعرية الطالوي وما وصل إليه من مكانة بين شعراء عصره؟

يذكر الطالوي أن أول قصيدة جادت بها قريحته كانت في مدح المولى ابن بستان عام ٩٧٦ هـ أي وهو في السادسة والعشرين من عمره.

وربما كانت هذه هي المحاولة التي سجلها فعلاً وأرسل بها إلى صاحبها، ولكننا نظن أن المحاولة المتكاملة لا بد أن تسبقها بعض المحاولات التي تقل عنها، وهذه المحاولات لا تعيننا بالطبع إلا بمقدار إسهامها في صقل موهبة الشاعر التي وهبها الله إياها.

ونعتقد أن هناك بعض العوامل التي نعرفها في صقل تلك الموهبة، ومنها: انخراطه في مطلع شبابه في سلك الصوفية وحضوره حلقات الذكر والسماع وبراعته في إنشاد القصائد لكبار الشعراء المتصوفة بالصوت الجميل الذي كان يمتاز به، والذي وصفه البوريني بقوله: «إنه كان يجرح الفؤاد ويهيم بالعاشقين في كل واد». ولا ريب أن حفظ هذه

(١) خلاصة الأثر ١٤٩/٢، ١٥١.

(٢) المصدر نفسه ١٥٥.

القصائد وترديدها ليلة بعد أخرى بصوت منغم، وأداء جيل كان ياعده على تقليد ما يحفظ من شعر عذب، وعلى المحافظة فيما يكتب على الوزن السليم والإيقاع الرتيب، بحيث يتفق جال الألفاظ وانسجام النغمات فيما ينظمه، ويعد به شيئاً فشيئاً عن خشونة الألفاظ ونشاز الألحان، ولا شك أن الطالوي استفاد من هذه الميزة التي لا تتوافر لكثير من الشعراء في نظم شعره.

ومنها: تلقيه الأدب على شيخه أبي الفتح محمد بن عبد السلام التونسي المالكي، وملازمته له طويلاً، وقد كان الرجل كما ذكرنا علامة في الأدب قوالاً للشعر الجميل ذواقة له، وكان يحيا حياة الشعراء في إقباله على التمتع بالحياة، وما فيها من مباهج حسنة، ووجوه للفتيان مستحسنة، ويتعاطى في خلال ذلك الأفيون، ويشرب قهوة البن، مما أخذه عليه العلماء لأنه كان فقيهاً كبيراً من فقهاء الحنفية شغل منصب الإفتاء في دمشق قبل أن يكون أديباً شاعراً، ولكن الرجل كان يداوي بذلك ما ابتلى به من رقة الحال والفقر الشديد، فضلاً عن الغربة التي كان يحس بها كلما ضاقت به الحال فيلجأ إلى قول الشعر يجد فيه متنفساً.

ومن الحق أن نقول إن الرجل مع هذا كان عالماً فذاً، ورغم إدمانه على الأفيون وغلبة تأثيره عليه أحياناً وهو في حلقة الدرس مما يجعله يهجم أو يشرد، إلا أنه كان من صفاء الذهن وتوقد القرينة بحيث يتمكن من العودة إلى السيطرة على عقله سريعاً، فإذا فرغ القارئ من قراءة المقالة فتح عينيه وقرر المقالة أحسن تقرير^(١).

(١) الكواكب السائرة ٢٢/٣.

ويقول عنه الغزّي: «إن الناس قد حملوا عنه العلم وانتفعوا به، وأنبل من تخرج به في الشعر والعربية العلامة درويش بن طالو، مفتي الحنفية في دمشق ومدرس السليمانية بها، وسلك طريقته فيما هو فيه، وكان الشيخ أبو الفتح المالكي حجته في كل ما يأتيه^(١)».

ومن الممكن حقاً أن نلاحظ تأثير شيخه في بعض أغراض شعره من مثل التظاهر بمحبة الأشكال والصور الحسنة، ومن الممكن كذلك أن يكون الرجل قد قوم له المحاولات الأولى من شعره وأطلعه على تجاربه الفنية في النظم، وإمكان استفادته منها، فضلاً عما استفاده هو نفسه من دروسه ومجالسته.

أما تأثيره فيه بتكييفه بالأفيون أو مداومته على شرب قهوة البن، فلم يعرف عن الطالوي شيء منها.

ويمكننا أن نذكر غير هذا من العوامل المؤثرة في شعره، ما قاله البوريني من أنه كان مائلاً إلى قصيد ابن أبي الحديد، ومن المعروف أن الشيخ عز الدين بن أبي الحديد له القصائد السبع العلويات في مدح أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، وشرحها بعض العلويين وقد قرأها الطالوي بشرحها على الشيخ داود الأنطاكي أيام رحلته إلى مصر واستجازه روايتها.

ويذكر الذين ترجموا للمؤلف أنه كان فيه تشيع لطيف، ولكننا لا نرى هذا التشيع واضحاً في كتابنا هذا إلا بقدر ضئيل يتمثل في قصيدة مدح بها بعض الأمراء العلويين، أما تأثيره بابن أبي الحديد فقد كان في

(١) المصدر نفسه.

تأليفه سبع قصائد على نسقه أفردتها بتأليف خاص غير أنها لم تصل إلينا.

كما يمكننا أن نذكر من عوامل شاعريته معرفته الواسعة بالشعر وتأليفه فيه فهو قد صنف مختاراً لشعر أبي تمام، ونرى هنا استشهاده الواسع بشعر المتنبي بنسبته إليه أحياناً وبدون نسبة إليه أحياناً أخرى، ولكنه يدور على طرف قلمه مما يدل على استيعابه له، وهناك إشارات كثيرة تدل على سعة اطلاعه على دواوين البحري والشريف الرضي. وأعلام الشعراء من غيرها، وقد استطاع المحي أن يكشف عن تأثير بعض شعراء الطبيعة كالصنوبري في مقطوعات من شعره.

من أغراض شعره في الكتاب

أ- المطارحات:

من الطبيعي أن تحتل المطارحات الجزء الأكبر من الكتاب ما دام معقوداً باسمها ولكن الواقع أنها لا تمثل إلا جزءاً يسيراً منه، أما بقيته ففي أغراض مختلفة من أهمها المدح، وسوف نورد بعضاً من مطارحات الطالوي نموذجاً لغيرها من المطارحات ولنختار مثلاً بعض أبيات هذه القصيدة التي كتبها إلى الشيخ عماد الدين العمادي (فخر مدرسي دمشق الشام وعمادها العمدة وشيخ الإسلام) والقصيدة كتبها الطالوي عام ٩٧٨ هـ أي في مستهل شبابه وقوله للشعر، وقد أرسلها إلى العمادي طالباً الجواب، وأتى فيها قوله:

عهد السرور وريعان الهوى النضر، سَقَاكَ عَهْدُ الحيا رِقْراقُ منجدٍ
وجاد رَيْعِكَ وَسَمِيَّ تَكَرُّكُهُ رِيحُ الصَّبَا بين منهلٍ ومُنْهمِرٍ

وغردت في رُبَاك الورق وابتكرت
 ولا أَعْبَتُكَ أرواحُ النسيم ولا
 كم اجتليتُ بدوراً من مطالعها
 من كلِّ رُغْبِيَّةٍ تهفو بمصطبري
 قامت تعانقني يوم الوداع وقد
 تقول والبينُ تغشاها ركائبه
 لا تعتب الدهر إن حالت خلائقه
 وإن تُرد تتقي من صرفه نُوباً
 مولى حماهُ غداً أمن المروع كذا
 حتى امتطى صَهَوَاتِ المجدِ ساميةً
 يا فاضلاً كم جَلَّتْ أَبْكَارُ فكرته
 ويا عماداً لبيت الفضل يرفعه
 إلى ذُراكَ أَتَتْ فاقبل على دَخَلِ
 لا زلت في نَعَمٍ تسمو بسوددها
 وما وشي الطرسُ تَمِيقُ اليراع بما
 والقصيدة طويلة في خمسة وثلاثين بيتاً، وقد اخترنا منها هذه
 الأبيات لبيان طبيعة قصائد المطارحات، فهي تبدأ بمقدمة طلية ولكن
 الوقوف فيها ليس على طلل بل على أيام الشباب الناضرة الفاتنة وما
 كان له فيها من غزوات موفقة مع الحسان، والتي بقيت منهن واحدة
 تبكي وهي تقبله وقد حانت ساعة الوداع.

ثم يأتي التخلص البارع بذكر المدوح في قولها:
 وإن تُرد تتقي من صرفه نُوباً فالجأ لظل عماد الدين تستر

وبعد ذلك يأتي ذكر المدوح ورفعة شأنه وسمو مكانته، وما يفيض به من علومه على الشادين، ومن كرمه على المعتفين.

وأخيراً الدعاء له بدوام السمو والرفعة حتى تبلغ رفعة السالكين في السماء، ثم أحسن الختام ببيتين من رائق الشعر يؤكد فيها ما طلبه له من دعاء، بدوام عزه ما دامت الحمايم تسجع بالآصال والبكر، وما ظلت اليراعات توشي الطروس بوشي كابتسام الزهر.

ومن الواضح أن الطالوي هنا كان في الثامنة والعشرين من عمره وما زال مبتدئاً في قول الشعر، يحاول أن يقدم أقصى ما عنده من فصاحة وبيان، ليتناول بها إلى مقام المدوح فيرسم له لوحة من الطبيعة الخلابة والشباب الغض العاشق للخير والجمال، وما يأمل فيه هذا الشاب من فيض جوده، وعلو قدره ولتكن بضع كلمات في قصيدة يرّد بها على هذه الهدية، فترفع من شأن الهدية والمهدي، وهذا هو الأساس في المطارحة.

والملاحظ على القصيدة بعد ذلك أن ضورها البانية من تشبيه واستعارة قريبة المأخذ سهلة المتناول، وأنه يقلد فيها الجاهليين من الدعاء بالسقيا وذكر الربع وريح الصبا والرعبوبة وما إلى ذلك.

ولكن الملاحظ أيضاً أنها تمتاز بسهولة الألفاظ وحلاوتها وجودة السبك وجمال الموسيقى بحيث لا تحس أن لفظاً واحداً يقف قلقاً في أثناء القراءة، وأنها مما يمكن أن يغنى ببعض أبياته.

★ ★ ★

وهذا نموذج آخر عكس الأول، يقوله الطالوي بعد أن أصبح شاعراً شهيراً يحتل مكانته بين العلماء في عاصمة الدولة العلية، وهو يرد

به فيها على الشهاب الخفاجي الشاعر المبتدىء آنذاك الذي أرسل إليه
بقصيدة لمطارحته ، يقول فيها :

قَبَّلْتُ مصطبحاً شفاه الاكُوسِ والصبح يسم لي بشجر ألعسِ
حتى غدت منه الغزالة واختفى مسك الدجى عند الجواري الكُنسِ
والنهر سَيْف والنسيم فرنده وله حائل من خمائل سندس

وبعد عدة أبيات في وصف الطبيعة ينتقل إلى الغزل :

ولوا حظ مرضى بها اعتل الصَّبَا والصَّبُّ بالسُّقْم المبرحِ مُكتسي
فتنت بأنفسها ففيها علة من وجدها وفتور مهجور نسي
فلكم قطفت ثمار لهو أئبعت وغفلت عما قد جنى الدهر المسي

ثم يمدح مطارحه (الطالوي) بقوله :

يا عقد جيد الدهر غرة فجره وطراز ما حاك العلا من ملبس
بل كعبة حجت لها آماننا فدنت إلى حرم الكمال الأقدس
من آل طالو فتية طالوا الورى بذرى أشم من المعالي أقعس
أسكرتنا بسلاف شعرٍ لفظه كأس له فكري بسمعي محتسي
وسرت نسيات سحيراً أرقصت طرباً بها عقل اللبيب الأكيس

ثم يهديه قصيدته ويدعو له :

فإليكها منى قوافٍ دَوْحُها زاهٍ بغير يد النهى لم يُمنسِ
بكرأ إلى كُفءٍ تُزَف ومهرها نقد الجواب براحة المستأنسِ
لا زلت في حلل المسرة رافلا ما حدَّقت ليلاً عيون الحُنسِ

فيجيبه الطالوي على وزنه وقافيته بقوله:

خَدُّ تورد من لبيب تنفس	أَمْ قَدْ مَعُولِ المِراشِفِ أَلَسِ
من ريم وجرة أو جآذر جاسم	لبس الشاب الروق أحسن ملابس
متوشحاً خَطِيَّ قامته فإن	ماست فيا خَجَلَ الفُصُونِ المِيسِ
فإذا رنا فاللحظُ منه بابلٌ	هاروتُ منه نُطْقُهُ كالأخرسِ
أَمْ لَوْلَوْ رطبِ قوائِمِ زانه	حُسنِ الفِطامِ بجيدِ ظبيةِ مُكْنِسِ
أَمْ روضة غناء غنت في ذُرَا	أَغصانها وُرُقٌ بلحنِ مُؤنِسِ
حاكت لها أيدي الجنُوبِ مطارِفا	وكستُ معاطفها غلائلُ سُندُسِ
أَمْ عادة هيفاء أذكرتِ الصِّبا	صَبَا تناسى العهد منه وما نِسي

ثم يستمر في القصيدة مادحاً صاحبها:

وافئتُ وفي بقيَّةُ أَلْهُو بها	من شَرَّخِي المَاضِي تَعَلَّةُ مُفْلِسِ
من ماجد وشهاب فضل ثاقبِ	حُلُو الشَّمالِ بالفضائلِ مُكْتَسِي
فظننتُ ريعانَ الشابِ أُعِيدَ لي	حتى الوصالِ من الحبيبِ المُؤنِسِ
حتى اطمانتُ فاجتليتُ بوجهها	قَمَرِ السَّماءِ بلبيلِ شَعْرِ جِنْدِسِي
لما بدا خفيتُ له شمسُ الضحى	في ثوبِ غَيَمٍ ترتديه وتكتسي
نطقتُ مناطقها فأخرسُ دُونها	نطقُ الفصيحِ وحارِ فكرِ الكَيِّسِ

ثم يأخذ في مدحه والإعلاء منه فيقول:

لَمْ لا وناظمُها الشهاب من اعتلى	شُهبُ العُلا بكمالِ فضلِ اقْتَسِرِ
فرعُ غناه إلى خفاجةً محتدٌ	والفرعِ ينبىءُ عنه طيبِ المَفرَسِ
وافئتُ لنا منه حديقةُ روضةٍ	خجلتُ لبهجتها عيونُ النُّرجِسِ

إني لأعجبُ من شهابٍ قد سما مُتَبَوِّأَ العلياءِ أرفعَ مجلس
والشَّهْبُ تَطْلُعُ السَّماءَ وَحْدَهَا فَلَكَ الثَّوَابُ وهو فوق الأطلسي

ثم يدعو له ، ويهبه قصيدته فيقول :

لا زلت في حلل الفضائل رافلاً متوشحاً بُرْدَ الشباب الأنفس
خُذْهَا وإن كانت مُقَصَّرَةٌ فَمِنْ شَأْنِ الكرامِ قَبُولَ عُذْرِ من مُسِي
شامية يعنو لباهر حُسنها وجهُ الغزالة والغزال الألس
وانعم بها لا زلتَ ترشف سمعنا من راح نَظْمُكَ مُتْرَعَاتِ الأَكُوسِ

ومن الواضح الفرق بين مبتدئ في الشعر كالشهاب الخفاجي ومتمكن منه كالطالوي فالأول في الأبيات الأولى يقف ليصف الطبيعة جزءاً جزءاً بعد أن اصطبح ببعض الكؤوس فالصبح أمامه قد انتشر بياضه ولم يبق فيه من ظلمة إلا كالسواد المحبب في الشفة السفلى من جارية بيضاء ، وقد جاءت الشمس ففر من أمامها ظلام الصباح بسواده ورائحته الطيبة كالمسك إلى حيث نجوم السماء .

أما النهر فهو يُشبه قراب السيف ينسلُّ منه النسيم العليل ، وأما خائله فهي من الزرع الأخضر الزاهي الذي يشبه خائل السندس ، والصورة هنا رغم جمال تشبيهاتها واستعاراتها ، قريبة المأخذ ، سهلة التناول ، ولو رُحنا نقارن ما قاله الطالوي بما أرسله إليه الخفاجي من قصيدته لوجدنا أن الطالوي يحسم المعاني تجسماً ويروح يتساءل عن ما هو أمامه ، أهو خد متورد من تلاحق الأنفاس ، أم هو قد اتصف صاحبه بقم جميل ومرشف حلو ، وهذا القد الجميل يشبه الرمح الخطي في طوله واستواء قامته وقد منحه ذلك وشاحاً رائعاً من الجبال والجلال ، وآه من

الخنجل الذي يمكن أن يصيب الفصون المائلة لو ماست هذه القدود
أمامها ورأت نفسها أقل جالاً وتأوداً، أما لو نظرت إليك بعينيها فما
هنا البحر الذي لا يقارن به أي بحر حتى لو كان سحر هاروت، ملك
البحر نفسه.

وهكذا تير الصور كلها في طريق التجسيم والإبداع فيه، ويضيف
إليه تأثير هذا التجسيم في النفس.

وبناء على ذلك فلو أردنا المقارنة بينه وبين شعر الخفاجي لوجدنا
البون شاسعاً، فالخفاجي يمكن أن نُعْثله برسام يمك بألوانه وريشته ليرسم
لوحة زاهية من الطبيعة يحاول أن يجعل ألوانها أكثر زهواً من غيرها،
ولكنها مع ذلك مكررة وخرساء، ولكن الطالوي أقوى من ذلك وأشد
ساعداً وعضداً، فهو يترك هذه الريشة الرقيقة ويمك بازميل النحات
ليخرج لك تماثيل من الفن ممتلئة حسناً وعجباً.

ثمة سؤال أخير يمكن أن يُثار بشأن هذه المطارحات؟ ما هو موقعها
من فنون الشعر؟ وهل كانت ذات فائدة لغير قائلها؟.

ويمكننا أن نجيب على الشطر الأول من السؤال بأن نقول إن
المطارحات هي نوع من الاخوانيات وهو فن إنساني جميل لا غنى عنه في
التعبير عن عواطف الإنسان وأحاسيسه نحو إخوانه، وهي تأخذ شكلاً
نثرياً في الغالب ولكنها إذا صيغت شعراً فإن المقصود منها حينئذ أن
تكون آتق وأرشق، وأن تظهر براعة الأديب وتمكنه في استخدام اللغة
لخدمة مشاعره، في الوقت الذي هو مقيد فيه بقوالب الشعر الملزمة.

أما فائدة هذه المطارحات، فإنها فضلاً عن إثراء اللغة وفن القول
بألفاظ ومعان جديدة فإنها كانت تمثل ضرورة للحياة الثقافية في ذلك

الوقت، إذ هي أخبار أدبية شيقة في صفحة الحياة الأدبية، يتناولها الأدباء والشعراء وينشدون الجيد منها في مجالسهم فتحل محل الصحيفة أو المجلة الأدبية في وقتنا الحاضر.

ومن هنا كان حرص الأدباء على تأليفها وإظهار البراعة فيها، فهي وسيلة جيدة لرفع مكانتهم وتحقيق الشهرة لهم وضرورية في الوقت نفسه للاطلاع على أخبار الأدب والحياة الأدبية في وطنهم.

ب - المدح:

بقي المدح غرضاً من أغراض الشعر في العصر التركي أيضاً، ولكن اختلفت شخصية المدوحين، فلم يعد الخليفة أو الولاة هم من توجه إليهم قصائد المدح، فالسلطان التركي وولاته على بلاد الامبراطورية الواسعة لم يعودوا عَرَباً يفهمون العربية فضلاً عن تشبيهات الشعر البليغة واستعاراته وكنائياته.

وقد حُرِّم الشعراء بذلك من مصدر كانوا يظفرون منه في العصور العربية الزاهية بالجزيل الطائل من العطايا والأنعام.

على أنه مع ذلك وجد في خلال ذلك العصر من يوجه إليه الشعراء قصائدهم، وهم كبار العلماء من القضاة والمفتين الذين كان لهم الاشراف على المحاكم، أو المدارس، وكان بيدهم أمر تعيين هؤلاء في وظيفة من وظائف القضاء أو التعليم.

وبالطبع فقد كان هؤلاء العلماء أيضاً من الأتراك، ولكنهم في الغالب كانوا يجيدون العربية ولهم فيها مؤلفات في التفسير والفقه والنحو وغيرها من علوم الدين واللغة، بل إن بعضهم كان ينظم الشعر الجيد،

وكانوا بالتأكيد يحبون أن يقول فيهم الشعراء مدائحهم ويذكرون فيها مآثرهم، فيشتهر أمرهم ويسير ذكرهم بين الناس.

ولقد مدح الطالوي عدداً من هؤلاء العلماء الذين عرفهم، ورجا أن يجد الخير في ساحتهم، ومن أهمهم قاضي القضاة محمد بن بستان الذي تولى قضاء دمشق، فلازمه الطالوي بناء على قاعدة علماء الروم التي سبقت الإشارة إليها، وهي أن يلزم العالم الشاب شيخاً من العلماء لمدة أربعة أعوام يساعد فيه في عمله ويكتسب من خبرته، ثم يكون له الحق بعدها في التعيين بأحد مناصب التدريس أو القضاء، وقد تحقق للطلوي ذلك على يد ابن بستان، وإن كان العزل يصيبه بعد ذلك من منصبه، إما اختياراً برفضه للمنصب، وطموحه إلى ما هو أرقى منه، أو رغماً عنه لعدم اتفاقه مع رؤسائه أو زملائه، أو بسبب بعض الوشائات أو المضايقات التي يمكن تديرها للعزل في ذلك الوقت.

أما العالم الثاني الذي مدحه ووجد فيه ذرءاً وظهيراً مسانداً فهو شيخ الإسلام، مفتي الدولة العلية المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، معلم السلطان مراد (ويسميه هو مُلَقُّ السلطان بدلاً من معلم) وكان شخصية عظيمة في الدولة، وساحته مقصداً للأدباء والشعراء والعلماء من كل جنس، يجدون فيها ما يأملونه من رعاية وإكرام، وقد مدحه الطالوي بقصائد بديعة، وأثابه الرجل على ذلك بتوليته عدة مدارس في الروم...

هاتان هما الشخصيتان الهامتان اللتان اختصهما الطالوي بمعظم مدحه، وقد مدح غيرهما من العلماء والولاة والأمراء وغيرهم من الأصدقاء والحلان، مما تراه موفوراً في كتابه هذا.

ما هي الصفات التي يمكن أن يخلعها الشاعر على هذه الفئة من الناس؟ هي طبعاً وصفها بالورع والعقل السديد والفتنة، وبلوغها منزلة العلم والاجتهاد فيه، ولا بأس بعد ذلك من بعض أوصاف الجود والحلم، والسيادة القديمة والأصل العريق.

وهذا ما نراه عند الطالوي في مدحه لهؤلاء السادة، وما يمكن أن يفعله أي شاعر في مدحه لهم ليكون مقنعاً، ولكن الطالوي مع ذلك يعتمد إلى المبالغة في رفع قدر ممدوحه باستعمال بعض إشارات التصوف التي عرفها إبان شبابه في حلقات الذكر، ومنها نعت ممدوحه بالولاية وأنه المجتلي سر الخليفة، وأن رويته تدرك رمز الحقيقة، ثم يزيد على ذلك في المبالغة والغلو بوصفه بأنه مَظْهَر الذات العلية بما يتحلى به من صفات تظهر لأهل الكشف والمعرفة، ومن ذلك قصيدته في مدح سعد الدين التبريزي، والتي يقول فيها:

فرب فتاة من مهابة بدورها	تجلت بداجي ليل فرع لها جثل
من الغيد بيضاء الترائب طفلة	وقالت قتيلي في الغرام بلا دحل
وضالي يبذل النفس إن كنت طامعا	وإلا الثريا منك أقرب من وصلي
فقلت لها والعين شكرى بمائها	وفي القب نار حر أبردها يغلي
فديتك يا نفسي بملكي فأغما	تملكها سعد البرية من قبلي
إمام الهدى بحر الندى قامع العدى	حليف الندى لا يفتّر الدهر عن بذل
هو العالم الطهر الذي يمينه	تقسم ما في العالمين من الفضل
هو المجتلي سر الخليفة والذي	بذكر اسمه يستزل الغيث في الحل
مُلَقَّنٌ ظل الله أسرار غيبه	كما هي في أم الكتاب من الأصل
مرادٌ مُريدٌ الحق لا زال ملكه	يُرى بقران السعد مجتمع الشمل

فوجدان سعد الدين في مثل عصره شهيد بوحدانية الله والعدل

ويقوله في قصيدة أخرى:

هو المظهر الذات التي قد تحجبت	بجلى صفات في حلاه وضوح
هو العروة الوثقى لدى متمسك	هو السر فافهم ما إليه أتيح
فإن تجل منك العين حقاً شهادته	وأتقنت أن الرمز منه صريح
وإياك سرّاً غامضاً دون كشفه	صوارم شرع للدماء تبيح

وهو يستعمل أحياناً ثقافته في علم الفلك في المدح من مثل قوله:

أيها السعد الذي أصـ	فـاك ربـي واصطفاكـا
لمراد الله يجري	أمره طوع رضاكـا
ولله المقـدار والمقـ	دور قد صار ملاكـا
بالـذي شرف كيوا	ن بحـظ من علاكـا
وأعـار المشتري حد	مك يجريه اهتداكـا
وانتضى المريـخ سيفـا	غمده هـام عداكـا
وكـا الشمس ردا	مستنـيراً من ضياكـا
وحبـا الزهرة خلقـا	نشره حن ثناكـا
ثم أعطى كاتب الأـفـ	لاك سهماً من ذكاكـا
أنجز الوعد لعبـد	سيدي طال بقاكـا
عبـد رق لـترق	ماله إلا رجاكـا

وهو يعرف هنا لكل كوكب صفته التي يتميز بها، ثم بعد ذلك يمدح

صاحبه بطريقته المبالغه فينسب كل هذه الخصائص إلى المدوح ثم يستعيرها منه للكواكب .

والواقع أن المدح لدى الطالوي وإن كان في أطر تمتاز بالحلاوة وجودة الحبك إلا أنه كان يمثل له مشكلة، فهو لا يستطيع أن يطيل في خلع أوصاف العلم والتقى على من يمدحهم من العلماء، ولهذا فقد كان يترك كل هذا إلى عدد محدود من أبيات القصيدة ويبدأ بذكر الغزل التقليدي ثم يأخذ بعدها في مدح بلاده وبخاصة دمشق التي هام حباً بها، وذكر مغانيها، وما تزخر به من جال يفوق ما في بلاد العالم جميعاً، وهذا يتضح في تلك القصيدة التي يمدح بها ابن بستان وهي من عيون قصائده ويقول فيها:

كفى به جائراً في الحكم ما عدلا	لو كان يسمع في أحبابه عدلا
أو راح يضر سلوانا بخاطره	عن مائات قدود تخجل الأسلا
بل كيف يصحو غراماً أو يفيق هوى	من بات بالأحور العينين مشتغلا
فما الهوى غير أجفان مسهدة	تهمي وقلب بنيران الأسى شغلا
ولا الغرام سوى وجد نكابه	إلى الحمى يا سقى الله الحمى نهلا
حتى دمشق سقاها غير مفسدها	ضوب الغمام وروى أرضها عللا
حتى تظل بها الأرجاء باسمة	ويضحك النور في أكمامه جدلا
وخص بالجانب الغربي منزلة	لبست فيها الشباب الروق مقتبلا
مغنى الهدى ومغاني اللهو حيث به	مها إذا طلعت بدر السما أفلا
تلك المنازل لا شرقي كاظمة	ولا العقيق ولا شغب الغوير ولا
ما كنت لولا طلاب المجد أهجرها	هجر امرئ مغرم بالراح كاس طбла
ولا تخيرت أرض الروم لي سكنا	ولا تعوضت عنها بالصبا بدلا

وكل هذا في قصيدة مدح لأحد علماء الروم، مما يدل على هيامه الشديد ببلده وتصريحه كل آن بذلك، وهذا مما يمكن أن نفرد عنه الحديث في عنصر مستقل، ولكن قبل أن نترك الحديث عن شعره في المدح، ينبغي أن ننبه على أن قصائده فيه كانت مسرفة في الطول، ويشبه هذا ما نجده عند مهيار الديلمي، وهو ما أخذه علماء النقد عليه، ولكن الطالوي كان على ما نعتقد مضطراً إلى ذلك، فهو من ناحية لا يستطيع تكرار عدة أوصاف محدودة هي كل ما يمكن أن يمدح بها العلماء، ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يقدم قصيدة إلى أحدهم من عشرة أبيات إذ أن ذلك سيعتبر خطأً لقدره، أو عجزاً من الشاعر عن القول، ولهذا فقد كان الطالوي يلجأ إلى عناصر أخرى للتطويل، منها الغزل وشوقه إلى بلده وأحياناً وصفه لفرسه وهو ما يمكن أن يعد حشواً، ولكن تمتاز قصائده مع كل ذلك بالملاحة والسهولة وحسن الموسيقى، بحيث تحس أنك أمام مغن أو موسيقي متمكن من فنه، أو قارئ للقرآن يقرأ بنغمة معينة يُحافظ على الأداء بها، بحيث تتوقع وأنت تسمعه كيف سيقف على هذه الآية أو تلك، ولا تملك في كل إلا أن تستحسن تلاوته وطريقة أدائه.

أغراض أخرى من شعره:

ثمة أغراض أخرى كثيرة طرقها الطالوي في شعره، منها: حبه الشديد لوطنه وتشوقه دائماً إليه كما سبق أن ذكرنا، وله في هذا الغرض قصيدة سارت في البلاد وطارت في الآفاق لحسن ديباجتها وكثرة رونقها - كما يقول المحبى^(١) وكان قد أرسلها من الروم إلى أصحابه من

(١) خلاصة الأثر ١٥٣/٢.

العلماء والأمراء المقيمين بدمشق، وأولها:

أَنْسَيْمَةَ الرُّوضِ المَطِيرِ بالعهد من زمن السرور
وهي قصيدة طويلة، عارض بها قصيدة المتنخل اليشكري المشهورة
التي أولها:

إِنْ كُنْتَ عَاذِلْتِي فِيسِرِي نحو العراق ولا تحوري
وقد عارضها كثير من الشعراء قبله، مثل الشريف الرضي في
قصيدته:

نَطَقَ اللّٰنُ عَنِ الضَّمِيرِ وإلر عنوان الصدور
وأبي بكر الخوارزمي في قصيدته:

إِنْ الْأَلَى خَلْفَ الْخَدُورِ هم في الضمائر والصدور
وَقَعَ الْغُبَارُ عَلَيْهِمْ فقد أتيه على العبير
وله غير ذلك قصائد كثيرة صادقة في هذا الغرض يصعب إيرادها
هنا، فلتراجع في الكتاب، وبخاصة قصيدته:

شام برق الشام بالروم خدوعا فانبثرت أجفانه تذري الدموعا
هب من عليا دمشق موهنا هبة المصباح في الليل ذريعا
وقصيدته:

ذَكَرَ الْعَتِيقُ فَسَالَ مِنْ أَجْفَانِهِ فاشتفه وجداً إلى مكانه
وَاشْتَمَ فِي رِيحِ الصَّبَا أَرْجَ الصَّبَا فصبا حليف جوى إلى أوطانه

وقوله في قصيدة:

على الشام مني كلما هبت الصبا سلام كنشر الروض طاب له نشر
بلاد كأنفاس الشمول شالها وتربتها مك وحصباؤها دُرُ
سقاها. وحياها الإله معاهداً سحاب دنو العهد وافى بها البشر

أما الأغراض الأخرى فمن بينها: وصف الطبيعة، ووصف رحلاته البرية والبحرية بين بلاد الشام وربوعها المختلفة ومصر والروم، ومنها الشكوى، والعتاب، والفكاهة، ووصف مجالس الأنس والإخوان، واستهداء الكتب، والأبيات التي تكتب على المنشآت العمرانية المختلفة من أسبلة ومساجد ومنها الأبيات التي تكتب في صدور الرسائل إلى غير ذلك من الأغراض التي يراها القارئ في الكتاب.

مكتبة الدكتور سرواز العطية

خاتمة

نود أن نقول فيها: إنه مهما أطنبنا القول في الحديث عن الطالوي، ذلك الشاعر الرقيق والكاتب المقتن، والذي كان يسمى في وقته «شامة الشام»، فإننا نحس أننا لم نوفه حقه من القول، ولم نكشف عنه الغطاء إلا قليلاً، وما زال هناك متسع من الجهد لدراسته بأكثر مما فعلنا، وذلك لأن هذا الرجل الذي نشأ في عهد الحكم التركي وعاش في ظلاله وتحت سيطرته، امتاز بغدة مزايا كل منها يستحق دراسة كاملة، وهي:

١- أنه أعلى منار العربية، وحبب فيها الكثير من ناشئة الأدباء ببراعته في الشعر وما قاله فيه من رائع المعنى وحلو اللفظ ورائقه.

٢- أنه وثق العلاقات بين جمهور الأدباء في بلاد الشام ومصر والمغرب وبلاد الروم، وذلك بصلاته الواسعة بهم ومطارحتهم ومذحهم وتسجيل أخبارهم وأشعارهم.

٣- أنه أحب بلاده الحب كله، ودافع عنها ما أمكنه ذلك - ضد العتاة والظالمين.

٤- أنه احتفظ لنا بكثير من العوائد والأعراف والرسوم المختلفة لذلك العصر، كما احتفظ لنا بالتعريف بعدد كبير من الأعلام وتسجيل الكثير من الأحداث التاريخية التي تسهم في توضيح تلك الفترة وتزيد معرفتنا بها بياناً ووضوحاً.

هـ - إنه حفظ لنا صورة فريدة لما كان يدرس في الجامع الأزهر ومصر من كتب العلم ونظام الإجازات والروايات وغيرها، مما يعد نموذجاً لما كان يدرس آنئذ في جامعات العالم الإسلامي كله من كتب وعلوم:

وأخيراً فلقد كشفت لنا دراسة الطالوي وتحقيق كتابه عن فقر شديد في دراسة المخطوطات وتحقيقها عن تلك الفترة، رغم ما بذل فيها من جهود، وعلى سبيل المثال فما زالت كتب المطارحات الأدبية - التي أشرنا إليها في مقدمة البحث - مخطوطة، وما زالت كتب كثيرة من كتب التراجم تتعثر بين النشر والطبي، ومنها الموسوعة الكبيرة تاريخ دمشق لابن عساكر، وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، وعن تاريخ مصر فما زال عقد الجمان لبدر الدين العيني مخطوطاً، وما زال كثير من دواوين الشعراء في الشام ومصر وغيرها من أقطار الوطن العربي تنتظر أن تمتد إليها يد العناية والنشر، ولا يروعنا أنها من العصر المملوكي أو التركي، تلك الحقبة من الزمن التي وسماها المؤرخون بالانحطاط والتردي، فذلك حكم متعسف لا يقوم على دراستها بقدر ما يقوم على إهالها جملة، ولقد رأينا كيف يتناول هؤلاء المؤرخون الفترات المتقدمة من عصر الأدب بالبحث والدرس ويعتنون بكل شاعر شاعر، أو أديب أديب، فإذا ما أتوا إلى العصرين المملوكي والتركي أطلقوا عليها عبارات عامة مطلقة تلم شمل الجميع بحكم واحد هو التخلف والجمود.

وليس ذلك - بطبيعة الحال - عدلاً بالنسبة لعبقرية الإنسان، تلك العبقرية الخلاقة في كل العصور، وعلى مر الأعوام والدهور، منحة من الله الوهاب، وهبة غير قابلة للنفاذ أو الزوال.

تحقيق الكتاب

ثمة نسخ عديدة لكتاب السانحات في مختلف مكتبات العالم ، وحينما أسند إليّ أمر تحقيق الكتاب تسلمت معظمه منسوخاً على الآلة الكاتبة ، كما تسلمت منه نسختين مصورتين عن المكتبة الأهلية بباريس .

النسخة الأولى : محفوظة تحت رقم ٤٤٤٢ عربي ، وقد كتبت عام ١٠٤٨ هـ ، برسم عالم الدنيا وواحدھا ، خلاصة هذه الأزمان وماجدها ... حضرة المولى محمد أفندي شيخ زاده .

وقد نسخت بخط نسخي جميل ، ولم يذكر الناسخ فيها اسمه .

وتقع هذه النسخة في سبعة وعشرين ومائتي ورقة ذات صفحتين ، وفي كل صفحة تسعة عشر سطراً ، وهي تنقص خنسين ورقة من أولها .

النسخة الثانية : لا تحمل رقماً ، وقد وافق الفراغ من نسخها غرة رجب الفرد من شهور سنة ١٠٦٤ هـ ، على يد (الحقير) زين الدين بن أحمد البصروي عفا الله عنه .

وتقع هذه النسخة في ثلاث وسبعين ومائة ورقة من ذات الصفحتين ، تنقص أيضاً أربعين صفحة من أولها ، فالنسختان تبدآن من مكان واحد ، مما يدل على أن هذا النقص تم بفعل فاعل ولم يتم اعتباطاً .

وعلى أي حال فقد تسلمت الجزء المنتسخ ناقصاً هذا الجزء من أول

الكتاب لأنه نسخ من إحدى النسختين ، وقد تبينت فيما بعد أنها الأولى ، وكان عليّ أن أبحث عن نسخ أخرى لتكملة النقص .

ولحسن الحظ فقد وجدت في معهد المخطوطات نسختين من الكتاب ، إحداهما نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٢٥٢٢ د المحفوظة بالمعهد تحت رقم ٤٥٤ أدب ، وهي مكتوبة بخط نسخ عادي .

والثانية : هي نسخة المؤلف التي كتبها بخط يده ، وكانت هذه هي أهم النسخ بطبيعة الحال ، وقد فرغ المؤلف من كتابتها عام ١٠١٣ هـ ، أي قبل وفاته بعام واحد .

وقد كتبت النسخة بخط تعليق (فارسي) جميل مضبوط بالشكل في مواضع كثيرة وتقع في عشرين ومائتي ورقة ، ذات صفحتين ، وفي كل صفحة واحد وعشرون سطراً .

وقد اعتمدت على هذه النسخة في التحقيق ، وراجعت النسخ الأخرى مشبّهاً الفروق الموجودة في بعضها إذا مثلت فائدة للقارئ .

أما التحقيق فقد بذلت فيه كل الجهد ، وقد حاولت أن أحقق فيه الأهداف الآتية :

١ - التعريف بالأعلام الواردة في الكتاب ، وقد اقتضاني هذا جهداً مضمياً في بعض الأحيان ، فالكثير من الأعلام وارد بطريقة مختلفة

هنا عنه في كتب التراجم أو العكس وكتب التراجم عن هذه الفترة شحيحة في تيسرها بين أيدينا ، وشحيحة في تذييلها بالفهارس النافعة إن كانت هذه موجودة أصلاً .

٢ - لم آل جهداً في ضبط الشعر وتخرجه وإثبات الفروق في الروايات إن وجدت ، وشرح الكثير من الألفاظ أو الصور البلاغية تيسيراً للقراء غير المتخصصين الذي يحبون الاطلاع عليها ويؤودهم أحياناً ما يرون فيها من عسر .

هذا فضلاً عن ترجمة ما ورد في الكتاب من شعر بالفارسية ، وقد ترجمه لنا أحد الزملاء الأفغان .

٣ - بالنسبة لرحلة المؤلف إلى مصر وما لاقاه فيها من علماء وما رواه عنهم كتب ، اعتنيت عناية خاصة بالتعريف بالكتب التي أوردتها وهي كثيرة جداً وبالعلماء الذين ألفوها وأثبت هذا كله في الهوامش لتكون تحت يد القارئ فكرة حاضرة عما يقرأ .

وأنا أفضل هذه الطريقة التي اتبعها أسلافنا وأساتذتنا من شيوخ المحققين ، ولا أؤمن بتقديم الكتاب خالياً من أي جهد سوى بعض التعليقات التافهة في فروق النسخ ، على حين يكون القارئ متعطشاً إلى شرح لفظة أو الإبانة عن حادثة وردت لإشارة إليها ، فلا يجوز أن يضرب المحقق عن ذلك صفحاً ، بحجة عدم ائصال الهوامش بالتعليقات والحواشي ، وكأن هذه الهوامش يفترفها المحقق من سَفَطٍ إلى جانبه ، ولا يبذل فيها جهداً يقتضيه

ليالي وأياماً طويلة فنأمره بالكف عن وضعها، ولا نراعي حق
القارئ في فهم ما يقرأ، فليست هذه الكتب وقفاً على العلماء
وحدهم، ولا ينبغي لنا أن نجعلها كذلك.

وأنا أدعو الله أن يكون عملي في هذا الكتاب لوجهه خالصاً،
وأن ينفع به كما نفع غيره مما حققته، فيفتح أبواباً منه لدراسة
غيره من كتب تلك الفترة، وينشط على تحقيقها.

راجياً منه وحدهُ المثوبة والمكافأة، إنه حسبي ونعم الوكيل.

القاهرة في ١٢/١٠/١٤٠٠ هـ

١٩٨٠/٨/٢٣ م

د. محمد مرسي الخولي

معهد المخطوطات العربية

مكتبة
الدكتور مروان العطية

تتمة المطبوعات والفصول

في
مطارحات بني العصر

الجزء الأول

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم يا مُجْرِي رُخَاءٍ طِبَاعِ الْإِنْسَانِ، مُسْتَنَّةً فِي طَرَائِقِ الْبَيَانِ^(١)،
وَمُجْرِي رَخَاءٍ صَنَاعِ الْأُذْهَانِ^(٢)، مَفْتَنَةً بِرَقَائِقِ الْإِفْتِنَانِ، يَا مُطْلِعَ
سَوَانِحِ فِكْرِ الْأَفْهَامِ طَلَعَ كُنُوزَ الْخَبَايَا^(٣)، وَمُودِعَ بَوَارِحِ فَقَرِ الْأَقْلَامِ خَلَعَ
رُمُوزَ الْمَزَايَا، يَا مَرْسَلَ سَرَحِ الْخَوَاطِرِ تَرْتِعُ فِي رِيَاضِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ،
وَمُنْهَلَ سَوَامِ الضَّمَائِرِ تَكْرَعُ مِنْ حِيَاضِ اللَّطَائِفِ وَالْفُهُومِ، يَا مُفْعَمَ أَكْهَامِ
الْأَفْهَامِ مِنْ رَوَائِعِ زَهْرَاتِ الْإِبْدَاعِ، وَمُجْنَى بَاكُورَةِ أَيَانِعِ ثَمَرَاتِهَا يَدِ
الطَّبَاعِ، نَتَوَسَّلُ بِالضَّرَاعَةِ إِلَى جَنَابِكَ الْمُقَدَّسِ، أَنْ تَرَوْي الْقُلُوبَ مِنْ
زُلَالٍ فَيَضُكَ الْأَقْدَسُ، صَلِّ عَلَى صَاحِبِ وَحْيِكَ وَأَنْبِيَائِكَ، رَسُولِكَ
طَرَا زِ عَصَابَةِ أَنْبِيَائِكَ، خَصِّصْ لِلَّهِمَّ أَنْصَارَ دَعْوَتِهِ الْكَرَامِ، الذَّابِّينَ عَنْ

(١) الرُّخَاءُ (بضم الراء): الريح اللينة، وفي التنزيل العزيز: فسخرنا له الريح تجري بأمره
رخاء حيث أصاب، ومستنة أي ماضية على وجهها المرسوم، مأخوذ من السنن وهو من
الطريق نهجه وجهته.

(٢) الرُّخَاءُ (بفتح الراء): السعة أو العدد الشديد، والصناع: المهر في الصناعة من علم أو
فن.

(٣) السوانح: جمع سانح، وهو الطائر الذي يأتي من عن يبارك إلى يمينك، وكانت العرب
تتأمين به، كما أن البارح عكسه وهو ما كان يأتي من اليسار إلى اليمين، ولكن المقصود بها
هنا ما تجوّد به القرينة من فكر.

عَفْوَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامِ، بِطُبُتَيِ الْأَسْنَةِ وَالْأَقْلَامِ^(١)، بِتَحِيَّةٍ تَتَمَسَّكُ
بِأَرْدَافِهَا رُوحَاتِ السَّحَرِ، مَا نَثَتْ أَحَادِيثَهُمُ الْحَسَانَ مِنَ النَّدِيِّ رَوَاةُ
خَبَرٍ^(٢).

وبعد؛ فإن لبعض نُحَبِّبِ الْكَلَامِ سُلَافَةً تَحُلُّ مِنْ حُبِّي الْأَحْلَامِ^(٣)،
وَتَهْزُ مِنْ عِطْفِ ذَوِي الْأَفْهَامِ، وَلِبَعْضِ عِذَارِي كِلَلٍ^(٤) الْفَصَاحَةِ
رِشَاقَةً قَدْ تَعَشَّقَهَا النُّفُوسُ، وَلِعِرَائِسِ خَدُورِ الْبَلَاغَةِ صَبَاحَةً خَدٌّ يَقَالُ
عِنْدَهَا: «لَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ»^(٥)، وَمِنْ حُسَّانَةٍ^(٦) تِلْكَ الْأَبْكَارِ الزَّوَاهِرِ،
وَقَتَّانَةِ هَاتِيكِ الْقُدُودِ النَّوَاضِرِ، مَا سَمَحَتْ بِهِ قِرَائِحِ ذَوِي الْبَصَائِرِ،
وَسَنَحَتْ مِنْ مُرَادِ تِلْكَ الْخَوَاطِرِ، مِنْ فَصْحَاءِ الْعَصْرِ وَالْأَوَانِ، هَذَا الْمَصْرِ
الَّذِينَ بِهِمْ يَجَلَّى جَيْدُ الزَّمَانِ، وَيُزْهِى الْعَصْرِ وَالْأَوَانِ، مِنْ أَعْيَانِ
الْأَفَاضِلِ، وَأَفَاضِلِ الْأَعْيَانِ، كَمَا قَلْتُ فِيمَا قَلْتُ:

مِنْ كُلِّ أَزْهَرِ بَادِي الْبِشْرِ، غُرَّتُهُ تُلُوحُ فِي مُدْلِهِمَاتٍ دَجَتْ وَضُحَى

(١) العقوة: الموضع المتع أمام الدار أو المحلة أو حولها، وطبة السيف: حده.

(٢) نثت: انتشرت وذاعت، والندي: جمع ناد.

(٣) السلافة: أفضل الخمر وأخلصها، ومن كل شيء خالصة، والحبي جمع حبة وهو ما يلفه
الجالس على ظهره ورجليه ليستند، فإذا طرب لشيء حل هذه الحبة واهتز لما يسمع دون أن
تعوقه الحبة عن ذلك.

(٤) الكلال جمع كلة: وهي ستر رقيق مشتب يتوقى به من البعوض وشبهه.

(٥) هذا مثل يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس، وقيل في شرحه: إن رجلاً تزوج امرأة فوجدها
قفلة (ليست طيبة الرائحة) فسألها: أين الطيب؟ فقالت: خبأته. فقال لها: لا غباً لعطر بعد
عروس، فذهبت مثلاً. انظر مجمع الأمثال ٢/٢١٣.

ولكن المؤلف يستعمله هنا بمعنى: لا عطر يعتد به بعد عطر العروس، فهو يفوق كل ما
عداء من العطور، كذلك فإن جلال عرائس البلاغة وصباحة خدها تفوق كل ما علاها من
جمال، ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف عن معنى المثل الأصلي.

(٦) الحسانة: الشديدة الحسن، وسوف يستعمل المؤلف هذه الكلمة كثيراً في شعره.

وكنـت في ريعان الشـباب، وغشيان بلوغ الأتراب، حيث بُردُ الصِّبَا
قشيب، وغُصن الحداثة رطيب، كما قيل:

وحيث الحِمَى روضٌ وسكانه ظُبى وحصباؤه دُرٌّ وبهاؤه وردٌ^(١)

طارحت كُلاً من تلك العصابة، رامياً من بينهم الغرض عن قوس
الإصابة، جارياً معهم في حَلَبَة هذا المضمار إلا صُبابَة، ممن ظُنَّ هناك:

وليس له منها نصيبٌ ولا سهمٌ

ثم إنني رميت تلك المطارحات مطارح الصِّبَا^(٢)، وفرقتُ هاتيك
المراسلات أيادي سِبا^(٣)، وأوسعتها قَلَى وهَجْراً، وأقمت على ذلك
دهراً، أعدّها فضولاً من القول وهُجْراً، لما عليه الدهر من عادته
القديمة، ونُبُو طباعه الغير مستقيمة، كما أشار لهذا المرام، أثناء نثره
البديع^(٤) النظام، إذ جفوة الحظِّ داءٌ شكته الأفاضلُ قديم، وعادةٌ
مُعوْجَة لا تكاد بالثقاف تستقيم، فبينما هو ينظر لأمثالي بوجه عبوس،
ويَشنُّ عليه من الغارة ما يُنسيه حربَ البسوس^(٥)، إذ ظهر البشرُ من

(١) البهاء: الحجارة الملاء.

(٢) الصِّبَا بفتح الصاد: الريح اللينة، والمؤلف يقصد هنا أنه ترك مراسلاته تلك نهياً للرياح
دون اهتمام بجمعها.

(٣) أيدي سِبا وأيادي سِبا: أي متفرقين، وأصله من قصة سِبا وسبل المرم الذي فرق أهلها،
كما ورد في القرآن الكريم، وانظر ثمار القلوب ٣٣٧.

(٤) يشير بهذا إلى بديع الزمان الهمداني، الذي كتب رسالة في ذم الدهر أصبحت مشهورة بين
الأدباء، انظرها في يتيمة الدهر ٢٧٠/٤ - ٢٧١.

(٥) حرب البسوس: حرب استمرت أربعين عاماً بين قبيلتين من أكبر قبائل العرب هما بكر
وتغلب، بسبب عقر كليب بن وائل التغلبي ناقة كانت مع البسوس بنت منقذ التميمية التي
كانت تزور أختها من بني تغلب ففضبت لذلك واعتبرته إهانة وإذلالاً لها، فقام ابن أختها =

أُسِرَّتْهُ، واستنارت الفُرَّةُ من جبهته، يستضيءُ بضياؤها النيران، ويستنيرُ بنورها القمران، حتى أَلَقَتْ بمحروسة دمشق الجِرَّان^(١)، وأفاضت على بنيتها سِجَال اللُّطف والإحسان، وَخَصَّتْ أهل الأدب من بينهم بلطائف الامتنان، ولا غرو فإنها المتخلقة بالصفات الرحانية، والمتسورة من النوع سُور الإنسانية، المتشعبة أغصانها من الدوحة البستانية^(٢)، فلمعري هي التي عطرت أندية الفضل طيبا، وأعطتْ بنى الآداب من الرُّوح نصيبا، وجذبتْ بضْبُعِي^(٣) القريض، عن مقام الذُّلَّة والحضيض، ورفعتْ له بين الأنام قدراً، وأعلتْ له في الخافقين ذكراً، حتى التحق محلُّ الشَّعرِ بالشَّعْرى، وكيف لا؟ والفضل أَرْجُّ بغير ثيابه لم يَغْلَقْ، ٣ ب والأدب صَبُّ سَوى تُرابِ بابه لم يَغْشَقْ، لا جرم بمعنى حسن ذلك الالتفات، أن أجمع ما تفرق من تلك المراسلات والمطارحات، ناظماً ما انتثر من عقودها بيد الشتات، فجمعتها تذكرةً لمن تذكر، وتبصرةً لمن تبصر، بعد أن وسَّحتْ أعطافها بما يُخْجِلُ عقود الدُّرر، ويُزْري نظامه بِسْقاط^(٤) حديث السَّمَر في القمر، من لوامع غرر القصائد، وروائع درر الفوائد، لشيخنا العلامة الأستاذ الإمام شيخ الإسلام أبي الفتح محمد

جاس بن مرة وهو أخو جليلة زوج كليب بقتله فنشبت لذلك حرب مريرة بين القبيلتين، انظر في ذلك مجمع الأمثال ٣٧٢/١، والعقد الفريد ٢٠٠/٥.

(١) ألقى جرائنه في موضع: ثبت فيه واستقر، أو وضع ثقله فيه.

(٢) يقصد بالدوحة البستانية، صديقه المولى محمد بن بستان قاضي قضاة دمشق، الذي سيأتي ذكره فيما بعد.

(٣) الضم: هو من الإبط إلى منتصف العضد وهما ضبعان، وجذبه من ضبعيه كناية عن التمكن، أي من موضع متمكن فيه منه.

(٤) سقاط الحديث: تبادلته بين الجلاء، يقال ساقط فلان فلاناً الحديث: تكلم أحدهما وسكت الآخر ثم تكلم الساكت وأنصت الآخر، وهكذا.

بن محمد بن عبد السلام المالكي^(١) مذهباً الصوفي مشرباً، التونسي مولداً،
المغربي محتداً، وما أملاه عليّ من نُخب الأشعار، ومُنْتَخب الأحاديث
والأخبار، لأدباء الأعصر الغابرة، وما اتَّفَق للبعض فيها من النُّكاتِ
النادرة، سيّما ما نظمه في المسائل العلمية، واللطائف الرائعة الأدبيّة،
مسؤولاً في ذلك من أُهَيْل عصره، وأدباء الآفاق سيّما شامه ومصره،
وذلك أثناء قراءتي عليه في بعض الفنون، وما حدثني به من فيه،
والحديث كما قيل شُجُون، سقى الله ثراه صَيِّب غفرانه، ولقاهُ الغُرْفَةُ من
جَنَانه، وسميتها «سَانِحَاتُ دُمَى القصر، في مطارحات بني العصر»،
وذلك في عام إحدى وثمانين وتسعمائة، ثم أضفت بعد ذلك إلى ما جمعتُ
ما اتَّفَق لي كتابته إلى بعض الموالى من له شان، ومشايخ هذا العصر
والأوان، بالديار الرومية والشامية، والقاهرة المعزّية، وما سُئِلت في
عمله من مكاتبات فائقة، ومراسلات رائقة، عن لسان بعض العلماء
الأجلاء، والأهالي من الأخلاء، في أزمنة مختلفة، ووقائع شتى غير
مؤتلفة، سيما بدار الخلافة السنية، قسطنطينية المحمية، وقد انتظمتُ في
أ سلك علمائها، وقارنتُ فيها بدور سائها، وها أنا الآن فيهم وما أنا
منهم، لما سأخبرك إن سألْتَ عنهم، وقد أَفَلَّتْ عن سائها تلك الشموس
الطوالع، وَغُيِبَتْ بُدُورُهَا عن هاتيك المنازل والمطالع، واستسَرَّتْ بيدِ
الْمَجَاقِ غُرُرُ أَقْمَارِهَا، وأظلمتْ جيوبُ الآفاق بمحو أنوارها، وما ذاك إلاّ
باندراج من كان فيها من أساطين علمائها، وأفاضل مواليتها، وانتقاص
أرضهم من أطرافها، بموت أولئك الرؤساء من أشرافها، في زمانٍ لم
يكن في القِصَر، إلاّ كلمح البَصَر، أو كطرفه عين، حتى صاروا أثراً بعد
عين:

(١) سوف تذكر ترجمته عند ذكر المؤلف لجملة من شعره وأخباره فيما يلي.

جَرَّتِ الرياحُ على ممرِّ ديارهم فكأنهم كانوا على ميعادٍ
أتى على القوم أمرٌ لا مردَّ له حتى قَضَوْا فكان القوم ما كانوا
وصار ما كان من علمٍ ومن أدبٍ كما حكى عن خيال الطيف وسانٍ

لا جرم وقد بلغ الأمر إلى ما ترى، وسترى أن زال ما سترًا، اتخذ
الناسُ رؤوساً جهَّلاً كما ورد في الحديث^(١)، فحقَّتْ عليهم كلمةٌ (ومن
النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث)^(٢)، وإن كنتَ مما قَلَّتْهُ في رَبِّبٍ،
فاستجْلِ من سِرِّ حروفها الغيب، تجدُّها ناطقةً بيَّنةً، فلا تَرُمْ بعدها
بيَّنةً، فلهذا أصبحت مدارس الروم، فوضى ما بين اغربة وبوم^(٣):

وشر ما اقتنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرحم
بل شر ارض بلاد لا صديق بها وشر ما يكسب الانسان ما يصم^(٤)

(١) من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق أحد عالمًا اتخذ الناس رؤوساً جهلاً ففشلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» انظر صحيح البخاري باب العلم ٧، وصحيح مسلم باب العلم أيضاً ١٣، ١٤، والترمذي ٤، وابن ماجة المقدمة ٨.

(٢) سورة لقمان، الآية ٦، ويعقب المؤلف في هامش الصفحة بقوله: قيل نزلت في النضر بن الحارث، اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً، ويقول «إن كان محمد يخبركم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة»، وهو أحد الأقوال في شرح قوله تعالى «لهو الحديث» وثمة أقوال أخرى، أهمها: إن المقصود به الغناء، انظر تفسير القرطبي ٥٦/٥١٣٣، وتفسير أبي حيان ٧/١٨٤.

(٣) يشارك الشهاب الحفاجي صاحب كتاب ربحانة الألبا المؤلف رأيهِ فيما وصل إليه الحال في عاصمة الدولة العثمانية، من انعدام العلماء واستيلاء الأدعياء على مراكز العلم في الدولة، وكتب في ذلك فصلاً كاملاً، انظره في الريحانة ٢/٢٨١ - ٣٠٧.

(٤) البيتان للمتنبي، ديوانه ٢٧٧، والشهب: الذي يخالط بياضها سواد، والبزاة، الصقور، والرحم: طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد، يشبه النسر، لكنه ضعيف القدمين والنقار.

تسوّر محاربها البيضِ سودُ الزوج، وتزوّ عليها كالقردة حمراً
الملوّج، أما تراها الآن بين أسود نوبيّ، وأحمر من بني أصفر شعوبيّ،
كما قلت فيما غبر:

لا دارسٌ عندها سوى طَلَلٍ تعرفه العينُ ثم تنكرُهُ
جَلَّتْ جُشُهم، ودَقَّتْ أحلامهم، فإذا رأيتهم تُعْجِبُكَ أجسامهم،
صيفتهم في الجموع جمع تكسير، وآيتهم في البحث إن أنكر الأصوات
لصوت الحمير:

في شجر السّروِ منهم مَثَلٌ لَهُ رُوءٌ وماله ثمرٌ^(١)
فرحم الله أبا الطيب الجُعفي^(٢) فكأنما نظر إليهم من طَرْفٍ خفيّ،
حيث نطق عن مثل هذه الحال؛ بلسان المقال، حيث قال:

تَشاَهتِ البهائمُ والعِبْدَى علينا والموالي والصِّمِ^(٣)
كَأَنَّ الأَسودَ اللابيَّ فيهم غُرَابٌ حوله رَخمٌ وبومٌ^(٤)

(١) البيت في بهجة المجالس ١/١٨٢.

(٢) هو المتنبّي كما لا يخفى، وبيتاه التاليان في ديوانه ٤٣٠، من قصيدة في هجاء كافور
الأخشيدي والي مصر.

(٣) العبدى: جمع عبد، والموالي جمع مولى، وهو الذي كان عبداً فعتق، والصميم: الحر الخالص
النسب، وهو يقول: عم الجهل الناس حتى لحقوا بالبهائم، وملك الموالي حتى التبسوا
بالأحرار، وفي الأصل: الصرم بدل الصميم ولا معنى لها في هذا المقام.

(٤) اللابي: نسبة إلى اللاب وهي بلد بالنوبة.

العلامة عبد الحليم أخى زاده

هذا، وقد أسار منهم الدهر، في إناء هذا العصر، صُبابة سادة،
وبقية قادة، هم الآن - والله - حُلِيَّ جيده، وواسطة عِقْدٍ فريده، من
جمع بين أشتات الفضائل وكرم الخيم، كالعلامة أخى زاده عبد الحليم^(١)،
الذي قلتُ فيه من قصيدة غراء، وفريدة عذراء:

علامة الروم قاضي العسكرين بها مَنْ حُكْمُهُ فِي الْقَضَايَا تَابِعِ الْقَدْرِ
عبدُ الحليم أخى زادة الذي تُلِيَتْ فِينَا مَنَاقِبُهُ كَالْآيِ وَالسُّورِ
محمدُ الاسم ميمون النقيبة في أُسْرَةِ الْوَجْهِ مِنْهُ طَلَعَةُ الْقَمَرِ

وسأفرد له بعد هذا دفترًا في ذكر مآثره، موشحًا أعطافه بمقود
محاسنه ومفاخره، بمثلها تُشَنَّفُ آذَانُ الدَّهْرِ، وَتَحْسُدُ فِيهَا اللَّبَّةُ^(٢) الْجَيِّدَ
وَالنَّحْرَ، وَلَا كَزَوَاهِرِ دُرَرٍ نَظَمَتْهَا بِرَاعَةِ بَرَاعَتِهِ، وَجَوَاهِرِ فَقَرِ نَثَرَتْهَا
عَلَى الْأَسْمَاعِ رَوَايَةُ عِبَارَتِهِ، وَقَدْ شَاهَدْتُهَا بِالرُّومِ عَامَ عَشْرَةِ بَعْدِ الْأَلْفِ
حِينَ أَنْشَاهَا، وَمَاءِ الْبَلَاغَةِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مُحْيَايَاهَا، فَكَأَنَّهَا رَوْضَةٌ سَقَاهَا
نَوْءُ الثَّرْيَا، فَأَصْبَحَتْ بِمِياهِ الْحَسَنِ رِيًّا، أَوْ خَمِيلَةً وَادِي الْأَرَاكِ^(٣)، بَاكَرَهَا

(١) عبد الحليم أخى زاده بن محمد القسطنطيني الحنفي، فقيه، شارك في بعض العلوم، ولد
بالقسطنطينية عام ٩٦٣ هـ ونشأ بها، وولى قضاء العسكر، وتوفى سنة ١٠١٣ هـ، من
تصانيفه: رياض السادات في إثبات الكرامات، للأولياء حال الحياة وبعد الممات، وشرح
الهداية للمرغيناني في فروع الفقه الحنفي، وتعليقه على الأشباه والنظائر في الفقه لابن نجيم.
انظر خلاصة الأثر ٣/٣٢٢، هدية العارفين ١/٥٠٤.

(٢) اللبّة، الفلادة التي تحيط بالعنق أو واسطتها، أي الجوهرة الفريدة في وسطها.
(٣) الأراك جمع واحده أراكة، وهي شجرة السواك: شجيرة كثيرة الفروع رقيقة الأعواد
متقابلة الأوراق، لما نثار حر داكته تؤكل.

وسمى السَّكَّ (١)، إذا لحظتها العين. فيا خجلة الرّوض الأريض، أو
تشنّفت بها الأسماعُ فيا خيبة مَعْبِدٍ (٢) والغريض (٣)، فهي فوق ما قلت
فيها، من دون واصفيها:

لِلَّهِ مَا فِقرُ في الطرس تحسُّها وسطَ البياض سوادَ العينِ والبَصْرِ
أو كالرياض كستها السُّخْبُ ساريةً مطارفَ الوشي أو موشيةَ الحَبْرِ
مثل الكواكب ليلاً قد طلعتْ على نهرِ المجرّة أو كالروض ذى الزَّهر
تودُّ لو حلَّتْ المجوزاءُ من شَغَفٍ فيها النطاق وإن أمستْ على خطر
كأن دُرَّ يواقيتِ الحسانِ به قدرُصَّعتْ في الحواشي موضعَ الظُّفْرِ

أدام الله سعده، وخلّد عافيته ومجده، ولا برحتْ شمس العلوم
طالعةً من سماء فضله، وبدور الفضائل مشرقةً في آفاق عدله، آمنة من
وصة النقص وصفة الزوال، محفوظة عن وسمة التحول وسمة الانتقال،
هـ ب/ ما رَقَى خطيبُ يراعةٍ منبرِ بنانٍ أديب، واختلفتْ أسجاعه ما بين نطق
وبيان غريب.

هذا وقد آن لنا أن نُصَرِّفَ عنان القلم إلى ما أسلفناه سابقاً ثم نُجريه

(١) الوسمي: مطر الربيع الأول، والسمك واحد السمكين، وهما نجان نيران في السماء.
(٢) هو معبد بن وهب المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، مولى بني مخزوم ويقال
مولى ابن قطن مولى معاوية، نشأ في المدينة يرعى الغنم لمواليه وزبما اشتغل بالتجارة، ولما ظهر
نبوغه في الغناء أقبل عليه كبراء المدينة، ثم رحل إلى الشام فاتصل بأمرائها وارتفع شأنه،
وكان أديباً فصيحاً، أصواته وأخباره كثيرة، انظرها في الأغاني ٥٩/٣٦/١.
(٣) اسمه عبد الملك، ولقب الغريض لنضارة وجهه وجماله، كان من مولدي البربر، ويعد من
أشهر المغنين في صدر الإسلام، ومن أحذقهم في صنعة الغناء، سكن مكة وغنى سكينه بنت
الحسين، وكان بارعاً في الضرب على عدة آلات، إذ كان ينقر بالدف ويوقع بالقضيب ويضرب
بالعود، انظر أخباره في الأغاني ٣٥٩/٢.

فى مضاره بما وعدناه لاحقاً، بإعطائه بداهته فى جريه وقصده، وحله
على علالته من كدّه ووُكْدِه^(١)، ومن الله العصمة والتوفيق، إلى أعدل
جادة وأقوم طريق.

فى تهنة محمد بن بستان بقضاء الشام

فمن ذلك ما كتبه إلى الحضرة العلية، والدوحة السامية السنية،
الضاربة سُرَادقَ مجدها على قَرَقِ الفَرَقْدِين وهامة كيوان، حضرة المولى
محمد بن المولى بستان^(٢)، وقد تشرف به قضاء دمشق الشام، عام واحد
وثمانين وتسعمائة،

يا دارُ إلا أبنتِ القول تبياناً	بما لدى موقفُ التوديع قد كانا
للرَّامسات تُعَفِّي منك أركاناً	ما غالها الفكرُ حتى صرتِ مألَفةً
من عهدتُ وأين الحيُّ مُذْ باناً	فأين عهدُ الحمى كنّا نلوذ به
لا ترتضى أنجمَ الجوزاء سُكَّاناً	حيث المعالمُ والأطلالُ مشرقةً

(١) المضار: حلبة الباق، والبداهة: أول الجري، والعلالة: الجري المستمر، أو الجري بعد
الجري، والكد: الجد في العمل، والإلحاح في محاولة الشيء، والوكد السمي والجهد، ويقال:
هذا وكدي أي فعلي.

(٢) هو محمد جلبي بن مصطفى بن بستان قاضي القضاة بن بستان زاده، تولى منصب قاضي
القضاة بدمشق سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فقدمها وباشر الأحكام الشرعية بها، وكان لديه
فضل زائد وتودد إلى الناس مع المداراة لهم، وعنده معرفة في دربة القضاء مع حسن أخلاق
ولين جانب.

ثم صرف عن منصبه سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة.

انظر قضاة دمشق ٣٣٢.

أَيَّامَ أَهْصِرُ غُصْنَ الْقَدِّ فِينَا
يا منزلاً بجنوب الغوطتين غدا
وأجنتني من ثمار الوصل ألوانا
هل راجع لي ماضٍ من جديد هوى
إن أخلفت منك أخلاف السحاب رُبى

فلي دموعُ تروِّي رسمك الآنـا
كأنها في عِراضِ الدار هاميةٌ
نوءُ السَّاكين تسقي الرَّبْع تهتانا
ويا شباباً كطيفِ زارنى ومضى
هل كنت إلا لعين اللهو إنسانا
عَهْدِي بِرَبْعِكَ حُسَّانُ المِراجِعِ من
حُسَّانَةِ الجِيدِ تُؤَلِّي الحَسَنَ إِحسانا
ترنو إليك بلحظ الرِّيمِ وسنانا
أعطافها وكساها الحَسَنُ فِتَانا
بدر الدُّجى لا ختفى في الأفق خجلانا
من الزُّلال وقد وافيتُ ظهَّانا
والبينُ يبعثُ في الأحشاء نيرانا
صَبَّ غدا لفراق الإلف حيرانا
بينما يُرى لؤلؤاً إذ صار مَرَجانا
والدمعُ يجرى على الحَدَّين طُوفانا:
إِلَّا عَمَرْتَ بِرُجْعَى مِنْكَ أوطانا

(١) ساجية الطرف: أي ذات طرف فاتر ساكن.

(٢) الرعبوبة: الغضة الطويلة المثلثة الجسم، أو البيضاء الحلوة الناعمة، والفرق: ما تقم به المرأة شعرها قسمين، ويكون رائع الحسن إذا كان أبيض في وسط شعر حالك السواد.

(٣) اللمي: سمة في الشفة تستحسن.

فقلتُ: لا والذي سَوَّكَ إِنساناً
 قاضي قضاة دمشق الشام سيدنا
 وافي حمى روضها الزاهي فحلَّ بها
 وغرَّد الطيرُ في أرجائها سَحْراً
 فأصبحتُ من جنان الخلد جَادَ بها
 لما رَسَا طودُ عِلْمٍ في معالمها
 بَحْبُوتَيْهِ بَيْتُ الحِلْمِ معتصماً
 لا تزدهيه من الدنيا مطامعها
 يجرُّ ذيل فخارٍ ما تعلَّقَهُ
 بهِمَّةٍ في سماء المجد ساميةٍ
 وطلعة زانها الباري بقدرته
 وراحة كالسحاب الغرُّ وقع ندى
 وحسن خُلُقٍ كزهر الرِّوض مُزداناً
 وخاطرٍ لو سرى فى ليل غامضةٍ
 أضحت تُجَلَّى لدى الأفهام مُسْفِرةً
 ومنطق لو وعى سحبانُ منطقته
 حلالُ مُشكلة فتَّاح مُقفلةٍ
 يا أيها الفاضل المُعْجَبُ بمنطقه
 لك اليراعُ الذي يحكي تسارعه
 طوراً نراه على الأرواح محتكماً
 مولاي يا كعبة الفضل الذي وقفت
 وخير منتجع أُمَّتُ نداءه على

أو تلجئ لِحِمَى ظِلِّ ابن بستانا
 كنز الهدى عِلْمُ الإفضال مولانا
 أَمْنٌ وِمن جِمَى سَكَّانَها صانا
 بروضةٍ انبتتُ ورداً وربحانا
 رضوانُ يبغي من الرحمن رضوانا
 أقرَّ كلُّ له بالفضل إذعانا
 إذا أطارثُ رياحُ الطيش نُهلانا
 ولا يُرى بسوى الإحسان جذلانا
 سوى العفاف برأى لُبُّه صانا
 لا ترتضي أنجم الأفلاك اخداناً
 فخطَّها لكتاب الحسن عنواناً
 لو لم يكن خُلِبَ الأنواء خوَّاناً
 لو كان حُلُو الجنَّ بالبشر ملاناً
 أعيتُ من القوم ألباباً وآذاناً
 عن وجهه أوطَفَ ساجي الطرف ثعلماناً
 يوماً لأسحب ذيل العيِّ سحباناً
 كشافُ معضلة الأفهام عِرفانا
 مصاقعُ العُربِ عدناناً وقحطاناً
 وقد مشى فوق مَن الطرس ثعباناً
 وتارة يَهْبُ الأرواح مناناً
 ببابها نُجِبَ الآمال ركبانا
 نأي الديار مطايا العزم أظعاناً

ما البحر ملتطماً والدهر معوانا
 أندى يداً منك أولى منك عارفة
 وهاكها غادة صيغر الوشاح خطت^(١)
 جِمَى غدا معقل الأهواء متشحاً
 ذخراً لقاصده روض لرائده
 مأوى لعارفة مثوى لعاطفة
 خوطية^(٢) ما انثنى خطي قامتها
 تبغى قبولا وترجو منك عاطفة
 عبيد بابك نجل الطالوي فقد
 وليس شكواي إلا من بنيه وإن
 ٧ أ ومن سواك لهذا الأمر يا أملي
 والأب لما أثأت الأيام من دنف^(٣)
 وأسلم ودم ماسرى نجم وما طلعت
 وناح بين رياض الغوطتين ضحى

والليث منتقماً والغيث هتانا
 أمضى شباة أدنى منك إحسانا
 إلى جِمَى عالم لم يرَضَ أقرانا
 بالبيض والسمر أسيافا ومُرانا^(٤)
 بحر لوارده وافاء عطشاننا
 مغنى لسالفه عيشي بها لانا
 إلا وأخجل وسط الروض قُضباننا
 نحو امرئ ودّه بالمذق ما شانا
 أختت عليه يد الدهر الذي خانا
 كنيت عنهم به فأفطن لما كانا
 فامنن وكنى على الأحداث معوانا
 لا زلت ترفع للمعروف بُنيانا
 شمس وهز نسيم الروض أغصانا
 قمرى مقرى لإلف وامتطى بانا^(٥)

(١) الوشاح: ما يتشح به القضاة أو رجال النيابة من قماش يوضع على العاتق (وهو ما بين العنق والمنكب، إلى الكشح وهو ما بين الخاصرة والضلع)، وقد تلبسه المرأة للزينة، وصفه كناية عن لطافة جسمها ودقته.

(٢) المران: الرماح الصلبة لدنة، واحده مرانة.

(٣) الخوط: كل قضيب ما كان، والخوطية: الخفيفة الحسنة الخلق المشوقة القدر.

(٤) الثأي: الصدع والكر، ورأبه: لأمه وأصلحه، والدنف: المرض الشديد، والمقصود به هنا الفقر والحاجة إلى المعروف.

(٥) القمرى: نوع من الحمام مطوق حسن الصوت، ومقرى لإلف: أي مشتك ما به من ألم أو جوى لأليفه.

وكتب يطلب خدمة القسمة

ومما كتبتُ به إلى جنابه الرفيع، وبابه المنيع، أيضاً في التاريخ المذكور بدمشق الشام، وقد انتظمتُ في سلك خَدَمِهِ، ورتمتُ في مراد كرمه، مُعَرِّضاً أثناءها لخدمة القسمة^(١)، قولي:

ذنبٌ إلى الدهر ماله شافع	ونبوةٌ ما لخطبها دافع
فضلٌ بعيدُ المنال يضحبه	قلبٌ ذكيٌّ ومنطقٌ رائع
وشيمةٌ شأنها الوفاء إذا	خان زمانٌ أهيلهُ خانع
فعادها تُنسي في بُلَهْنِيَّةٍ	وخفض عيشٍ فناؤه واسع
واهجرُ دُروس العلوم هجر قلى	فهي عن الرزق مانعٌ قاطع
واجفُ أخا الفضل كي تنال منى	واصحب أخا الجهل ينعِد الطالع
فمن يكن في الزمان ذا أدبٍ	يأكل ما عاش في مَعَى ضائع
والشعر فاطرقه كم طرقتُ به	آذان قوم فلم تجد سامع
من كل سِيرة غدت مثلاً	حدّث عنها المهدبُ البارغ
لا عيب تُرمى به سَلِمَتَ سِوى	جفوة - حظ - وقِيَتَه - هاجع
أخرها دهرها العَقُورُ إلى	دهرٍ بذى الفضل لم يكن ساجع
به شمسُ العلوم قد أفلت	وأنجم الفضل ما لها طالع
سادتُ به ثَلَّةٌ وأردفها	شامٌ من الناس هامل راتع

(١) المقصود بها قسمة الموارث بين الرعية في محكمة القسمة، ويتولاها أحد نواب قاضي عسكر أنندي، انظر الإدارة في مصر في العصر العثماني ٤٥٢.

٧ ب ومغرم بالعلّا نصحت له
دغ عنك تظلابه فغير فتى
وضغ عن النفس بعض ما حملت
العرج فيه إلى السماء عرجت
تسي بأيدي النوكى مدارسه
لا دارس عندها سوى طلل
هذا وليل لخط ساهره
تظل فيه النجوم حائرة
أبيت لا أطمع الرقاد به
عهدى به والغرام يشفعه
حسان ربع زاهى المعالم من
طارحتها سورة الزمان وما
فقههت وانثنت معاتبه
عجبت تشكو وقد رأيتك في
قاضي قضاة الشام سيدنا
خير امرئ يمتته واخدة^(٢)
من دوحة العلم مجد سوددها
إليه أفضت علوم والديه
بهمية لا يزال قائدها

والدين نصح أتى به الشارع
يفتر منه باله الخادغ
من عبه دهر لقدرها واضع
أما ترى نسرها غدا واقع
نهبى ولا مانع ولا دافع
ولا علوم بل معلّم خاشع
يلوح فيه المجر كالشارغ
تمشي على الأفق مشية الظالع
على شباب من شرخي الرائع
والشرح عون إلى الهوى شافع
حسانة الجيد لحظها خادغ
منيت فيه من حظي الوادغ^(١)
والعتب للحر رادغ قامغ
روض ابن بستان غصنه البانغ
من لم أزل في نواله طامغ
نجب الأماني من مهمه شافع
كفضله في الورى غدا شائع
طاب ثراه فحازها نافغ
عزم يقد المهند القاطغ

(١) سورة الزمان: غضبه وبطشه، والوادغ: الساكن الهادى، والمقصود به هنا: الهابط الحامل.

(٢) الواخدة: السريعة الواسعة الخطو، وهي حال من نجب الأمالي الآتية.

ومنطقي لو وعى فصاحتَه
مولى أياديه جودها هَامِع
إلى ذُراهُ أتيَتْ مُشْتَكِيَاً
دَيْنَاً على الدهر قد أَلَطَّ به (١)
من ذاك ما الناظر البصير يرى
وحاجةٌ ما في النفس ما قُضِيَتْ
إنجاز وعدٍ أوجبتُ كرمًا
رضاه فيما يراه سيده
واسلم ودُم ما رقتُ على فتنٍ
سحبانُ أضحى لنفسه باخع
وبابُ ناديه ملجأ الفَارِع
بين يديه لِقَصَّتِي رافع
ألدُّ خَصْمٍ على الفتى رائِع
توزيعُهُ من عُلوْفَةِ الجامع
عنها سكوْتِي لديكم شافع
لعبدٍ رِقًّا بيا بكم خاضع
فخير عبد بقسمة قانع
وَرُقٌّ وما افتنَّ في ربى ساجع

تهنئة لعلّي أفندى قيه لى زاده

ومن ذلك ما كتبتُ به من دمشق الشام، لا أغبَّ ربّاهَا صَيِّبُ غَمام،
للحضرة العلية، والدوحة الزكية، حضرة علي أفندى الشهير نسبه الخطير
بقيه لي (٢) زاده، وأنفذتها إلى جنابه وهو بالروم، وقد ولى قضاء عسكر
المنصورة بولاية اناطولي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة، قولي:

(١) أَلَطَّ به: جعده حقه وأبى الإقرار به.

(٢) هو قاضي القضاة علي جلبي بن أمر الله قبلي زاده، كان عالماً فاضلاً، فقيهاً أدبياً له معرفة
جيدة بالأدب والتاريخ ومشاركة في بقية العلوم، تولى القضاء بدمشق سنة ٩٧١ والتقى
بالشيخ بدر الدين الغزي الذي قال له بعد أن أجازته: ما دخل دمشق من القضاة أفضل
منك، ورجحه على بقية علماء الروم في وقته، تولى قضاء مصر سنة أربع وسبعين وتسعمائة،
انظر قضاة دمشق ٣٢٩.

رَبَعَ الغمامُ بَرَبَعِ ذاكِ المنزلِ
وغدتْ عليه من الزمانِ نضارةٌ
وكسا معالهُ الربيعُ مَطارِفاً
ومشتْ بعقوته الرياحُ كما مشتْ
فلربما ارتبعتْ رباهُ فتيةٌ
طارحتها قِدماً حديثَ صَبابةٍ
حتى ارتقتْ شرفَ السيادةِ والعُلا
ولَهانَ في تلكِ المعاهدِ منشداً
ب/ ٨ / لله درُّ عصابِـــــــة نادمتُهُم
حيثُ الشبابُ الغضُّ مقتبلٌ ولي
ولقد وقفتُ على المعاهدِ سائلاً
وذكرتُ أيامَ الصبا فبكِيتُها
وغدوتُ أشدَّ في معالمِ رسمه
حُييتَ يا ربعَ الصِّبا من منزلِ
ورسا النسيمُ بساحتيكِ فأصبحتُ
يا منزلاً نَزَلَتْهُ أحداثُ النوى
إن يُمسِرَ رَبُّعُكَ مُبْدِلاً من دِميةٍ

وَسَخَا به نَوْهُ السَّهْكِ الْأَعْزَلِ
شُفِعتْ نضارتُها بشرخِ مُقْبِلِ
خُضراً تُسَدِّيها رِياحُ الشَّمَالِ
صِرْفُ الحُمَيَّا في مجاري المِفْصَلِ
مثلُ البَدورِ طَوالِعالَمٍ تَأْفُلِ
وهو سُلَافٌ كَالسُّلَافِ السَّلَسَلِ
وبقيتُ مُلْقَى في الحَضِيضِ الْأَسْفَلِ
في إثرِها حُزناً مَقالِ مُفْضَلِ
يوماً بَجَلَقٍ في الزمانِ الْأَوَّلِ (١)
بهوى الغواني غمرةٌ ما تنجلي
عهدَ الشبابِ وخاب من لم يسألِ
ذكرتُ حبيبَ يومِ بانٍ ومنزِلِ
والعينُ سَكَرى بالدموعِ الهُمَلِ
وسُقِيتَ ريعانَ الغمامِ الْمَسِيلِ
عَرَصاتُ دارِكِ نزهةِ التَّأْمَلِ
وخطوبُ دهرٍ للصَّعابِ مَذَلَلِ
بالرَّيْمِ أو من طِفْلَةٍ بِالْمُطْفَلِ (٢)

(١) البيت مضمّن هنا، وهو لحسان بن ثابت من قصيدة طويلة في مدح الفاتحة ملوك الشام في الجاهلية، انظره في ديوانه. وخلق: اسم لدينة دمشق.
(٢) الرّيم: الطّي الخالص البياض، والطفلة: المولودة ما دامت رخصة ناعمة وإلى حين البلوغ، والمطفل: ذات الطفل من الإنس والوحش.

فلقد شهدتُ بك الحسانَ كواعباً
من كل غيداءِ التثنِّي ألبستُ
رُودُ سقاها الحسنُ ماءً شبيبةً
قالت وقد بصُرتُ بوجهي شاحباً
أقفُ المطيَّ على الطولِ رواسماً
أتروم إدراكَ المعالي جاهداً
تالله لن ترقى محلاً سامياً
هي حضرةُ المولى المعظمِ قدره
من رأيهِ للمهتدي ونواله
كُسيَتْ به الأيامُ ثوبُ نضارةٍ
فأتت به كالبدر ليلةً تمه
طلقُ المحيا قد علتُهُ مهابةٌ
أ عفا الإزارُ يحجرُ أذيالُ التقى
لا تزدهيه مطامعُ الدنيا ولا
بنداه أسمى الجود مُلتي رَحْلُهُ
بوأْتُ أطماعي به فكأنما
يا من له قلمُ شِباةٍ قناتِهِ

بيضاً طوالع كالبذور الكُمَّلِ
أعطافها بُرد الشبابِ المُسدِلِ
فغدَتْ كزهر الروض غاداه الولي^(١)
أزجي الركاب إلى العلا بتنقلِ
أُنكي رسوماً في محلٍ مُخولِ
نِضو القريض بمعلمٍ وبمجهلِ
حتى تُلِّمَ بصدر ذاك الحفلِ
قاضي العساكر من سَمًا شرفاً علي
للمجتدي وعطاؤه للمُرملِ^(٢)
وغدَتْ تَمِيسُ من الفضارة في حُلِي
متهللاً كالعارض المتهللِ
فكأنه من نورها في جَحْفَلِ
والدينُ بالرأي الأسدُّ الأكملِ
يرنو لزخرف حسنِها المتعجلِ
لما اغتدى فيه محطَّ الأرحلِ
بوأْتُ رحلي في المرَادِ المبْقِلِ^(٣)
امضى وقوعاً من شِباة المنصَلِ^(٤)

(١) الرود: التي تسير في تمهل وتؤدة، والولي: المطر يسقط بعد المطر.

(٢) المرمل: من نفد زاده واقتقر.

(٣) المراد: اسم مكان من الفعل راد أي طلب، يقال: راد أهله منزلاً وكلاً، والمبقل: الذي

نبت فيه البقل، والمقصود به أي زرع يصلح للمرعى.

(٤) شِباة الشيء: حد طزفه، والمنصل بفتح الصاد وضماها: السيف.

إن يُنْطِيه الخمسُ الجداول مُفرغاً
 خضعتْ له فرسانُ كلِّ بلاغةٍ
 حتى يُرى عبدُ الحميد حميداً^(٢) ما
 وابنُ العميد عميدَ نشر بلاغة^(٣)
 لك هضبةُ العلم التي فرغت علّاً
 لو رام رِسْطاليسُ يدركُ شأوها
 مولاي يا من جُود راحةِ كفه
 لا تُغيبُ الأنواءُ ربك إنّه
 من بحر فكرٍ فيه دُرُّ المِقْوَلِ^(١)
 وسطاً بناديهَا لخطبةٍ فيُصل
 أنشاه من إنشاء حُسن ترسَلِ
 في طيِّها دُرُّ النظام المرسلِ
 هَامَ النّعام والسّماك الأعزلِ^(٤)
 لم يستطع وكذا الرئيسُ أبو علي^(٥)
 يربو على جود السحاب الأهطلِ
 من حادث الأيام أحصنُ معقلِ

(١) يطمه: يركبه، أي يجعل الجداول الخمس مطية وركوبة له يستولي عليها ويفرغ فيها درر القول من بحر فكره، وجواب الشرط في البيت الذي يليه، أي ان يطمه الخمس الجداول... خضعت الخ.

(٢) هو عبد الحميد الكاتب، أعظم الكتاب المترسلين في العربية، وكان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية بالشام، وقد قتل في مفتتح حكم الدولة العباسية حوالي عام ١٣٣ هـ، وقوله حميد ما أنشاه: أي حامداً فهي فعيل بمعنى فاعل.

(٣) هو محمد بن الحسين بن محمد المعروف بابن العميد، أديب، كاتب صاحب طريقة في الكتابة عرف بها، وكان من أعظم كتاب العربية حتى قيل فيه وفي عبد الحميد الكاتب: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد». وكان وزيراً لركن الدولة البويهى في فارس، وتوفى عام ٣٦٠ هـ. وقوله: عميد نشر بلاغة أي مشغوف بها حباً.

(٤) النعام: منزلة من منازل القمر، صورتها كالنعام، والسماك أحد السمك، وهما نجان نيران في السماء أحدهما في الشمال وهو السمك الراح، والآخر في الجنوب وهو السمك الأعزل.

(٥) هو الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا الفيلسوف والطبيب الشاعر الكاتب المعروف بالرئيس، من تصانيفه الكثيرة: الشفا في أنواع الفلسفة، والقانون في الطب، وتقسيم الحكمة، ثم ديوان شعر، ترجمته في عيون الأنباء ٢٠/٢، تاريخ حكماء الإسلام ٥٢-٧٢، النجوم الزاهرة ٢٥/٢.

وَلِيَهْنِ مَنْصِبُ دَوْلَةٍ قُلْدَتَهُ
 مَا مَنْصِبٌ إِلَّا وَقَدْرُكَ فَوْقَهُ
 وَإِلَيْكَ وَافَتْ غَادَةٌ أَمْسَتْ عَلَى
 شَامِيَةِ الْمَنَاشَا غَدَتْ لَكُنْهَا
 لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِقُسٍّ خَاطِبًا
 قَصَدَتْ إِلَى عُلْيَا ذُرَاكَ لَعَلَّ أَنْ
 فَتَعُودُ صَادِرَةً وَقَدْ أَتْنَهَلْتَهَا
 لَا زَلَّتْ مَحْرُوسَ الْجَنَابِ بِدَوْلَةٍ
 ٩ب/ وَعَرَاصُ رُبْعِكَ لِلْوَفُودِ مَحْطَةٌ
 مَا يَرَاكَ مَدْحٌ فِي عُلَاكَ وَمَا شَدَتْ
 وَسْرَى نَسِيمُ اللَّطْفِ مِنْكَ مُبَشِّرًا
 عَفْوًا كَمَا مِنْ قَبْلُ قِيلَ لِأَوَّلِ
 فَبِمَجْدِكَ السَّامِي يُهَنَّا مَا يَلِي
 فَلَكَ الْقَرِيضُ بِوَصْفِ مَدْحِكَ تَعْتَلِي
 طَائِيَّةُ الْأَنْسَابِ مَهْمَا تُسْأَلِ
 بَعَاظُهُ لَعَرَّتْهُ هِزَّةُ أَفْكَلٍ^(١)
 يَرْنُو لَهَا لِحْظُ السَّعَادَةِ مِنْ عَلٍ
 مِنْ وَرْدِكَ الْفِيَاضِ أَعْذَبَ مِنْهَلِ
 تَسْمُو بِسُودٍ مَجْدَهَا الْمَتَأْتَلِ
 تَأْوِي لَهَا آمَالُ كُلِّ مُؤْمِلٍ
 وَرُقُ الْحَمَائِمِ فِي الْفُصُونِ الْمِيلِ
 بَبُلُوغِ آمَالِي بَغِيرِ تَعْلُلِ

شيخ الإسلام عماد الدين العمادي

ومن ذلك ما كتبت به إلى سيدنا الشيخ الفاضل العلامة الكامل
 المحقق العلامة والمدقق الفهامة، فخر مدرسي دمشق الشام، وعمادها

(١) قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب وحكيمها في الجاهلية، وكان يخاطب في سوق
 عكاظ يدعو الناس إلى التأمل في الكون والإقرار بأن له خالقاً عظيماً هو أجدر بالعبادة من
 أصنامهم، أنظر.
 والأفكل: الرعدة من برد أو خوف.

العمدة وشيخ الإسلام^(١)، عام ثمان وسبعين وتسعمائة، وهو المدرس
بالناصرية الجوانية يومئذ طالباً الجواب:

عهد السرور وريعان الهوى النَّضِير	سقاكَ عهدُ الحيارِ قراقٍ مُنْحدِرٍ ^(٢)
وجاد ربَّكَ وَسميُّ تَكَرُّرِهِ ^(٣)	ريحُ الصَّبَا بين منهلٍ ومنهمرٍ
وغردت في رباك الورقُ وابتكرتُ	بلحنٍ مَعْبَدَ تَتْلُو أَطيبَ الحَبَرِ
ولا برحتُ مُعَانَا للْحَسَانِ ولا	رمتكَ أَيْدِي النوى بالحادثِ الغرِ
ولا أغبتكَ أرواحِ النسيمِ ولا	عَدْتُ مغانيكِ أَخْلَافُ من المطرِ ^(٤)
كَمْ لي بِهَا وشبابي الغَضُّ مُقْتَبِلٌ	من منزلِ أَهْلِ بالشوقِ والذِّكْرِ
كَمْ اجتليتُ بدوراً من مطالعها	كَمْ نِيلَ تحت سناها من سنا قمر ^(٥)
من كل رُعبوبةٍ تهفو بمصطبري	قد زانها الحسن بين الدَّلِّ والْحَوَرِ ^(٦)

(١) هو شيخ الإسلام عماد الدين بن عبد الرحمن بن محمد العمادي الحنفي الشامي، وكان فاضلاً
وقوراً متواضعاً، لطيف المعشر، صادق الود.

وهو مفتي الحنفية بالشام وابن مفتيها.

توفي سنة ثمانية وستين بعد الألف.

انظر خلاصة الأثر ٢/٣٠٣، ريجانة الألبا ١/١٣٣-١٣٧، تراجم الأعيان ٢/٣٠٢-٣١٠.
وفيها قصيدة المؤلف الواردة هنا ورد العمادي عليها.

(٢) في أ، ب: ينحدر.

(٣) الوسمي: مطر الربيع الأول، وتكرره ريح الصبا: تجمعه بعد تفرق، وفي
الريجانة: تكرره.

(٤) أغبته: جاءت يوماً بعد يوم، والأخلاف من المطر: التي تأتي ثم تنقطع ويأتي خلفها
وهكذا، وفي تراجم الأعيان: أخلاق.

(٥) في الريجانة أتت رواية هذا الشطر:

قد لحن تحت سناء من سنا قمر

(٦) في الريجانة: الحفر بدل الحور.

رُودُ كستها يدُ الأيام ثوب صبا
هيفاء صَبَّ الصَّبَاءُ الشَّبابَ عَلَى
قامت تُعانقني يوم الوداع وقد
تقول والبين تغشاها ركائبه
لا تَغْتَبِ الدَّهْرَ إِنْ حَالَتْ خِلَاتُهُ
١٠ / وَإِنْ تُرِدَ (٣) تَنْقِي مِنْ صَرْفِهِ نُوبًا
مولى حياهُ غداً (١) أَمْنُ الرُّوْعِ كَذَا
لا زال يسمو إلى العلياء مرتقياً
حتى امتطى صَهَوَاتِ المجد ساميةً
بهمة تُجْتَلَى كالليث ذي أُشْرِ
ما فاضلٌ قطُّ جاراه إلى أمدٍ
أقلامهُ السُّرْفِ في بيض الطروس إذا
له سجايا كنشر الروض ذي الزَّهْرِ (٦)
يلتقاك طلق الحيا وهو مبتسم
ما الروضُ جادت له الأنواء بالبُكر

وصيرتها الليالى فتنة البشر
أعطافها وكساها حُلَّةُ الحَفَرِ (١)
قلدتها من دموعي رائق الورر
والدمع يقطر فوق الخد من حذر (٢)
فصفو رونقه لم يخلُ من كَدَرٍ
فالجأ لظل عماد الدين تستر
جناهُ الرَّحْبِ مأوى الخائف الخذر
بسوددٍ مجده سام (٥) على الزَّهْرِ
يَخْتَالُ فِي حُلِّ الْأَوْضَاعِ وَالْفُرِّ
وعزمة كمضاء الصارم الذَّكْرِ
في البحث إلا أنثنى بالعمى والحصْرِ
مشت أرتك فعال البيض السُّرْفِ
وقد توشَّحَ بالانهار والغُدْرِ
بمنطق وزدُّه أخلَى من الصَّدْرِ
وكللت دوحه الخضل بالزهر

(١) رواية هذا الشطر في الریحانة:

بدمع فوق روض الخد منحدر

(٢) في الریحانة: ترم.

(٣) في الریحانة: مولى غدا ربه.

(٤) في الریحانة: عال.

(٥) رواية هذا الشطر في الریحانة:

له سجايا كزهر الروض غب ندى

جَادَ الْغَمَامُ لَهُ سَرًّا بِوَابِلِهِ
 فَازْدَانِ بِالنُّورِ غَيْبَ الْقَطْرِ فَهُوَ عَلَى
 تَخَالُ زَهْرُ الْأَقَاحِي فِي خَمَائِلِهِ
 تَشْدُو الْحَمَامُ عَلَى أَغْصَانِهِ سَحَرًا
 يَوْمًا بِأَحْسَنِ مَرَأَى مِنْ شَمَائِلِهِ
 يَا فَاضِلًا كَمْ جَلَّتْ أَبْكَارُ فِكْرَتِهِ
 وَابْنُ الْكِرَامِ وَمَنْ شَادُوا بِعِزِّهِمْ
 وَيَا عِمَادًا لِبَيْتِ الْفَضْلِ يَرْفَعُهُ
 إِلَى ذُرَاكَ أَتَتْ فَاقْبَلْ عَلَى دَخَلِ
 لَا زِلْتَ فِي نِعَمٍ تَسْمُو بِسُودَدِهَا
 مَا نَاحَ بِالْأَيْكَ قُمْرِي وَمَا سَجَعْتُ
 ١٠ب / وَمَا وَشَى الطَّرْسَ تَنْمِيقُ الْيِرَاعِ بِمَا

وَأَكْسَبَتْهُ ^(١) الصَّبَا مِنْ رَقَّةِ السَّحَرِ
 نَهْرُ الْأُبْلَةِ حُسْنًا رَاقٍ لِلنَّظَرِ ^(٢)
 زَهْرُ الْمَجَرَّةِ صَيَّنَتْ عَنْ يَدِ الْغَيْرِ
 فَتَبَعْتُ الشُّوقَ فِي أَحْشَاءِ مُسْتَعِيرِ
 وَلَا بِأَذْكَى شَذَا مِنْ نَشْرِهَا الْعَطَرِ ^(٣)
 غُرَّ الْمَعَانِي لَنَا فِي أَحْسَنِ الصُّورِ
 رَكْنُ الْعِلَاسَامِيَّاءِ فِي سَالِفِ الْعُصْرِ
 وَكَانَ مِنْ ضَعْفِهِ يَلْفَى عَلَى خَطَرِ
 نَسِجَهَا يَا رُئِيسَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
 هَامَ السَّكَاكِينِ حَيْثُ النَّسْرِ لَمْ يَطْرِ
 وَزُقُ الْحَمَائِمِ بِالْأَصَالِ وَالْبُكْرِ
 يُزْرِي بُوْشَى الرَّبَا بِسَامَةِ الزَّهْرِ ^(٤)

فكتب إلي بهذا الجواب - ثبت الله وطأة الآداب بطول بقائه،
 وصرف السوء والمكاره عن شريف جوابه ^(٥) - وبعثه إليّ بدمشق الشام:

أَحْلِي حوراء أم عِقْدٌ مِنَ الدَّرَرِ
 أم زاهرُ الزُّهْرِ أم زاه من الزَّهْرِ
 أم الحَبَابُ عَلَى رَاحٍ مُرَوِّقَةٍ
 أم نفثَةُ السَّحَرِ ذِي أم نَسْمَةِ السَّحَرِ

(١) في الرميانة: وقد كسبه.

(٢) لم يرد هذا البيت في الرميانة.

(٣) وأيضاً لم يرد هذا البيت في الرميانة.

(٤) كذلك لم يرد هذا البيت فيها، وفي التراجم: ييسن بدل بسامة.

(٥) الحوباء: النفس.

أم نظم من بهرت^(١) آيات منطقته
 يا نافث السحر من فيه بُعْجَزَة
 ويا مُدِيرًا سُلَافًا من بلاغته
 ويا ابن طَالُو وإن طال الزمان فما
 أخذت فصَّ المعاني من معادنه
 وحزت جمع المزايا وانفردت بها
 وجئت من كل معنى رائق حسن
 كأنه ضَرَبْتُ قد شَابَهُ شَنْبُ
 وقد شهدنا بما أُوتيت مُعْجَزَة
 أهديت لي غَادَة جَلَّتْ محاسنها
 رُغْبُوبَة من بنات البدو مُذْ خُطِرَتْ
 لها انتساب إلى زُهرٍ ومُرْسَلُها
 حَيَّتْ فأحييت بالفاظ منمقة
 وأسفرت عن سَنَا بَرَقٍ وعن شَفَقٍ
 زارت على حين أشواق لبهجتها
 وضاع عَرَفٌ شذاها عندما برزت
 سألتها قبله أَطْفِي بها حُرْقًا
 فأومأت لشتيت زانه شَنْبُ
 ونادمتني بليلٍ قد سررتُ به

فأعجزت كل ذي نظم ومنتثر
 عقدت ألسن أهل البدو والحضر
 هَلَّا ترفقت بالألباب والفكر
 لنا بلوغٌ إلى عليك فاقصر
 وغصت في أبحر الآداب للدرر
 ولم تدع للسوى شأواً ولم تذر
 بكل ما قد حلا في الذوق والنظر
 أو عاتق عابق من ريجه العطر
 جمع الفضائل في فرد من البشر
 وقد تجلّت لنا في أحسن الصور
 قلبي بها صار من وجد على خطري
 بحسن منطقته ينمي إلى مضر
 وغازلتنا بلطف الدلّ والحوار^(٢)
 وعن ضياء وعن شمس وعن قمر
 ومتعتنا بذلك المنظر النضر
 مسكاً وعطرت الأقطار بالقطر
 شبت بقلب بنار الشوق^(٣) مُستعر
 وأنعمت بنعيم الورد والصدر
 لكنه ساءني والله بالقصر

(١) في الریحانة: در زهت بدل من بهرت.

(٢) في الریحانة: والخفر.

(٣) في الریحانة: شديد الوجد.

وبت أنشد مدحاً في محاسنها
 يانزهة النفس يا من فاق منطقها
 إني عجبت لمن أنشاك رائقة
 يا من له همة ما نال غايتها
 ومن هو الغيث في يوم النوال بل الـ
 ومن هو الجلد في يوم الجدال وفي
 ومن له نسب كالشمس مشتهر
 من معشر نجب لولا تأخرهم
 خذها إليك وإن كانت مقصرة
 وإن تكن أوجزت في المدح واختصرت

فالعذب يُهجر للإفراط في الحصر (٢)
 وإن تكن من بليغ (٣) القول عاطلة
 واعذر فإني تركت الشعر من زمن
 لا زلت تسمو إلى الأقران مُرتدياً
 ما طرّز الطرسَ تنميق البراع بما
 وشبب المادح المطري بمدحك في
 فقد تحلّت بعقد من مديح سري
 لشاغل عنه غشى مقلة الفكر
 ثوب البلاغة في أمن من الحصر
 يزهو على الروض وشته يد المطر (٤)
 بيت من الشعر في روض على نهر

(١) هذا البيت وما بعده من أبيات خسة لم ترد في الرجمانة، وفي تراجم الأعيان: كحلاء بدل كحلاه.

(٢) لم يرد من الأبيات الاثني عشر التالية في تراجم الأعيان: الأبيات الثلاثة الآتية، ثم الخامس والأخير.

(٣) الحصر: شدة البرودة.

(٤) في الرجمانة: من بديع.

(٥) في الرجمانة: أو يعلو على الزهر بدل وشته يد المطر.

مما كتب به إلى العمداء على سبيل المطارحة

ومما كتبت به أيضاً لسيدنا العمداء، لا زال حماه لرواد الأدب أخصب
١١ ب مراد، ولا خلّى جيد دمشق من نظام عقوده، وربوتها الغناء من مطارف
وشي آدابه وبروده، قولي

طحا به في الحسان الغيد حيث طحا^(١)

قلب على العهد من لَمَاء ما برحا
هيفاء تُخجل غصن البان منعطفاً والريم ملتفتاً والظبي إن سحا
صغر الوشاحين رياء الحجل ما سقرت إلا أغار سناها الشمس وقت ضحي
رود تُخطر في بردى صبا وهوى وتنثني التيه من سكر الصبامرحا
سقى الصبا والشباب الروق^(٢) وجنتها

ماء من الحسن مغبوقاً ومُصطبِحاً
حاولتُ رشف اللّمي من برد ريقتها أظفي به من لبيب الوجد مالقها
فأعرضت لبياض لاح قائلة يا بُعدهُ مُنتبِذاً عنّا ومُطرِحاً
هيهات وصل الحسان الغانيات وفي ليل الشّبية صبغ الشيب قد وضحا
فقلت - والعينُ شكري والفؤادُ به رسُّ أكابدُ منه الوجد والبرحاً -^(٣)
ما ذاك - عوفيت - يا لمياء من كبر

إنني - وطرف الصبا المَقرور - ما قرَحاً^(٤)

(١) طحا: بعد، وطوح به في كل ناحية، يقال: طحا به هواه وقلبه وهمه.

(٢) الروق: أول الشاب.

(٣) الرس: الألم الثابت الذي لا يجيد، والبرح: شدة العذاب.

(٤) المقرور هنا السعيد الفرح، وقرحاً: القارح: من ذي الحافر ما استم الحامسة وسقطت منه

التي تلي الرباعية ونبت مكانها نابه، وحينئذ يكون في تمام قوته.

وَإِنَّمَا نُؤَبُّ الْأَيَّامَ جُثْنَ بِهِ
 غَدَتُ تَكْلَفْنِي فِيهِ الْعُلَا شَيْمٌ
 وَهَمَّةٌ لَيْسَ تَرْضَى النِّجْمَ مَنَزِلَةً
 وَمَنْطَقٌ تَنْظُمُ الْجُوزَاءَ رُؤْيَتِهِ
 مَوْلَى مَآثِرُهُ تَسْتَفِرُّ الْمَدْحَا
 مِنْ سَادَةِ وَرَثَتِهِ الْعُلِيَاءِ وَاقْتَسَمُوا
 مِنْ كُلِّ أَزْهَرِ بَادِي الْبُشْرِ غُرَّتُهُ
 يُبْدِي حَيًّا يُرِيكَ الْبَدْرَ طَلْعَتِهِ
 إِلَى شَمَائِلِ تَنْدَى كَالرِّيَاضِ إِذَا
 إِمَامُ أَهْلِ التَّقَى وَالْعِلْمِ، شَيْمَتُهُ
 تَغْدُو الْأَمَانِيَّ حَرَى دُونَ هِمَّتِهِ
 فَلَمَّا بِهِ طُودَ عِلْمٌ لَوْ تَوَازَنَهُ

هَضَابُ رَضَى عَلَى مَقْدَارِهَا رَجَحَا
 عَلِيَا بِلَاغَتِهِ مَا يُخْرَسُ الْفُصْحَا
 وَمُقْفَلٌ بِدَقِيقِ الْفِكْرِ قَدْ فُتِحَا
 شَاهَدَتِ أُرُوعَ بِالْخَطِيبَةِ اتَّشِحَا
 تَخَالُ أَرْقَمَ وَسْطِ الرُّوضِ فَاهُ شَحَا
 وَالْدَهْرُ إِنْ سَمَحَا وَالْبَحْرُ إِنْ طَفَحَا
 أُنْدَى يَدَا مِنْهُ أَوْفَى مِنْهُ إِنْ سَمَحَا
 أَقْصَرُ عَدَمَتِكَ وَأَقْبَلُ نَصَحٍ مِنْ نَصَحَا
 مَقْسُومَةٌ وَإِلَهُ الْعَرْشِ قَدْ مَنَحَا
 فَوَادُهَا لَسَوَى مَغْنَاكَ مَا جَنَحَا

يريك من لفظه الكشاف إن نطقت
 فكم به من مشكل للفهم قد وضحا
 له يراع إذا يعلو أنامله
 وإن مشى في أعالي الطرس مرقمه
 ما الليث إن جرحا والغيث إن رشحا
 أمضى شبا منه أدنى منه وقع فدى
 فقل لمن رام في فضل يائله
 إن المعالي ما بين الورى منح
 وهاكها من بنات الفكر غانية

تخالها روضة غناء قد لبست
 حلت عرى الدلو فيها للجنوب يد
 من عبد رق ترجى أن تكاتبه
 لا زلت تحمي حریم الفضل في بلد
 تظاهروا بنفاق النعي بينهم
 ما أم ساحك طلاب وما حلت
 مطارف النور في أعطافها وشحا
 بيضاء والطير في أغصانها صدحا
 فضلاً ليرتاض دهر بعدما جمحا
 به أناس لبهم القاع إذ سرحا
 حتى ادعاه على مكروهه الفصحاً
 غوارب الإبل الغادين والروحا

فكتب إلي بما يخجل الدر في أسلاكه، ويزري بالدرى في مطالع أفلاكه،
 أمتع الله الآداب بطول بقائه، وأسبغ على الأفاضل ظلال نعمائه، بقوله:

أروضة عرفها المسكي قد نفحا
 جادت عليها أكف الجود فابتسمت
 والفصن مال لتشيب الصبا طرباً
 وأصبحت راحة الأرواح جالبة الـ
 تلوح فيها لرائيها مشعشة
 يديرها أغيث كالظي في كحل
 أم عقد در بديع زان غانية
 أم غادة من بنات الفكر أنتجها
 العالم العلم الفرد الذي جمعت
 ومن أضاءت به الأيام وافتخرت
 ومن له نسب عال إلى حسب
 من معشر ورثوا العلياء واقتعدوا
 طالوا مآثر عنها قصرت همم
 وبلبل الحسن في دوحاتها صدحا
 ثغور أزهارها من جوده فرحا
 فيها وجدولها بالأنس قد طفحا
 أفراح سالبة من لطفها البرحا
 كأنها في سماء الكأس شمس ضحى
 والفصن في ميل والبدر ملتحمحا
 حسناء إن قابلت بدر الدجى افتتحا
 رب البلاغة من دانت له الفصحا
 فيه المزايا فأضحت ذاته ملحا
 بفضلته وفساد الدهر قد صلحا
 كالشمس مشتهراً في الناس متضحاً
 سنامها فعلاهم عنه ما برحا
 لغيرهم عمت الداني ومن نرحا

لو أَنَّهُمْ فِي قَدِيمِ الْعُصْرِ كَانَ لَهُمْ
يَا نَافِثَ السُّحَرِ مِنْ فِيهِ عَقَدْتَ بِهِ
فَكُلُّ ذِي لَسَنِ أَعْيَا بِمَنْطِقِهِ
وَمِنْ سُلَافِ الْمَعَانِي قَدْ أَدْرَتْ عَلَى
وَأَصْبَحَ الْقَوْمُ سَكْرَى مِنْ فِصَاحَتِكَ الَّتِي

بِهَا لَفْظُكَ الْخَمْرِيُّ قَدْ سَمَحَا

أُورَى افْتِكَارَكَ أَنْوَاراً مُشْعِشَةً
وَفَاضَ سَيْبُكَ فِي الطُّلَّابِ يَغْمُرُهُمْ
١٣ / وَقَدْ جَلَّيْتَ ظِلَامَ الْجَهْلِ حِينَ دَجَا
بَعَثْتَ لِي مِنْ قَرِيضٍ عَقْدَ غَانِيَةٍ
بَلْ جَنَّةٌ أَخَذْتُ بِالْحَسَنِ زُخْرُفَهَا
نَزَّهْتَ فِكْرِي فِي زَاهِي أَزَاهِرِهَا
وَبِتُّ أَجْلُو صَدَى فِكْرِي بِرُؤْيَيْهَا
تَبَارَكَ اللَّهُ قَدْ أُوتِيَتْ مُعْجَزَةٌ
يَا مَنْ لَهُ انْقَادَتْ الْأَلْفَاظُ طَائِعَةً
خُذْهَا إِلَيْكَ فَقَدْ جَاءَتْ مُقْصَرَةً
وَاعْذِرْ أَخَا فِكْرَةٍ بِالتُّرْكِ مَقْفَلَةً
لَا زَلْتَ تَبْقَى لِأَهْلِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً
مَا رَصَعَ الطُّرْسَ نِظَامٌ بِجَوْهَرِهِ

مِنْ الْفَضَائِلِ لَمَّا زَنَدُهُ قَدَحَا
فَكُلُّ ذِي طَلَبٍ فِي بَحْرِهِ سَبَحَا
وَجَلَّ حَتَّى غَدَا بَيْنَ الْوَرَى وَضَحَا
مَا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ مَذْكُوراً إِذَا لِمَحَا
بَدِيعُ صَوْرَتِهَا قَدْ جَاءَ مَقْتَرَحَا
وَطَرَفُ طَرْفِي فِي مِيدَانِهَا مَرَحَا
وَعَنْ فَوَادِي زَالِ الْهَمِّ وَالْبُرْحَا
مِنْ فِي يَرَاعِكَ قَطْرُ الْفَضْلِ قَدْ وَشَحَا
وَكُلُّ مَعْنَى عَوِيصٍ بَعْدَ مَا جَمَحَا
عَنْ وَصْفٍ كَامِلٍ مَعْنَاكَ الَّذِي رَجَحَا
لَوْلَا امْتِدَا حَكَ بَابَ النِّظْمِ مَا فَتَحَا
بِالْمَجْدِ مُرْتَدِياً بِالْجُودِ مُتَشَحَا
وَطَرَزَ الْفِكْرَ مَدَا حُجَّ بِمَا مَدَحَا

ومما كتبه إلى ابن المنقار مطارحة

ومن ذلك ما كتبتُ به إلى سيدنا الشيخ العلامة، والمحقق الفهامة،
زبدة العلماء العاملين، عمدة الفضلاء الكاملين، شمس الملة والدنيا
والدين، الشهير نسبُه الخطيرُ في الأقطار، بابن المنقار^(١)، والمدرس يومئذ
بالمدرسة القصّاعيّة، بدمشق الحمية، سنة ٩٧٨ ملغزاً له في اسم نجم لا
زال ثوب الفضل عليه ضافياً، ومشرّبُه من العلوم والآداب صافياً، قولي:

سقى الصبا واللّهو عهدُ الربّاب ^(٢)	ولا عدا الوسميُّ عهدُ الربّاب ^(٣)
ولا أغبّت ربّعه ديمّة	مجلوبة المِزَم ذات انصباب ^(٤)
١٣ب/ حيث الثّياب الغضُّ نوّارة	نسيمها الخفّاق رطب المهّاب
أيام روضي بالمنى زاهرٌ	وربعُ لهويّ أهلٍ بالتّصّاب
وظيّي ذاك السّرب لي مُنيّة	والدهر طلقُ والمغاني رحاب
وإذ غصونُ الأنس فينانة	قد جاذبتها الوصل أيدي العتاب
والحبُّ يُزهي بين ريحانة	يانعة تُسقى بماء الشباب

(١) هو محمد بن القاسم، المعروف بشمس الدين ابن المنقار الحلبي الدمشقي، ولد سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة، وكان فاضلاً من أعيان العلماء، مناظراً قوياً في العلوم، وكان شاعراً أديباً إلا أن شعره شعر العلماء وأدبه أدب الفقهاء، توفي سنة خمس بعد الألف.
ترجمته في خلاصة الأثر ١١٥/٤، الریحانة ١٢٨/١ - ١٣٠، وانظر من المدرسة القصّاعية الدارس للنعمي ٥٦٥/١.

(٢) العهد: مطر أول العام، والربّاب: السحاب الرقيق.

(٣) عهد الربّاب هنا معناها زمن معرفتنا بمن تدعى ربّاب، فبينها وبين عهد الربّاب في الشطرة الأولى جناس تام.

(٤) المرزم: الريح، أو ريح الشمال الباردة، ومجلوبة أي تحدث جلبة من شدتها.

كأنها والبشرُ بلادٍ بها
 مولًى عَلا بالمجد هام العُلا
 أخلاقه الزُّهر حكين الرُّبى
 ما وجَّه الفكرَ إلى مطلبٍ
 بهمةٍ كالليث عند انسياب
 إذا مشت في الطُّرس أفلأمه
 وإن جرى والخَصم في حَلبةٍ
 أتى من الحكم بفصل الخطاب
 يا فاضلاً سُدوده باهرٌ
 أنت فتى الآداب في عصرنا
 رُضت لنا شوس القوافي وقد
 فلم نجد قافيةً أَحَكمت
 إليك وجهتُ بها مُلفزاً
 في اسمٍ ثلاثيٍّ يُرى سامياً
 يرعاه طرفي بالدجاجي كما
 مقلوبُهُ يا صاحٍ ما يُتقى
 ١٤ / ماضيه فعلٌ إن تَزُل عينُهُ
 حكى سجاياك واقعاً لها

غرة شمس الدين سامي الجنباب
 فاقتمدَ الجوزاء أَعلى هضاب
 حُسنًا وأزرين بَغَرُ السحاب
 إلا أتى فيه بأمر عُجاب
 وراحةٍ كالغيث عند انسكاب
 أهونُ بفعل السُّمر ذات الكعاب
 ووجهت تلك القضايا الصُّعاب
 فيها وحاز الخَصم غنم الإياب
 وفضله بادٍ بغير احتجاب
 وفيك لا عنك تُنصُّ الرُّكاب (١)
 كانت على من يمتطيها صعاب
 إلا لها نحو ذُراك انتساب
 وقد أتت من خجل في انتقاب
 يُهدى به الساري سبيل الصواب
 يرعاه طرفي بثنايا الشُّعاب
 به من الأعداء وُقيت المصاب (٢)
 فذلك اسمٌ لجنَى مُستطاب (٣)
 ومن سجايا المرء ما يُستطاب

(١) تنص الركاب: أي تنحت حثاً شديداً على البر.

(٢) أي المجن، وهو مقلوب كلمة نجم الملفز بها.

(٣) يعني به التمس أو التام، وهو نوع من السمتر البري أو نمنع الماء.

أوضح لنا .معناه مَنَّا وَجُدْ بجلِّه أثناء رُودِ كعاب
لا زلت تسمو الدهر في نعمة مضروبةً الأوتاد حيث القباب
ما وشَّع الطرس أديباً^(١) وما وشَّحت الأقلام يوماً كتاب
ولعلبع الحادي بسَّلْعٍ وما شُبِّبَ في الحيِّ بصوت الرباب^(٢)

جواب ابن المنقار عليه

فأجاب مدَّ الله ظلَّاه، وضاعف اقتداره وجلَّاه، بما يسحر الألباب
من الجواب، بل يفعل فيها فعل البابليِّ المعتق، والعاني^(٣) المروِّق، وهو
قوله:

جاءت وقد حيَّت برفع النُّقاب فخلتُ بدرأً قد بدا من حجاب
وأشرق النّادي بأنوارها وعطّرتُ بالطيب تلك الرحاب
وأسفرتُ شمساً ومالت قنأ والتفتتُ طيباً ولاحت شهاب
وكحلّتُ من نورها مُقلتي وأودعتُ سمعي لذيدَ الخطاب
ونادمتني - صاحٍ - بالفاظها فرُختُ سكرانَ بغيرِ الشراب
وراقَتِ الأسجاعُ حتى لقد أنستني العودَ وصوتَ الرباب

(١) التوشيع: التوشية والتزيين، يقال ثوب موشع أي مزين مرقوم وأعلام مخططة، وقوله: ما وشَّع الطرس أديب... فيه استعارة مكنية، فقد شبه الكتاب بالثوب المزين، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بـ"شيء"، من لوازمه وهو التوشية، وهذه الأنواع البلاغية كثيرة في شعر المؤلف كما لا يخفى.

(٢) لعلع: علا صوته، والسَّلْع: الطريق في الجبل، والرباب: هي الآلة الموسيقية الشعبية ذات الوتر الواحد.

(٣) العاني: الأسير المقيد.

فرحتُ مفتوناً بها مُغرماً
وليس ذا بدعاً لأن الذي
محمد ذو الفضل من معشر
بنوا من المعروف ركن الندى
نالوا سماء العز من فخرهم
أكرم بنجل الطالوي الذي
١٤ب/ أقلافه السمر إذا صرّها
بنانه قد عاد سحراً لذا
ونثره كالزهر في روضة
وجوده كالبحر في موجه
أيا إمام النظم أذكرتني
فحررت ساكن شوقي إلى
ألغزت في عال سماء وانتمى
يرمقه العاشق ما به
لكن محياك إذا ما بدا
يا ملك الافضال أبشر فقد
أنحفني بالدر من بحرك ال
وطال ما شفت أساعنا
فاسلم ودُم ذا نعمة راقياً

كأنني ما دهاني مُصاب
نقمها حبر إمام مُهاب
سادوا لهم فضل وأي انتساب
وأسسوا مجد العلا والثواب
واقاعدوا أوج العلا والهضاب
طول يديه كالحيا في انسكاب
تزري بيض الهند عند الحراب
يلعب بالألباب فهو اللباب
وشعره در ونظم الحباب
وفكره كالنار عند التهاب
بينت فكر لك عصر الشباب
نظم قوافي أحكمت للجواب
لقدرك العالي بغير ارتياب
وكم هدى السائر عند الذهاب
في السير يغني عن طلوع الشهاب
ملككت بالآداب حر الرقاب
عذب فأضحى مؤرداً يُستطاب
بدر لفظ ومعاني عذاب
أوج العالي ورفيع الجناح

★ ★ ★

ومما كتبتُ به أيضاً إلى جنابه لا زال منبع الفضائل، ومنبع رُواد

الأفاضل، مستدعيًا من فضله السامي، بعض حواشي المحقق الجامي^(١)
قولي:

أمولاي شمس الدين يا من غَدَثَ له	سجايَا كزَهَرِ الروض غِيبٌ سِجَامِ
وفكرٌ إذا يسري بليلِ غوامِضٍ	غَدَثٌ تنجلي كالبدْر عند تمامِ
وعزمٌ يقْدُ الشرقيَّ وهِمَّةٌ	تزاجِمُ رُكنِي يَدْبُلُ وشَامِ
مُحبُّك يرجو من حواشٍ رقيقةٍ	لديكَ على الشرحِ الشهيرِ بجامي
يحلُّ بها من مشكلاتِ سُطُوره	عُراها ليَعْرِى فيه كلُّ عُرَامِ ^(٢)
لعبد الغفورِ الحَبْرِ أولاً فِعِصْمَتِي	إذا لم تكن في حُلَّها بعِصَامِ
ودُمُ مقصداً للفضل والعلم ما رَقَى	منابر قضبانٍ خطيبِ حَمَامِ

ومما كتب به إليه محمد الصالحى الهلالي مطارحة

ومن كتب إليّ من أفضل أدباء دمشق الشام، لا أخلفتها أخلافُ
الغمام، مولانا العلامة الأديب الفاضل، عين أعيان الأفاضل، مَنْ كوكبُهُ
في سماء الآداب متلالي، سيدي نجم الملة والدِّين الأَخُ في الله محمد الصَّالِحِي

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الشيرازي، نور الدين أبو البركات، المعروف بالجامي.
عالم مشارك في كثير من العلوم العقلية والنقلية، ولد بجام إحدى بلاد خراسان سنة ٨١٧ هـ
ونشأ بهراء، وعاش بها معظم حياته وتوفى بها عام ٨٩٨ هـ.
من مؤلفاته الكثيرة: الدرة الفاخرة في تحقيق مذهب الصوفيين والحكماء والمتكلمين في وجود
الواجب، وتاريخ هراء، وشرح الكافية لابن الحاجب في النحو، وشرح النقابة مختصر الوقاية
في الفقه الحنفي. انظر معجم المؤلفين ١٢٢/٥، شذرات الذهب ٣٦٠/٧، البدر الطالع
٣٢٧/١.

(٢) العرام: وسخ القدر أو الوسخ مطلقاً.

الهلالي^(١)، لا زال جيدُ الدهر من عقود نظمهِ حالي، ما بقيتِ الأيامُ
والليالي، وذلك في حدود سبع وسبعين وتسعمائة، بقوله:

حَذَارِ فَوَادِي فَالظُّبَاءِ فَوَارِسُ وما غَيْرُ آسَادِ العَرِينِ فَرَائِسُ
وَإِيَّاكَ وَالْإِقْدَامَ فِي حَلْبَةِ الرَّدَى فخيْلُ المَنَايَا لِلنَّفُوسِ تُخَالِسُ
فَلَلَهُ مِنْ قَلْبِ عَصَانِي كَأَنَّهُ خَصِيمٌ لَطَرْدِ الْقَوْلِ مَنِي يُعَاكِسُ
فِيَا قَلْبُ كَمْ هَذَا النِّوَايَةِ فِي الْهَوَى فَحَتَّى مَتَى فِي الْمَوْتِ هَذَا التَّنَافُسُ
أَلَمْ يَأْنِ مِنْ سُكْرِ الْغَرَامِ إِفَاقَةٌ فيصْحُو فَوَادُ اللَّهْمومِ مُجَالِسُ
وَيَا ظِيٍّ مَا هَذَا النَّفَارُ إِلَى مَتَى أَمَا أَنْ تَعْطُو الظُّبَاءَ الْكَوَانِسُ^(٢)
سَرَى الطَّيْفُ فِي وَهْنٍ مِنَ اللَّيْلِ يَتَغَيُّ

طُرُوق عَليْل أَقْلَقْتَهُ الْوَسَاوِسُ
فَهَوَّمَ جَفْنُ الصَّبِّ سَاعَةً قُرْبَهُ يَظُنُّ بِأَنَّ الطَّيْفَ ضَيْفَ مُؤَانِسُ
وَدَارَتْ كَثُوسٌ لِلْعَتَابِ وَأُنِيعَتْ قُطُوفُ الْأُمَانِي وَالظُّنُونُ الْهَوَاجِسُ
فَمَا دَامَ إِلَّا أَنْ أَفَاقَ إِفَاقَةٌ إِذَا الدَّارُ شَسَعَى وَالْفِقَارُ الْبَسَابِسُ
لَقَدْ أَبْلَتْ الْأَيَّامُ فِينَا بِلَاءَهَا وَجَارَتْ صُرُوفٌ بَيْنَهُنَّ تَجَانِسُ

(١) هو محمد بن نجم الدين بن محمد، شمس الدين الصالحى الهلالي، ولد بدمشق عام ست وخمسين وتسعمائة، ورحل إلى مكة فقرأ على علمائها.

وكان من سنته الاعتزال عن الناس، منقطعاً للعلم، وبرع في الفقه والأدب والتفسير، مع ذكاء وحن فهم وقد ربطت بينه وبين المؤلف صداقة ومودة تتضح في كثرة المطارحات التي يوردها المؤلف معه في كتابه هذا.

توفي سنة اثنتي عشرة بعد الألف، انظر الريحانة ٢٧/١ - ٣١، خلاصة الأثر ٢٣١/٤.

(٢) تعطو: أي تتناول ما يعطى إليها، وتأنس بن يعطياها، والكوانس: جمع كناس وهو بيت الظبي.

وقائعُ أنستنا حروبَ ابنِ وائلٍ
أما علمتُ أنّي وإن كنتُ عاجزاً
طويلُ نجادِ السيفِ يومَ كربيّةٍ
إذا خفقتُ في البحثِ راياتِ فكرِهِ
كثيرُ رمادِ القِدرِ داني نواله
إذا عصفتُ نحوَ القِفارِ رياحه
فيا ابنَ الكرامِ الأقدمينَ ومنَ لهم
نظمتُ عقوداً منَ علّاكِ استفدتُها
فدونكها كالزهرِ تُجلى لناظر
فإن صادفتُ منك القبولَ فحسبُها
عسى السيّدُ المولى يكتأبُ عبده
وشرفُ بنظمٍ قد حكته أزاها
فأنت حياة العلمِ تنشرُ ميتَهُ
فما زالت الآدابُ منك نواضراً

وأربتُ على أضعافِ ماجرٍ داحسٍ^(١)
سينصرُني شهمٌ من التركِ فارسُ
إذا قصّرتُ عنها الرجالُ العوابسُ
تلثها جيوشُ للطعانِ تُداعسُ
وليس على أبوابه الدهرُ حارسُ
سقاها الحيا والهاطلاتُ البواجسُ
فخارٌ على أم السماكين جالسُ
وأقبسني من نورِ وصفك قابسُ
كما جليتُ في الروضِ منه عرائسُ
فخاراً به طولُ الزمانِ تنافسُ
ليرتاض دهرٌ بالأحبة شامسُ
نواضراً لم يَقطفُ جناهن لأمسُ
إذا ما عفت تلك الدروس الدوارسُ
مدى الدهرِ لا تذوي لهن مغارسُ

ولما سقط بسؤاله على خبيره، أجبته ناسجاً على منوالِ خبيره، لا
زال رُبُ الأدبِ معموراً بطولِ بقائه، ورياضُهُ غُصّةً بحسنِ رَويّته ورُوائه،
بقولي:

أنت تنشي كالغصن والغصنُ يابسُ وترنو بطرفٍ أوطفٍ^(٢) وهو ناعسُ

(١) ابن وائل هو كليب بن وائل التغلبي الذي حدثت بسبب قتله حرب البسوس، وقد أشرنا إليها فيما سبق، أما داحس فهو فارس.

(٢) الوطف: كثرة شعر الأهداب مع استرخائها.

فيا ابن الألى شادوا الفخار بعزهم وليس لهم في غير مجد تنافس
 بعثتُ بنظم كالليالي مُنظماً حكى دُرُّ دمعي حين بان المجالسُ
 وكلفتنِي عنه الجوابَ وحبذا سؤالٌ ولكن أين مني تجانسُ
 أثبتك بالرضراض^(١) من دُرر حكتُ عرائس زهر قد جلتها الحنادسُ
 فإن يك منه ما يروق لناظر فإننى له من نور وصفك قابسُ
 ودونكما تمشي الهوينى وتنثني حياءً وطرفُ العين فيها يخالسُ
 إلى بابكم ترجو القبولَ تفضلاً عساها بقرب منك تحظى وتأنسُ
 فلا زلت بالآداب تُتخف صاحباً مدى الدهر ما طُنبت بعلمِ مدارسُ
 وما ناح قُفريُّ الرياض مفرداً وحنّ مشوق نازح الدار آيسُ

يرد على من ادعى أن أبياته لبعض أدباء المغرب

وبلغني أن المولى الأخ المرسل إليه، لا برحتُ أدباءً الأفاضل تُعوّل
 عليه، أنشدوا بالمسجد الجامع، في مجلس لأعيان الفضلاء جامع، من
 يُرجع في فنون الآداب إليه، ويعوّل من مضائقه إليه، فأفاضوا عند
 انشادها في الاستحسان، وأخذ كلُّ يذكر بجميل الإحسان، وكان من
 جملة أولئك الفضلاء مولانا عمدة المدرّسين، الشيخ الأسد بن معين
 الدين، التبريزي^(٢) -- أمتع الله بحياته -- فذكر للأخ المشار إليه، أن هذه

(١) الرضراض: الحجارة الصغيرة في مجرى الماء .

(٢) هو النلا أسعد بن معين الدين الشيرازي الشافعي نزيل دمشق، الإمام العلامة المحقق، كان
 أكثر انتفاعه بالشيخ علاء الدين بن عماد الدين، قرأ عليه مختلف العلوم الشرعية واللغوية،
 وقد كتب بخطه المطول ودیوای المتنبی وأبی تمام وشرح ابن المصنف على الألفية وغير ذلك، =

الآبيات ربما تكون لبعض فضلاء المغرب فانتحلها لأنها تشبه طريقتهم في بعض التشابيه، فكتبت إليه مضمناً للبيت المشهور أسدٌ عليّ... بهذه:

قسماً بصبح جبينٍ بدرٍ باهر	وبطلعة القمر المنير الزاهر
وبفترة الأجفان ^(١) ترشُّق في الحشا	سَهَمَ المنيّة عن لحاظ جآذر
وبكل هيفاء القوام إذا اثنت	أزرتُ بخُوطٍ نقا الرياض الناضر
من كل رُودٍ وازنتُ شمس الضحى	غيداء تهزأ بالغزال النافر
ريّاً التخلخل ذاتُ قدٍّ ناعم	غرثي وشاح ذات طرف فاتر
رُغبوبة تحتال من مَرَح الصُّبا	كخميلة بالروض ذات أزاهر
لا بل بعزم كالحسام الباتر	وبثبت حزم للأعادي قاهر
وبهمّة هامَ الهجرة قد علتُ	فسمتُ على نسر السماء الطائر
وبطارف الشرف الرفيع محلّه	وبتاليد الحسب المنيع الطاهر
لأنا الكميّ بجومة الهيّجا إذا	شنت لي الحُسادُ غارة نائر
من كلٍّ من لم أرضه خلاً ولم	أعدّده يوماً في سِراة عشائري
أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامه	فتخاء تنفر من صفيّر الصّافر ^(٢)
زعم الفداة بأنّني متنحلّ	ما قلته يا ويحه من جائر
إن شاء وشئتُ القريضَ لمدحه	ونعتُهُ ووصفته بماثر

ودرس بالناصرية البرانية ثم بالشامية وجمع له بينهما، ثم تولى منصب الفتوى، وعنه أخذ أكثر فضلاء الوقت، وله شعر رائع لم يغ توفى سنة ٩٩٨ هـ.
انظر شذرات الذهب ٤٣٨/٨.

(١) فترة الأجفان: ضعفها ولينها، ويقال: طرف فاتر، فيه ضعف مستحسن.

(٢) البيت في عيون الأخبار ١٧٠/٢، وقد قيل في الحجاج وبعده بيت آخر هو:

هلا كررت على غزالة في الوغى بل كان قلبك في جوانح طائر

مَنْ كُل قَافِيَة إِذَا مَا أُنْشِدَتْ
 حَتَّى يَرَى أَنِي أَمْرٌ مِنْ أَسْرَةٍ
 لَكِنْ لِي جُرْثُومَةٌ قَدْ أُسْبِلَتْ
 يَا فَاضِلًا قَادَتْ لَنَا أَفْكَارُهُ
 حَلَّيْتُ جِيدَ الدَّهْرِ عَقْدَ فَرَائِدِ
 بِقِصَائِدِ ظَنَانَةٍ مَا غَادَرَتْ
 خَذَهَا إِلَيْكَ أَرْقُ مِنْ نَفْسِ الصَّبَا
 تَغْدُو عَلَى سَحَابٍ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا
 وَكُنِ الضَّنِينَ بِهَا فَإِنَّ مَحَلَّهَا
 لَا زِلْتَ رَوْضًا بِالْفَضَائِلِ مُرَعَاً
 مَا نَاحَ قُمْرِيَّ بِرَوْضٍ زَاهِرٍ
 تَرَكْتُ جَرِيرًا فِي الْعَدِيدِ الْآخِرِ
 شَادُوا الْمَعَالِي فِي الزَّمَانِ الْغَابِرِ
 ذِيلُ الْوَفَاءِ عَلَى الزَّمَانِ الْغَادِرِ
 غَرَّ الْمَعَانِي فِي النَّسِيبِ الْبَاهِرِ
 وَكَسَوْتُهُ وَشَى الثَّنَاءِ الْفَاخِرِ
 لَبَنِي الْقَطِيعَةَ مِنْ عَجَاجِ ثَائِرِ
 سَحَرًا وَالْطَفِ مِنْ خِيَالِ زَائِرِ
 وَتَجَرُّ مِرْطَ الزَّهْوِ فَوْقَ الْحَاجِرِ
 بِمَكَانِ أَسْوَدِ نَاطِرِي مِنْ نَاطِرِي
 تُنْشِي قَرِيضَ الشَّعْرِ بَيْنَ مَعَاشِرِ
 وَغَدَتْ تَطَارُحُهُ حَامَةً حَاجِرِ^(١)

رد الصالحى على القصيدة

فكتب إلي بهذه الحسنة الغانية جواباً، وأدار على مسامعي من
 سُلَاف أدبه أكوأباً، وهي قوله:

أَسَاءُ زُهر أم رياض أزاهر سحبتُ عليها الذيل نَسْمَةً حَاجِرِ
 مَبْلُولَةَ الْأَذْيَالِ تُسْنَدُ عَنْ شَدَا دَارِينَ نَشْرًا عَنْ عَبِيرِ عَاطِرِ^(٢)

(١) الحاجر: ما يمك الماء من شفة الوادي، أو هو موضع قبل معدن النقرة ودون قيد، انظر
 معجم البلدان ١٨٣/٢.

(٢) دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها الملك من الهند، فينسب إليها، انظر معجم البلدان

٧ ب أم دُرَّةُ مكنونة ما ثَقَّبَتْ
 أم شمسُ أفق بالسَّنا قد برقت
 أم بنتُ فكر بالحياء تلفعت
 مُذْ غازلتني من جفونِ نواظر
 غَضَّيْتُ طَرْفي خوف بارق ثغرها
 سامرُتها والنجمُ في آفاقه
 وتلتُ حديثاً كالأمان الخائفِ
 أكرمُ بها من غادَةِ فتانةٍ
 جاءتُ تعرفُنَا بأنَّ مقامها
 فعجبتُ من شمسٍ تُرينا نُورَها
 وشكتُ من الحُسادِ بغيّاً أنهم
 يا قاتلَ الله الحواسدَ دأبُّهم
 يا ليت شعري والحوادثُ جمةٌ
 ماذا يريدُ المفسدون بما سَعَوْا
 نَعِسَ الذي يرجو الوفاء من امرئٍ
 يا فاضلاً سَحَّتْ سَحَابُ بيانه
 أنت الحُسامُ المنتضى من أسرة
 برقتُ غماثهم بغيثِ ماطرٍ
 ولأنت عندي في سواد الناظر
 بيني وبينك في المحبة نسبةٌ
 خذها إليك ونظمُها من ضعفه
 لا زلتُ أفقاً بالدراري نيراً

أصدافها فكرُ الذكي الماهرِ
 وجهاً وجاءت كالحييب الزائرِ
 وأتت تهزُّ الرُذف تحت مآزِرِ
 ونضتُ نقاباً عن جبين زاهرِ
 من أن يمرَّ كلمح لحظِ الباصرِ
 يرنو كخِلٍّ للنديم مُسامِرِ
 وألذَّ من غفوات عَيْنِ السَّاهرِ
 تَسْبِي العقول بسحر طرف فاتر
 فوق السَّكِّ وفوق نسر طائرِ
 هل تنكر الأضواء عَيْنُ الناظرِ
 جاءوا بُزورٍ في المقالة ظاهرِ
 تنكيرُ معروف وكنتم مفاخرِ
 والدهرُ ييدي كلُّ أمر نادر
 حتى أذاعوا الزُّورَ بين معاشري
 أو ما يرى فلك الزمان الدائر
 ببديع نظم كالعباب الزاخر
 إن سوجلوا أو فوخرُوا بمآثرِ
 وروى غَطَاءُ برَّهم عن جابر
 وحللتَ مني في سوايداء خاطري
 مدلولها في الصَّدق صدق الخاطرِ
 يُبدي قصوراً من ضعيف قاصر
 تهدي السبيلَ لحائد أو حائرِ

ما اعتلت النسمات من شوقٍ بها ورقي خطيبُ الورقِ عودَ منابرٍ
ثم الصلاةُ على النبي وآله أهلُ المفاخرِ والنجارِ الطاهرِ
ما غنت العُشاقُ في ركبٍ وما قصَدَ الحجازَ وحنَّ قلبُ الذاكِرِ

لا يجده في بيته فيترك له قصيدة

قصد منزلي يوماً بدمشق الشام - جاذَ ربَّاهَا الحيا، وصافحتها كفَّ
النسيم وحيًا - لداعيةٍ دعت، وحاجةٍ عرضت، فلما لم يسعد الطالع
بالاجتماع، ولا ساعد التقدير، كتب إليَّ بهذه الأبيات الخجلة الروض
المطير، وهي قوله:

مَنْ مُبْلَغٍ عَنِّي سَلَامًا نَاسِمًا	عَطِرَ الْعَبِيرِ وَبِالْمِسْرَةِ بَاسِمًا
مَنْ سَامَ كُلَّ فَضَائِلٍ وَفَوَاضِلٍ	وَعَدَا لِبَرْقِ الْعِلْمِ حَقًّا شَائِمًا ^(١)
قَدْ جِثْتُ أَمْسٍ مَقْبَلًا أَعْتَابُهُ	وَبَقِيتُ كَالظَّامِي عَلَيْهِ حَاشِمًا
وَطَفَفْتُ فِي تِلْكَ الْمَعَالِمِ نَاشِدًا	خِدْنِ الصِّفَا النَّطِيسِ الْأَغْرَ الْعَالِمًا
وَرَجَوْتُ مِنْ تِلْكَ الرَّبُوعِ إِجَابَةً	فَوَجَدْتُ لَا مَتَكَلِّمًا بَلْ كَالْمَا
وَرَجَعْتُ لَمَّا لَمْ أَجِدْ مِنْ مَخْبِرٍ	عَمَّنْ أَتَاحَ مَغَانِمًا وَمَكَارِمًا
وَالْآنَ أَشْرَحُ مَا أَتَيْتُ لِأَجَلِهِ	فَاسْمَعِ وَقِيتَ مِنَ الزَّمَانِ مَغَارِمًا
عَزَمَ الْفَقِيرُ إِلَى الْمَصِيرِ إِلَيْكُمْ	يَبْغِي زَكَاةَ الْجَاهِ عَزْمًا جَازِمًا

(١) سام الفضائل: لزمها ولم يبرح عنها، وشام البرق: نظر إليه يتحقق أين ينزل مطره، ويمكن أن يقاس ذلك على العلم على سبيل الاستعارة أي نظر إلى العلماء ليجالسهم ويأخذ عنهم ما يلقون إلى الناس منه.

وَأَتَى يَوْمَ جَنَابِكُمْ فِي حَاجَةٍ
وَالْأَمْرُ شَيْءٌ هَيْنٌ لَكُنِّي
إِنَّ الْعَظِيمَ مِنَ الرِّجَالِ يَهْزُهُ
قَدْ رَامَ إِسْعَافِي بِذَلِكَ مَعَثَرُ
وَقَصَدْتُ أَنْ الْقَوْلَ يَلْفَى حَظَّهُمُ
وَالْعَبْدُ يَصْرِفُ مَا تَقَرَّرَ رَسْمُهُ
وَلَكُونُ يُغَيِّبُنِي الْمَسِيرُ إِلَيْهِمْ
فَاسْمَحْ لَنَا بِوَفَاءٍ وَعِدٍ سَابِقِ
لَا زِلْتَ كَعْبَةٍ قَاصِدٍ تَسْرِي لَهَا
مَا زَانَ جَيْدَ الدَّهْرِ عِقْدُ عَلَامِ

حَاشَاكَ أَنْ تُلْفَى لَدَيْهَا خَائِبًا (١)
عَظَمَتُهُ لَتَكُونُ فِيهِ قَائِمًا
جُلُّ الْأُمُورِ إِذَا غَدُونَ عَظَائِمًا
فَغَدَوْتَ إِلَّا عَنْ نَوَالِكَ صَائِمًا
وَيَكُونُ مِنْكَ الْحَظُّ فَعَلَا صَارِمًا
لِلسَّادَةِ الْكِتَابُ صَرَفًا لَازِمًا
صَيَّرْتُ عَزَمَكَ فِي الْقَضِيَةِ حَاكِمًا
لَتَنَالَ مِنِّي الدَّهْرُ شُكْرًا دَائِمًا
نَجَبَ الْأَمَانِي وَخُذَّاءَ وَرَوَاسِمِ (٢)
وَعَدَوْتَ مَنشُورَ الْفَضَائِلِ نَاطِمًا

رد المؤلف على هذه اللفتة

فمضيتُ على حاجته في الحال، وكتبتُ لجنابه بالارتجال:

مُولَايَ شَرَّفْتَ الرُّبُوعَ وَطَالَ مَا
وَبَعَثْتَ مِنْ أَبْكَارِ فِكْرِكَ غَادَةً
عِذْرَاءَ سَاجٍ طَرَفُهَا مَهْمَا رَنْتُ
وَإِذَا انْشَنَّتْ تَحْتَالُ مِنْ مَرَحِ الصَّبَا

زَهَتْ الدِّيَارُ بِكُمْ رَبِّي وَمَعَالِمَا
نَحْوِي فَرَحْتُ بِهَا مُعْنَى هَائِمَا
سَلَّتْ عَلَيْكَ مِنَ اللَّحَاطِ صَوْرَامَا
أَزَرْتُ بِخُوطِي الْأَرَاكَةَ نَاعِمَا

(١) خام عن الشيء: جبن وترافع.

(٢) الوخد: نوع من سير الإبل توسع فيه الخطى كمشي النعام، والرسيم: ضرب آخر من السير فيه إسراع فوق الوخد.

كالرَّوضِ فِي رَأْدِ الْأَصِيلِ شَدْتُ عَلَى
 قَدِ طَرَزْتَهُ يَدُ الْجَنُوبِ بِمَارِضٍ
 أَهْدَتْ تَحِيَّةً مِنْ تَسَامَى قَدْرُهُ
 مَوْلَى حَوَى جِنْسِ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا
 قَدْ حُمِلْتُ فِي طَيْهَا مِنْ نَشْرِه
 فَوَرَتْ زِنَادَ الشُّوقِ بَيْنَ جَوَانِحِي
 لَكِنِّي لَمَّا فَضَضْتُ خَتَامَهَا
 بَادَرْتُ أَنْحُو مَا أَتَتْ مِنْ أَجْلِهِ
 وَإِذَا الْخَلِيلُ أَمَتْ يَوْمًا خِلَّهُ
 أَيْجُوزُ فِي دِينِ الْوَفَاءِ بَأَنْ يُرَى
 كَلَّا إِذَا لَا سَرَتْ قِطُّ وَلَا سَعَتْ
 مَوْلَايَ يَا خِذْنَ الصَّفَاءَ وَمَنْ غَدَتْ
 أ ١٩ دَعِ ذَكَرَ مِنْ ضَيَّعَتْ عَمْرُكَ مُطْرِيَا
 حَتَّى دَعَتْكَ إِلَيْهِ يَوْمًا حَاجَةً
 وَلَقَدْ سَبَرْتُ بَنِي الزَّمَانِ فَلَمْ أَجِدْ
 فَاتْرَكَهُمْ تَرَكَ الرِّثَالِ تَرِيكَةً^(١)
 وَاهْجَرِ سِوَى خِذَنِ الْوَفَاءِ وَلَا تُرَى

أَغْصَانُهُ وَرَقُ الْحَمَامِ رَوَائِمًا
 أَخَوَى وَعَرَفُ شَذَاهُ أَضْحَى فَاغِمًا
 فَقَدَا عَلَى نَجْمِ الْمَجَرَّةِ نَاجِمًا
 وَغَدَا بِفَصْلِي فِي بَنِيهَا حَاكِمًا
 أَرْجَا يَفُوقُ مِنَ الْعَبِيرِ لَطَائِمًا^(١)
 إِذْ لَمْ أَكُنْ وَقْتُ الزِّيَارَةِ عَالِمًا
 وَلَثِمْتُ مِنْهَا الشَّغْرَ أَشْنَبَ بَاسِمًا^(٢)
 وَأَرَى الْمَصِيرَ إِلَيْهِ حَتْمًا لَازِمًا
 بِالْقَوْلِ كَانَ لَدَيَّ فَعَلًا جَازِمًا
 غَيْرِي بِهَذَا الْأَمْرِ يَوْمًا قَائِمًا
 قَدَمِي لِإِدْرَاكِ الْأُمُورِ عَظَائِمًا
 أَخْلَاقُهُ مِثْلُ الرِّيَاضِ نَوَاسِمًا
 فِي مَدْحِهِ بَيْنَ الْعَاكِرِ دَائِمًا
 أَلْفَيْتُهُ فِيهَا مَرِييَا خَائِمًا
 فِيهِمْ سِوَى نِكْسٍ يُسَمَّى حَازِمًا^(٣)
 فِي مَهْمَةٍ عَافِي الْمَسَالِكِ قَائِمًا
 أَبْدَأُ لِلْأَبْنَاءِ الزَّمَانَ مَسَالِمًا

(١) اللطائم: جمع لطيمة، وهي وعاء المسك.

(٢) الشجر الأشنب: هو الذي صفت أسنانه وابتضت، والعامية استعارت الشنب للشارب واستعملته فيه حتى نبي الأصل.

(٣) النكس: المقصر عن غاية النجدة والكرم.

(٤) الرثال: جمع رأل، وهو فرخ الفعام والتركبة البيضة التي يخرج منها.

لا زلتَ روضاً بالفضائل ناضراً تُهْدِي لَنَا زُهرَ المعاني باسمَا
ما غرَدَتْ قمريةٌ في أَيْكةٍ وغدا البراعُ لحدِّ طرسٍ راقما

الصالحى يهنئه بمولود

. وما كتب به إليّ مهنئاً بمولود طلع في سماء منزلي هلالاً ، فاستهلت به
المسارُ^(١) استهلالاً ، متعرضاً لنصبَةِ^(٢) طالِعهِ ، وقد بدا كالقمر في
مطالعه ، مشيراً أثناءه بطلب ديوان الشريف الرضي ، وذلك عام إحدى
وثمانين وتسعمائة ، قوله :

من بعد تقبيل أرضٍ قد سمتُ شرفاً	أُفِقَ السَّمَاءُ وَأَضَتْ رَوْضَةً أَنْفًا ^(٣)
وودت الشهب لو نيطت بلبّتها	عِقْدًا وَفِي أُذُنِهَا لَوْ عُلِّقَتْ شُنْفًا
وبعد إهداء دَارِيّ السلام إلى	دار الذي حيث حلّ المجد ما انصرفا
ووصف شوق وما بالعهد من قدم	كَابَدْتُ مِنْهُ عَلَى قُرْبِ نَوَى قَذْفًا ^(٤)
وليّه نَجْمٌ سَعِدَ مِنْ قِرَانِ ذُكَا ^(٥)	أَتَى بِهِ بِدَرٍّ فَضْلُ قَطْطٍ مَا خُسِفَا
الدُّلُوْ مع زحلٍ قد جاء طالِعهُ	سُعُودُهُ قَدْ حَوَاها تُلْدَأُ طُرْفَا
عُطَارِدٌ فَكْرُهُ بَهْرَامٌ ^(٦) عَزَمَتْهُ	والمشتري سعدُهُ إِنَّ سَارَ أَوْ وَقَفَا

(١) المسار: جمع المرة، والمرة: مصدر ميمي بمعنى السرور.

(٢) النصب: العلامة.

(٣) أضت أنفا: أي عادت جديدة.

(٤) القذف: البعيد، يقال نية قذف ونوى قذف أو فلاة قذف أي بعيدة تتقاذف بين يسلكها.

(٥) ذكاء اسم الشمس ممدودة، وقصرها هنا للضرورة.

(٦) بهرام: اسم لكوكب المريخ.

نعم مولودٌ سعيدٌ في العلا ظهرت
وابعث إلينا بديوان الشريف ومن
١٩ ب واسلم ودم ماسرى صُبْحَانِسِمُ صَبَا
وما أهاجت أغاريد الحمام ضحى
آياته واغتدي عن مضى خلفا
حوى المعالي عن آبائه الخلفا
وما أضاء عِشَاءً بارقٌ وهفا
صبا له صبّ دمع حسبه وكفا

فكتبت إليه بهذا الجواب، لا زال يُرِشِفُ سمعي من راح آدابه
أكواب:

قد أذكرت من عهود الصّبّ ما سلفا
جيداء^(١) منصَلَتِ القرطين في غَيْدٍ
بعيدة المرتقى ترمي بناظرة
خطت على بَرَحٍ وَجَدَتْ أَكْلُوهُ
فخلت شَرَحَ شبابي رُدَّ رَيْقُهُ^(٢)
إذا الرُّسُومُ تُرَى بالبيض ناضرة
وآفت كقطعة روض غِبَّ سارية
ترعرعت فيه أطفالُ الرُّبَى وغدا
في طيِّها نشر داري به عَطِرَتْ
لله كم جمعت عليا بلاغتها
فكاد يُقْضي على تذكاره أَسَفَا
خطت إلي كخُوطٍ تنثني قُطْفَا
من ريم وَجَرَةٌ يُبْدي جفنه وَطَفَا^(٣)
وحرّ وَقَدْ شَعَفِ القلبُ قد شَعَفَا
على من كنت مشغوفاً به كَلَفَا
وبالكواعب تُلْفَى روضةً أَنْفَا
سقت أقاحيه من رَقْرَاقها نُطَفَا
بيت القرار إلى الحُوْذَانِ منعطفَا^(٤)
أرجاء رَنَعِ نديها طال ما شَرُفَا
من كلِّ رائق معنى راق أو لَطَفَا

(١) الجيداء: الطويلة العنق في جمال وحسن، ومفصلة القرطين: بارزتهما، في غيد: أي في
نعمرة وتثن، والخوط: الجسيمة الخفيفة، تنثني قطفاً: أي تنثني في بطنه وتكاسل.

(٢) الوطف: كثرة شمر الجفنين مع طول واسترخاء.

(٣) الرُّيْقُ: (يفتح الراء وسكون الياء وتشدد): أول الشاب.

(٤) الحوذان: نبات عشبي من ذوات الفلقتين، منه أنواع تزرع لزهرها الجميل، وأخرى
تثبت بركة.

وَضَمَّتْهُ مِنَ الْأَشْوَاقِ فِي فَقْرٍ كَأَنَّهَا الزُّهْرُ أَوْ زَهْرُ الرُّبَى تَرَفَا
 مِنْهَا التَّهَانِي بِنَجْمِ الدِّينِ عَبْدِكُمْ وَحَسْبُ أَمْثَالِهِ أَنْ تَمْدَحُوا شَرَفَا
 وَهَذَا بَعَثْنَا بِدِيَوَانِ الشَّرِيفِ إِلَى جَنَابِكُمْ وَبَوْشِي إِنْ ثَرَّ ذَلِكَ قَفَا
 لَكِنَّهُ لَا كَوْشِي حَكَتْ بُرْدَتُهُ يُلْفَى اللَّالِي وَمَا قَدْ حَكَتْهُ الصَّدَفَا
 لَا زِلْتَ تُرْشِفُ سَمْعِي كُلَّ رَائِقَةٍ تَغْدُو لِأَسْمَاعِ آذَانِ الْوَرَى شُنْفَا

رسالة الصالحى إليه من دمشق يطمنئه على أهله

ومما كتب به إليّ لا برحت رباع الفضل بذكره معمورة، ومعالم العلم
 بحائب آدابه مغمورة، هذه القصيدة العينية، والفريدة المخجلة بحسن
 طلوعها الطباء العينية^(١)، وأرسلها إليّ من دمشق الشام إلى مقام دار
 الخلافة قسطنطينية مناط الأحكام، تلو نثر أبدع فيه غاية الإبداع،
 وأتى بدُررٍ فقيرٍ بثلها تحلى أجياد الآداب وتشنف الأسماع، وذلك
 مستهل محرم الحرام سنة ثمانين وتسعمائة، قوله:

« يَقْبَلُ الْأَرْضَ الْمُقْبَلَةَ بِشِفَاهِ الْمُقْلِ لَا بِشِفَاهِ الثُّغُورِ ، الضَّارِبَةِ
 سِرَادِقِ الْمَجْدِ فَوْقَ هَامَةِ النَّسْرَيْنِ^(٢) وَهَالَاتِ الْبَدُورِ ، السَّامِيَةِ بَهْرَامَ
 وَكِيَوَانَا ، السَّاحِبَةِ عَلَى فَرْقِ الْفَرْقَدَيْنِ أَذْيَالَا وَأُردَانَا ، الْمُتَخَذَةِ الْجُوزَاءِ لَهَا
 نَظَاقَا ، وَالثَّرِيَا شُنْفَا وَأَقْرَاطَا ، وَالنَّجُومِ قَلَائِدَ وَأَعْلَاقَا .

(١) العينية (بكر العين): الواسعة العينين مع شدة بياض بياضها وسواد سوادها.
 (٢) النسرين: هما النسر الطائر وهو مجموعة من النجوم معروفة بشابقتها للنسر، النجم ذو
 القدر الأول فيها هو الطائر، ثم النسر الواقع، وهو مجموعة من النجوم، النجم ذو القدر
 الأول فيها يسمى الواقع، وكلا النسرين في النصف الشمالي من الكرة الأرضية.

أَرْضاً أَوْدٌ يُهْدِي لَوْ كُنْتُ بِهَا تَرَابَ نَعْلِ الَّذِي لِلْقَلْبِ قَدْ شَاقَا
وَأَنَّ دَمْعَ عِيُونِي لَوْ رَشَشْتُ بِهِ رَحَابَ مَنْ أَوْدَعَ الْأَحْشَاءَ إِخْرَاقَا

وَيُنْهِي بَعْدَ رَفْعِ دُعَاكَ إِلَى حَضْرَاتِ الْقَبُولِ عُرُوجُهُ، وَفِي مَوَاطِنِ
مَوَاطِيءِ الْمَلَايِكَةِ دُخُولُهُ وَوُلُوجُهُ، وَبَيْتُ ثَنَاءِ خُطُوطِهِ الْخَارِجَةِ مِنْ نَقْطَةِ
دَائِرَةِ الْعِبَارَةِ مُسْتَقِيمَةً، وَحَفْظِ وَدَادٍ أَمَرَّتْ حِبَالَ عُقُودِهِ^(١)، فَلَيْسَتْ
بَوَاهِيَةٍ وَلَا رَمِيمَةً، وَصَدَقَ إِخَاءُ أَحْكَمَتِ أَوَاخِيهِ^(٢)، فَلَمْ تُفْصَمِ عَرَاهَا،
وَسَرَدَ أَنْبَاءُ سَارَةٍ مَا تَلَاهَى عَنْهَا لَمَّا تَلَاهَا:

تَوَلَّعَتِ الرِّكْبَانُ شَوْقًا بِذِكْرِهَا فَتَنْشِدُهَا فِي الْبَيْدِ عِنْدَ سُرَاهَا
وَتُخَذِّدُ بِهَا الْعَيْسُ الَّتِي مَضَاهَا الْوَنَى^(٣) فَتَغْدُو سِرَاعًا بَارْتِقَاصٍ خُطَاهَا

٢٠ ب وَوَصَفِ أَشْوَاقِ زِنَادِهَا لَهُ بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَرَى، وَعَضْبُهَا الْمَاضِي الشَّبَالَةَ
فِي أَدِيمِ الْقُلُوبِ شَقٌّ وَفَرَى، وَلَوْعَاتٍ وَفُودٍ هُمُومَهَا مُتَتَابِعَةً، وَزَفَرَاتٍ
تَضْيِيقِ الْأَنْفَاسُ فِي بِيدَائِهَا الْوَاسِعَةِ:

وَحَرَّ غَرَامٍ فِي الْقُلُوبِ ضِرَامُهُ يُوجِّجُ نَارًا بَيْنَ جَنَبَيَّ سَاطِعِهِ
وَفَيْضَ عَيُونٍ بِالْدُمُوعِ كَأَنَّهَا سَحَابٌ أَنْوَاءٌ مَدَى الدَّهْرِ هَامِعُهُ

وَشَكْوَى فِرَاقٍ تَمْنَتْهُ الْأَعْدَاءُ فَجَاءَ عَلَى وَفْقِ الْإِقْتِرَاحِ، وَعَدَمِ الْحَبِّ
مَعَهُ صَبْرًا لِفِرَاقِ خَلِيلِهِ مِنْ وَقْتِ رَاحٍ، قَدْ حَلَّ عُرَى التَّجَلُّدِ وَالْإِقْتِدَارِ،
وَدَارَ بِكَثُوسٍ مَنُونَةٍ الْمُرْتَعَةِ فَأَرْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ وَقْتِ دَارٍ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ

(١) أَمَرَّتِ الْحِبَالَ: أَحْكَمَ فَلَهَا.

(٢) الْأَوَاخِي: جَمْعُ أَخِيَّةٍ وَهِيَ عُرْوَةٌ مِنْ حَدِيدٍ تَتَبَثُّ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الْخَائِطِ وَتُرْبِطُ بِهَا
الدُّوَابُّ وَغَيْرُهَا.

(٣) الْوَنَى: الضَّعْفُ، وَفِي ج: السَّرَى.

وَرَجَلَهُ فَفَلَّ مِنَ الْإِصْطِبَارِ مِقَابِهِ^(١) وَكَتَائِبِهِ، وَرَشَقِ سِهَامٍ حَتَفٍ كُلُّهَا فِي
أَغْرَاضِ الْقُلُوبِ صَائِبَةٍ:

وَسَلَّ سَيْوفَ الْمَوْتِ تَذَمَّى غُرُوبُهَا وَصَيَّرَ رُوحَ الصَّبِّ بِالْفَتَكِ ذَاهِبَهُ
وَيَا لَيْتَهُ لَوْ مَنْ يَوْمًا بَعَثَهَا فَكَانَ يُرَى بِالْمَنِّ وَالْعَتَقِ ذَاهِبَهُ^(٢)

إن المملوك منذ استولى عليه من مولانا فراقه، وذاق صاب هجره
وبعده المرير مذاقه، ماخِيطَتْ جَفُونُهُ عَلَى سِنَةٍ مَعَ وَجُودِ إِبْرَاهِيمَ أَهْدَابِهِ،
وَلَا أَلْفَ جَنْبِهِ الْمُضْجَعِ مِنْذُ فَارَقَهُ ظِيُّ الْكُنَاسِ وَانْخَصَرَ مَعَ لَيْثٍ فِي
الْفِرَاقِ فِي غَابِهِ، وَلَيْسَ لَهُ فِي اللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ، مُسَامِرَ غَيْرِ النُّجُومِ
الْكُنُسِ، وَلَا فِي النَّهَارِ إِذَا أُسْفَرَ مَعَاشِرَ غَيْرِ تَمَثُّلِ شَخْصِ مَوْلَانَا وَخِيَالِهِ
الْمُسْتَحْضَرِ، قَدْ نَبَذَ الْأَخْدَانُ وَالْإِخْوَانَ ظَهْرِيًّا، وَهَزَّ إِلَيْهِ بِجَذَعِ نَحْلَةٍ
أ ٢٠. وَدَادَهُمْ فَتَسَاوَقَتْ عَلَيْهِ حَشَفًا بَالِيًّا، وَكَانَ يَجِدُ بِقَرَبِ مَوْلَانَا رُطْبًا
جَنِيًّا، وَتَطَلَّبَ أَخًا صَادِقًا وَخِلًّا مِثْلَ مَوْلَانَا سَرِيًّا، فَنَادَاهُ الزَّمَانُ لَقَدْ
حَاوَلْتَ مُحَالًا، وَجِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا، وَلَيَعْلَمُ سَيِّدُنَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ، وَبِمَزَايَا كَرَمِهِ
وَوَافِرِ نَعْمِهِ حَبَاهُ - أَنَّ الْمَمْلُوكَ قَائِمٌ بِأَوْرَادِ الدَّعَوَاتِ وَوِظَائِفِهَا، مُتَّبِعٌ
مَوَاطِنِ الْإِجَابَاتِ عَارِفٌ بِعَرَفَاتِ الْقُبُولِ وَمَوَاقِفِهَا، مَا أَخْصَرَ قَطْعٌ عَنْ
مَكَّةَ قَصْدِهِ، وَلَا طَافَ بِنُورِ تَقْصِيرِهِ مِنْذُ سَعَى إِلَى مَشَاعِرِ نَجْدِهِ، مُتَطَلِّبٌ
مِنَ اللَّهِ أَنْ يَتَّبَعَ سَمْعَهُ بِمَا حَصَلَ لِمَوْلَانَا فِي صَعُودِهِ مِنَ الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ،
مُسْتَكْشَفٌ مِنْ كُلِّ آتٍ عَنْ خَبَرِ سَائِرِ تُرْمِي بِهِ الْجَمْرَاتِ فِي قَلْبِ كُلِّ حَاسِدٍ

(١) المقاب جمع مقنب بكر الميم، وهي الجماعة من الفرسان والحبل دون المائة تجتمع للغارة.

(٢) ذاهبة أي صاحب هبة وهي النحلة أو العطية، وبين هذه الكلمة وبين سابقتها في آخر
البيت الأول جناس تام كما لا يخفى، وهو واضح كثير في القطعة كلها من مثل قوله: وفق
الاقتراح... من وقت راح، والاعتذار... وقت دار الخ.

قَصَّرَ عن المجد وما فاز بأمنيته، فكأنِّي بمولانا وقد طلع هلالُ قصده في
سماء النجج بدرًا، وآصَنُ ثَمَامُ بَعْدَهُ عَنَّا غَصْنًا يَقْلُ نَوَّارًا وَزَهْرًا^(١)،
وشفى بِكُحْلِ رُؤْيَيْهِ رَمَدَ عِيُونِ أَوْلِيَائِهِ، وَأَبْرَأُ بِدِرْيَاقِ قَرَبِ الْقُلُوبِ
السَّليمة من أَوْدَائِهِ، وَلِيَعْلَمَ - سَيِّدُنَا - أَنَّ الْمَلُوكَ اسْتَعْلَمَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ
من أَحْرَارٍ وَعَبِيدٍ، وَكُلَّ طَارِفٍ مِنْهُمْ وَتَلِيدٍ، فَإِذَا الْجَمِيعُ بِسَلَامَةٍ مِنْ اللَّهِ
وَخَيْرٍ، مَا أَخْنَى عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ وَلَا مَسَّهَمْ بَضِيرٌ، وَخُصُوصًا الْوَلَدَ الْعَزِيزَ
جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْعُيُونِ قُرَّةً، وَأَطْلَعَهُ فِي سَمَاءِ الْفَضَائِلِ بِدْرًا بَلَّ شَمْسًا، وَإِنْ
تَنَزَّلْنَا لِرْعَايَةِ السَّجْعِ زُهْرًا^(٢). وَلَمْ يَتَجَدَّدْ فِي الْبَلَدَةِ بَعْدَ مَوْلَانَا شَيْءٌ
تَشْنُفُهُ الْمَسَامِعُ، وَلَا حَادِثَةٌ تَتَدَاوَلُهَا الْأَلْسِنَةُ فِي صُدُورِ الْحَافِلِ وَالْحَاجِمِ،
حَتَّى نَعْلَمَ الْمَوْلَى بِهَا، وَنُوقِفَ^(٣) عَلَى كُنْهٍ حَقِيقَتِهَا وَسَبَبِهَا، وَقَدْ أَرْسَلَ
الْمَلُوكُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الْعَيْنِيَّةَ وَطَرَفُهَا مِنَ الْحَيَاءِ وَالْحَجَلِ غَضِيضٌ،
وَجَنَاحُهَا عَنْ مَطَارِ قَرِيضِ مَوْلَانَا فِي جَوِّ الْبَلَاغَةِ مَهِيضٌ، وَأَوْجُهَا
بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ فِي الْحُضِيضِ، وَالْعَذْرُ وَاضِحٌ فَإِنَّهَا مُذْ حَاولَتْ وَصْفَ مَوْلَانَا
وَقَعَتْ فِي الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ، فَلْيُغِضَ الْمَوْلَى طَرَفَ النِّقْدِ عَنْ عَيْبِهَا
وَيُغْضِي، وَلْيُسَبِّلْ عَلَيْهَا رِداءَ السَّترِ إِنْ رَأَى مِنْهَا مَا لَا يُرْضِي، وَهِيَ:
هَذي مَنَازِلُهُمْ عَلَيْهَا فَا رَبَّعْ وَاسْكَبْ دَمُوعَ الْعَيْنِ وَسَطَ الْأَرْبَعِ^(٤)

(١) آصَن: عاد ورجع، والثَّام: عشبٌ من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمترًا،

ويقل: يحمل ويرفع، ومنه الآية الكريمة: (حتى إذا أقلت سحابًا ثقالًا سقاه) ... الخ.

(٢) الزهرة هو الكوكب المعروف بهذا الاسم وهو كوكب شديد اللعان يدور حول الشمس بين عطارد والأرض.

(٣) الأصح أن يقول: نقضه فالفعل المعتل الأول يحذف أوله مع حرف المضارعة مثل وعد

يعد.

(٤) أربع: أمكت وانتظر، والأربع جمع ربع وهو الدار.

واحبس على تلك المعالم فتية
متهافتين على الرجال كأنهم
والثم بجفئك تُربها واشتمه
واقض المعالم حقها من وقفة
ولئن وقفت فما أراي ناظراً
فيمعلم في سفح جلتى محنتي
ما آرتعت قط لحادث أو واقع
مثل ارتياعي يوم سار خليطهم
لله كم لي بعدهم من عبرة
أسني يزيد ولوعتي ما تنقضي
وكذاك قلبي لم أكن لما سرى
أضحى وأسي ليس لي شغل سوى
فسمحت من دمعي بذر أبيض
لم يدر جنباي المهاد كأنها
وغدوت من يوم الفراق وليس لي
ما لي وهذا الدهر جرّني الأسى
قد قال لي سيّان بعد فراقهم
لا ذنب عندي للزمان مكفراً

شربوا بكاس من سَراهم مُترع
أشباه قوم في صلاة رُكّع
فترابها كالغبر المتضوع
سنت بجذ الصب فرض المذمّع^(١)
تلك الرسوم لفرط سحي أدمي
لا بالعقيق ولا النقا والأجرع
من صَرف دهر بالخطوب مُروّع
وبقيت فرداً في الطلول الخُشّع
أزكت لهيب النار بين الأضلع
إذ لم أكن لأحبّتي بمودّع
سحراً له في إثرهم بمشيّع
سكب الدموع ومُقلّة لم تهجع
حتى بدا مرّجان تلك الادمع
شوك القتاد لبُعدهم في مضجعي
عقل يفيق وليس لي قلب يمي
يوم النوى عمداً ورثق مشرعي^(٢)
ورحيلهم أجزّعت أم لم تجزّع
ما لم يجذ بعد النوى بتجمّع

(١) سنت بجذ الصب: أي أحدث فيه، والفرض: الحز في المود وغيره، ويقال أيضاً: سنت العين الدمع: صبه صبا سهلاً، والشاعر هنا يتعمل مصطلحات الفقه استعمالاً لطيفاً.

(٢) رثق: الماء: كدره، والمشرع: مورد الماء الذي يستقى منه بلا رشاء كالجدول والنهر وما أشبه ذلك.

وأرى خدين الوُدِّ دَرُوشاً ومن
 الكاملُ الفردُ الرفيعُ جنابُه
 الفاضلُ النّطسُ الألدُّ تجادلاً
 عذبُ الحديثِ كأنَّ مُعربَ لفظِه
 المحرّزُ القصّباتِ يومَ رهاّنة
 عزمٌ لمتقّد السّعرِ ضرامُه
 همٌّ له تركت حضيضاً سافلاً
 قلّمٌ له فيه المنون مع المنى
 سقيّ المداؤ فمَجَّةٌ في طرسه
 يأتي بأنواع الغرائب إنْ مشى
 قد قلت للسّاعي ليدرك شأوه
 خفّف عليك فدونَ ما قد رُمّته
 فالجدُّ مثل الملك يحمي دائماً
 كم عَقْدُ درٍّ منه قلّدَ فضلُه
 أشكو إليه وَخْشَةً من بُغده
 ومراتعي من بعده قد صَوّحتُ

سَنَ الوفاء على قويم المهيح
 فوق المجرّة والبدور الطلّع
 في يومٍ بحث مَع صُدور مُجمّع
 لحنُ الغريّضِ وصدحُ وُزقِ سُجّع^(١)
 بجياد عزم في المجال الأوسع
 يسري ويهزأ بالبروق اللُّمّع
 وسَمَتِ إلى أوج السّمّك الأرفع
 في حالتيه موقِعٍ وموقِعٍ
 أرياً^(٢) وآونة كَسَمٍ مُنقَعٍ
 فوق الطروس وكل أمر مُبدع
 أين الهجانُ من الهجين الأظْلَعِ^(٣)
 وقعُ الصوارم والقنا المتزعزع
 بمدجج يوم الوغى ومدّرع
 جيدي وشَنَفَ بالفوائد مسمعي
 مذ فارق الغادي وأوحش موضعي
 والغيث أقسم لا يَلُمّ بربعي

(١) القريض: سبق الحديث عنه.

(٢) الأري: عسل النحل.

(٣) الهجان من الأشياء: أجودها وأكرمها أصولاً، والهجان من الإبل: البيض الكرام، ويقال: رجل هجان: كريم الحسب نقيه، وامرأة هجان: عقيلة قومها، أما الهجين فهو غير الخالص النسب فهو من الخيل ما كان من برذونة وأب عربي، ومن الناس ما كان أبوه عربياً وأمه أعجمية.

وهجرت إخوان الزمان فلم أجد
كم مظهر ودّاً خبِرْتُ وداده
فكففتُ عنه غرب مُرهفٍ يَقُولِي (١)
أفبعد خلٌّ غاب عني بذرة
من كان يقنعُ بالتبدّل في الهدى
واللهُ يجمع عن قريب شملنا
ويعيده في نعمة مشفوعة
ما بشرت رُسُلُ التهاني مُفرماً
منهم أخا ثقة ولا عضداً معي
فوجدته مثل السراب يبلقع
وإذا تكلّم مسمعاً لم أسمع
أرضى بنَجْمٍ بل بليلٍ أنفع
فأنا بغير أحبّتي لم أقنع
معَ وصل أنسٍ حبله لم يُقطع
ببلوغ ما يرجو بغير تمنع
عن جيرة شطّت بقرب المرجع

قصيدة لجناب المولى أبي السعود

وما اتَّفَق لي نظمه وأنا بالديار الرُّومية قسطنطينية المحمية - لا
زالت ساحتها، مقر الخلافة مصونة باحتها، عن كل وصمة وآفة، سنة
٩٨٠ ما كتبت به بإشارة بعض الإخوان إلى شيخ إسلامها، وعَلَّامة
علمائها، المولى أبي السعود (٢)، معدن الفضائل والفواضل والجود، شيخ

(١) الغرب: القاطع الحاد.

(٢) هو محمد بن محمد بن مصطفى المهادي، المعروف بالمولى أبي السعود، صاحب التفسير
المعروف باسمه، وقد سماه هو «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». ولد بقرب
القسطنطينية عام ٨٩٨ هـ، ودرس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية
فالروم ايلي، وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢ هـ.

وكان حاضر الذهن سريع البديهة، كتب الجواب مراراً في يوم واحد على ألف رقعة
باللغات العربية والفارسية والتركية تبعاً لما يكتبه السائل، وكان مهيباً حظياً لدى السلطان،
توفي عام ٩٨٢ هـ.

انظر خلاصة الأثر ١٨٩/٤، وريحانة الألباء ٧٧/٢، وشذرات الذهب ٣٩٨/٨.

تلك الديار على الإطلاق، ومُفني الفرق الإسلامية في جميع الآفاق بالاستحقاق، قولي:

يا رَبِّعَ رامةَ مَرَبَعِ الآرامِ	درستَ معالِه على الأيامِ
ما آضَ طرفُ اللحظِ فيكَ مُسلِّماً	إلا وفاضتَ مهجتي بسلام
هل وقفةٌ بعراضِهِ أَشفي بها	من حُبِّ ساكنه غليلَ أوامي
رَبِّعُ أَذْلَتْ ^(١) به مصونَ مدايمي	وأطلتُ فيه تَوَلُّمي وقيامي
لم تُبقِ نازلةَ النَّوى منه سوى	طَلَّلَ على حُكْمِ الزمانِ رِمَامِ
نُؤْيٍ يَمْنَعُطِفِ الدِّيارِ ورسمها	يبدو كما انعطفتُ حنيَّةَ رامي ^(٢)
وثلاثِ جاراتِ أَقمنِ بساحه	سُفَعِ الوجوهِ كرائماتِ حَمَامِ ^(٣)
ولقد حبستُ على الديارِ عَصَابَةَ	حَنَتِ الضُّلوعَ على جَوَى وضِرامِ
متهافتينِ على الرِّحالِ كفتيةِ	خَرُّوا سجوداً بعد طُولِ قيامِ
شربتِ بكَاساتِ السُّرى خمرَ الكرى	حتى اغتدتُ صَرَغِي بغيرِ مُدامِ
طَلَّلُ وقفتُ على رباهِ نائحاً	غَرَبَ المدامِ ^(٤) مثلَ فيضِ غَنامِ
ولهانَ أَشدُّ في معاهدِ رسمه	عهدَ الشبابِ مضى كطيفِ مقامِ

(١) أَذْلَتْ: أي أَذَلَّتْ فحذفت إحدى اللامين، وهو حذف جائز، ومثله قوله تعالى: «وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً» أي ظَلَلْتُ، وقوله جل ذكره: «فظلمت به تفكهون» أي فظَلَلْتُمْ.

(٢) النُؤْي: مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يقيها الليل، والحنية: القوس.

(٣) ثلاث جارات: يعني بهن أثنائي القدر، وهي ثلاث حجارة كانت تلتقط وتشعل بينها النار ثم يوضع عليها القدر، وسفع الوجوه أي سود الوجوه، والرائحات: الحانيات على أولادها، وهو شبه أثنائي القدر في اجتماعها وقربها من بعضها البعض بجاهات سود تر أم أولادها وتحنو عليها.

(٤) غَرَب المدام: ميلها.

يا مُذكري زمن الصبابة والصبا
وكستك من خلع الشباب ورقه
قد كنت مألَف كلِّ ريم أهيف
من كل مُخطَفة الحشا كأخي الرشا
رُعْبوبة سَقَيْتُ مياه شبيبة
بدرٌ بليل الشعر مها أسفرت
قالتُ وقد نثرت فريد مدامع
والبينُ زُمَّتُ للرحيل ركابه
ليت الذي خلق النوى جعل الحصى
فأجبتُها لما سمعتُ مقالها
لا تجزعي مما دهاك فرما
وإلى جناب أبي السعود وربعه
بجناب أفضل عالم وطيء الثرى
خير امرئ لم تشبه آراؤه
بذراه يُلقَى الجودُ ملقٍ رَحْلَه
علم الهدى بحر الندى مولى الجدَا
من لم تزل أعتابه لذوي النهى
مولى إذا يمت ساحة جوده
بل إن تَمَّتْ إلى ذراه بنسبة

ذكرتك ذكرى هاطلات رهام
خَلَعاً تروق لناظر مُستام^(١)
يهفو إليك وربّع كل غرام
للحاظها في القلب وقع سهام
فغدت كزهر الروض غب سجام
فيه أرتك الشمس جنح ظلام
في خدّها كفريد عقد نظام
ويدُ النوى تعطو بفضل زمام
بخفافهنّ مفاصلي وعظامي
والدمعُ من حَذَرِ التفرُّق هام
جُعل الترحُّل وصلة لمقام
نُصِّي الركائب تظفري بمرام^(٢)
في ذا الورى أوفاهمُ بزمان
عند اشتباه البید والأعلام^(٣)
والمجدُ لا بأباطيح وأكام
طُولَ المدى لذويه خير إمام
حرم النوال وكعبة الإكرام
أولاك من نعم لديه جسام
هذي أُمِنْتَ إذاً من الإعدام

(١) رقة: رفته ونضارته، والمستام: الذي يطلب شراء السلعة ويرغب فيها.

(٢) نص الركائب: استحشا للجري.

(٣) الأعلام: جمع علم، وهو ما ينصب في الطريق ليهتدى به.

أَسْرَتْ^(١) له الآفاقُ عِزْمَةً هُمَّةٌ
واحتاطَ هذا الدينُ منه بصارمٌ
وَرَسَاً له طوداً تقاعسَ دُونَهُ
يَأْوِي إليه الحلمُ معتصماً إذا
عَفَا الإِزارُ يَجِرُّ أَذْيَالُ التَّقَى
لا تَطْبِيه^(٢) مَظَامِعُ الدُّنْيَا ولو
مولايَ يا ركنَ الهدايةِ والهدى
لا تُغِيبُ الأنواءَ رَبَّنْعَكَ إِنَّهُ
وإلى جِهاكِ الرَّحْبِ وافتِ غَادَةً
قصدتكِ من عُلْيَا دِمَشْقَ رَجَاءً أَنْ
لا زِلْتَ محروسَ الجَنَابِ بدولةٍ
ما حَنَّ للوطنِ الغريبِ وما شَدَتْ

ضربتُ رُواقَ المجدِ فوقَ الهامِ
ماضي الشبا كالصَّارمِ الصمصامِ
هَضَبَاتُ رُضْوَى من ذراها السامي
طارَتْ رِياحُ الطيشِ بالأحلامِ
والدينِ لا بتَغَطُّوفٍ وعُرامِ
بسمتُ له عن ثغرها البِسامِ
ومن اغتدى للدينِ خيرَ قِوامِ
حصنٌ لنا من حادثِ الأيامِ
بِسامَةٌ تُزْهِي كِبَرَ تَمَامِ
تَحْظَى بِبِرِّكَ يا أْبَرَّ هُمامِ
تسمو مَدَى الأيامِ والأعوامِ
وَرُزْقُ الحِمامِ على فروعِ بَشَامِ^(٣)

وقصيدة إلى جناب المولى أم ولد زاده

ومما اتفق لي أيضاً وأنا بالروم في التاريخ المذكور، ما نظمته بإشارة
الأخ الأفضل، والبارع الأكمل، بل صديقي وحميمي، تقي الدين

(١) أسرت: شدت وقوت.

(٢) تطبيه: تحرره وتملك له، فالطب هو معالجة المرض، وهو الحر أيضاً.

(٣) البشام جمع بشامة وهي شجرة طيبة الرائحة والطعم يتاك بها.

المقدسي التميمي^(١)، إلى جناب المولى علي أفندي الشهير بأم ولد زاده^(٢)، زاد الله من الأدب والفضائل زاده، وقد ولي قضاء حلب، قولي:

سَقَى عَهْدَ الصَّبَا عَهْدُ الْوَلِيِّ رَوَى وَحَبَا حِبَاهُ ذُو حَبِيٍّ^(٣)
وَحَصَّ دُونِ مَنْزِلِهِ مَحَلًّا حَلَلْتُ ذِرَاهُ فِي عَيْشِ رَخِيٍّ
وَأَلْبَسَهُ الزَّمَانُ قَشِيبَ بُرْدٍ وَشَنَّهُ يَدُ الْغَنَائِمِ سِنْدِسِيٍّ
وَعَرَدَتْ الْحَمَائِمُ فِي رُبَاهِ بَلَحْنِ يَبْعَثُ الشُّكُوى شَجِيٍّ
فِيَا لَهِ كَمْ غَازَلْتُ فِيهِ غَزَالَ نَقَاً لَطَرَفِ أَحُورِيٍّ
وَجُودُورٍ رَمْلَةٍ يَسِي لِحَاطَا لِحَاطِ مَهَا الصَّرِيمِ بِحَسَنِ زِيٍّ

(١) تقي الدين بن عبد القادر التميمي الفزري المصري الحنفي، عالم أديب، كثير التأليف جم الفائدة.

ولد سنة ٩٥٠ هـ، وجال في البلاد ودخل القسطنطينية فأخذ عنه علماء كثيرون. تولى القضاء بالجيزة وتوابعها (ولم يكن سعيداً به)، واشتغل بالتأليف ومن أهم مؤلفاته كتاب (الطبقات السنية في تراجم الحنفية) ولا كان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة الرسمي آنذاك فقد جمع فيه جملة من علماء الروم وعظماؤها وأكابر سرائرها ورؤسائها فجاء من أوسع الكتب في هذا الباب، وقد صدر جزؤه الأول منذ فترة بتحقيق عبد الفتاح محمد الحلوة. وله من المؤلفات غير ذلك: حاشية على شرح الألفية لابن مالك، والسيف البراق في عنق الولد العاق، ومختصر بتيمة الدهر للثعالبي، وله نظم ونثر.

توفي التميمي سنة ١٠١٠ هـ.

انظر خلاصة الأثر ٤٧٩/١، رجانة الألبا ٢٧/٢.

(٢) هو علي بن عبد العزيز بن حسام بن حامد المعروف بابن أم ولد زاده الرومي، من القضاة ولي القضاء بحلب، وتوفي بها سنة ٩٨٠ هـ.

من مؤلفاته: الرسالة الشعبية، ورسالة الامتحان، والرسالة السيفية.

انظر هدية العارفين ٧٤٨/١.

(٣) عهد الولي: المطر المتتابع، والحبي: السحاب.

يُجَلِّي عن سنا قمر سَنِي
رَخِيمٌ دَلُّهُ خَفَرَ الْمُحْيَا
تَصُولُ صَوَارِمُ الْأَحَاطِ مِنْهُ
حَوَى فِي ثَغْرِهِ الْمَعُولَ رَاحَاً
حَلَّتْ بِفَمِ الْمُعْنَى مِثْلَ مَا قَدْ
إِمَامٌ فِي الْفَضَائِلِ أَوْحَدِيٌّ
أَرِيْبٌ مَاجِدٍ شَهْمٌ أَيْ
لَهُ مَجْدٌ رَفِيعُ الْقَدْرِ يَرْنُو
وَخُلِقَ مِثْلُ زَهْرِ الرُّوْضِ يَزْكُو
وَكَفَّ كَالسَّحَابِ تَجُودَ سَحَاً
بَنَى لِبْنِي الدُّنَا بُنْيَانِ مَجْدٍ
وَشَيْدٌ لِلْعُلَى أَرْكَانُ فَخْرٍ
بِعِزِّهِ فِي الْأَوَامِرِ مَاضِيٌّ
فِيَا اللَّهَ كَمْ جَادَتْ يَدَاهُ
تَصَدَّرَ لِلنَّدَى بِحَرّاً وَمِنْ ذَا
وَنَوَّلَ مِنْ عُلُومِ الْعَقْلِ مَا لَمْ
وَأَحْيَا مِنْ عُلُومِ الدِّينِ مَا قَدْ
فِيَا مَوْلَى لَهُ رُتَبٌ تَسَامَتْ
وَيَا حَرَمَ النَّدَى يَا رُكْنَ فَضْلِي
وَيَا خَيْرَ أَمْرٍ أَمَتْ إِلَيْهِ
إِلَى عَلِيَا حِمَاكَ الرَّحْبَ وَافَتْ
وَدُونِكَ قَدْ تَبَدَّتْ فَاجْتَلِيَهَا

وَيُجَلِّي عن لَمَى خَصِرِ شَهِيٍّ
يَرُوقُ بِحَمْنِ مَرَاةِ الْبَهِيِّ
فَتُضْمِي مَهْجَةَ الْبَطْلِ الْكَمِيِّ
لَهَا فِعْلٌ كَفَعَلَ الْبَابِلِيِّ
حَلَّتْ حَلَبٌ بِذِي قَدْرِ عَلِيٍّ
هَامٌ فِي الْمَكَارِمِ أُرْجِيٍّ
مَهِيْبٌ بِاسِلٍ قَرَمٍ سَرِيٍّ
إِلَى الْجُوزَاءِ وَالْفَلَكَ الْقَصِيٍّ
شَذَاهُ عَلَى شَذَا الْمَسْكِ الذَّكِيِّ
عَلَى الْعَافِي بِشُؤْبِ رَوِيٍّ
أَوْتٌ مِنْهُ إِلَى رُكْنٍ قَوِيٍّ
رَسَتْ فِي الْمَجْدِ كَالطُّودِ الْعَلِيِّ
وَحَزَمَ طَارَ عَنْ زَنْدٍ وَرِيٍّ
عَلَى رَاجِي نَدَاهُ بِصُوبِ رِيٍّ
رَأَى بِحَرّاً تَصْدَرَ فِي نَدِيٍّ
يَنْلَهُ سِوَاهُ بِالْفَكْرِ الْجَلِيِّ
أَمَاتَ الْجَهْلَ فِي الزَّمَنِ الْخَلِيِّ
عَلَى الشُّغْرَى بِوُدْدِهَا السَّنِيِّ
وَيَا قَمَرَ النَّدَامِي وَالنَّدِيٍّ
مَطَايَا الْعِزِّ مِنْ بِلَدِ قَصِيٍّ
مَهْنَةً بِمَنْصِبِكَ الْهَنِيِّ
عُرُوسُ حُلَى تَهَادَى بِالْحُلِيِّ

ومُوشى بُرْذها الفضفاض يُنمي
 فتى الآداب من زمن التَّصَاي
 غريبٌ في ديار الروم أُمى
 يحنُّ إلى دمشق وساكنيها
 إذا ناحَتْ على إلفِ تراه
 وقد وافى جنابك يا إماماً
 فهل لك يا عليّ القدر يوماً
 بقيتَ بنعمة تنمى وعيش
 ولا تُغيبُ لك الأنواء رُبْعاً
 مدى الأيام ما حنَّ اشتياقاً
 وزمزمَتِ الحُدَاة بذكرِ سَلْمى
 إلى كرم النجار الطَّالويّ
 يعانِيها بفهم أخوذيّ
 يعاني سَوْرَة الزمن الأبى
 حينَ حاميةِ بفنا أشي
 ياجلُها بدمعه السخيّ
 ولم يعدل عن النهج السويّ
 لمن والاك من عهد وفيّ
 ثوثٌ بظلاله التَّعْمى هنيّ
 رواءً بالفِـدَاة وبالْعشيّ
 غَريبٌ إلى الوطن الرخيّ
 وغنَّت في الحمى شوقاً لمي

قصيدة إلى النعيمي في طلب حاشية المواقف

وما اتفق لي أيضاً بالروم في ذلك التاريخ، ما كتبت به للخطيب
 شهاب الدين النُّعيمي، وقد ابتاع أحد أولاده حاشية المواقف للفاضل
 الشهير بخواجه زادة البرُسوي^(١) وأنا على جناح سفر ارتجالاً، فكان

(١) هو مصطفى بن يوسف بن صالح البرسوي الحنفي، المعروف بخواجه زاده، عالم حكيم،
 جملة السلطان محمد بن مراد معلماً لنفسه، وعينه قاضياً للمسكر، ووجه تدرين سلطانية
 بروسة ومدرسة السلطان محمد بالقسطنطينية، ثم ولي قضاء مدينة أدرنه ومدينة اريقق
 وتدريسها، وتوفي بمدينة بروسة سنة ٨٩٣ هـ.

استخلاصها محلاً، وصورة ذلك، قولي:

مولاي يا بحر الندى	يا ذا الأيادي الوافيه
يا خير خير عالم	آراؤه لي كافييه
وشهاب فضل ثاقب	حلّ المجرة ساميه
ومن اغتدت أنواره	لذوي الضلالة هادييه
وافتك مني قطعة	كالروض علّ بسارييه
فتفتحت أنواره	كخلائق لك زاكيه
وأفتت من الملوك تنحو	نحو بابك جارييه
تبغى رضاك وحسبها	منك الرضا والعافيه
وتروم نجح القصد في	أمر أتته راجيه
وتراه شيئاً هيناً	يا ذا العطايا الفاشيه
هو أن سيدنا الذي	حاز العلوم السامييه
النجل من فرع العلاء	من الأصول الزاكييه
من دوحه عرييه	لسموها متساميه
وافى لسوق الكتب من	بعد الصلاة الثانييه
وابتاع من لطيف على	شرح المواقف حاشيه

= له من المؤلفات، حاشية على شرح المواقف لعبد الدين الإيجي لم تكمل، (وهي التي أشار إليها المؤلف)، وحاشية على شرح التنقيح للتفتازاني في الأصول، وحاشية على شرح هداية الحكمة، وغير ذلك.

انظر شذرات الذهب ٣٥٤/٧، والبدر الطالع ٣٠٦/٢ - ٣٠٨.

عَصْرِ الصُّبَا ومراديه	هي بُغْيَةُ المملوك من
منه برقّة حاشيه	فعى أعامل سيدي
في ساعة أو ثانيه	خُذَهَا إِلَيْكَ ونظمها
ومرّة متادييه	لا زلتما في نعمّة
فن الرياض الزاهيه	ما ناح قُفْرِيٌّ على
بعد الديار النائيه	وصبا الغريب إلى الحمى

من المطارحات بينه وبين ابن العجمي

ومن جملة المطارحات ما كتب به إليّ الأخ الفاضل، الألميُّ الأديب الكامل، أعزُّ إخوان الصفا؛ وأبرُّ خلّانِ الوفا، الشيخ مصطفى الشهر باين العجمي الحلبي^(١) نزيل دمشق الحمية، وأرسل بها إليّ من الديار الحلبّية، ويُبدى ما يكابده من الغرام؛ لبعض سانحة آرام^(٢) دمشق

(١) هو أبو الصفاء مصطفى بن محمد العجمي الحلبي الدمشقي الشافعي. كانت له معرفة بالفرائض والحساب ومشاركة في عدة فنون، وله شعر لطيف. توفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة.

انظر ريحانة الألبا ١/١٤٥، الكواكب السائرة ٣/٢٠٧.

(٢) سانحة آرام: السانح هو ما انطلق عن يمينك من طائر أو حيوان، وكانت العرب تتفاءل به، والآرام جمع ريم وهو الغزال، ويشبه به المحبوب عادة. وهذا القصيدة التالية أوردها الشهاب الحفاجي في الريحانة، ولكنه ذكر أن ابن العجمي قالها تشوقاً إلى أصدقائه في دمشق، وليس تلهفاً إلى حبيب كما ذكر المؤلف، انظر الريحانة ١/١٤٧.

الشام، وقد عَلِقَ هواه بقلبه، واستولى منه على شفاف لُبِّه، وذلك في بَعام

: ٩٧٧

يُقَبِّلُ الأرضَ صَبًّا مُغْرَمًا عَلِقَا
حِلْفُ الصَّبَابَةِ أَمَّا قَلْبُهُ فَشَجِرٌ
يَشْتَاكُمُ كُلَّمَا هَبَّتْ يَمَانِيَّةٌ
بِهِ مِنَ الْبَيْنِ مَا لَوْ حَلَّ أَهْوَنُهُ (٢)
يَا هَلْ تَعُودُ أَوْيَقَاتُ بَكُمُ سَلَفَتُ (٣)
مَتِيٍّ أَضْرَمْتُ مَا بَيْنَ أَضْلَعِهِ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا إِنَّ عَنْ ذِكْرِكُمْ
وَلَا تَغْنَتْ عَلَى غَصَنِ مَطْوِقَةٍ
لَيْتَ الزَّمَانَ الَّذِي أَبْدَى مُعَانِدَتِي
كَفَى اكْتِثَابًا بَأْنِي بَعْدَ بُعْدِكُمْ
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْآمَالُ مَطْمِئِنَةٌ
هَلْ لِي إِلَى عَوْدِ أَوْقَاتٍ بَكُمُ سَلَفَتُ
لِلَّهِ أَيَّامُنَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ
وَإِذْ بَكُمُ كَانَ عِشْيَ أَخْضَرًا نَضِيرًا
بَكُمُ وَذَلِكَ مِنْ تَكْوِينِهِ عَلِقَا
مِنَ الْفِرَاقِ وَأَمَّا جِسْمُهُ فَلَقَى (١)
وَلَا مَحَالَةَ أَنْ يَشْتَاقَ مِنْ عَشِيقَا
يَوْمًا بِمَعْظَمِ رَضْوَى هُدًى أَوْ طَفِيقَا
دَمُوعِهِ خَدَّدَتْ فِي خَدِّهِ طُرْقَا
نَارُ الْغَرَامِ فَلَوْلَا دَمْعُهُ احْتَرَقَا
إِلَّا تَنَاقَرُ دُرُّ الدَّمْعِ وَاسْتَبَقَا
إِلَّا أَهَاجَتُ لِي الْأَشْجَانُ وَالْأَرْقَا
حَتَّى بَعُدْتُ عَنِ الْأَحْبَابِ قَدِ رَفَقَا
أَكَابِدُ الْهَمَّ وَالْأَسْقَامَ وَالْحُرْقَا
وَالدَّهْرُ فِي عَكْسِ مَا يَهْوَى الْفَقَى خَلَقَا
رَجَى فَأَظْفَرَ بِاسْتِجَاعٍ مَا افْتَرَقَا (٤)
أَيَّامَ لَا فَرْقَةَ أَخْشَى وَلَا فَرَقَا
وَأَسْوَدُ اللَّيْلِ مَعَكُمْ أَيْضًا يَقَقَا

(١) اللقى: ما طرح جانباً.

(٢) في الرجاء: أيسره.

(٣) في الرجاء: لفتي.

(٤) في الرجاء: فأظفر أحياناً.

يا صاحبي فلا رُوِّعْنا بنوَي
إن جئنا الجامع الزَّاهي برونقه
ميمين له عُوْجًا كذا كَرَمًا
فبَلِّغْنا لي سلامي ^(١) من مَحَبَّتِهِ
وخبرَاهُ بما ألقى بعيشكما
أَنِّي له ذلك المُضني الشوق ^(٢) كما
لا سِيَّما الأروغُ المحمودُ سيدنا
الشهمُ درويشُ الغراء طلعُته
رَبُّ الفصاحة لا بل حازَ غايَتها
طوراً تراه بكأس الحمد مصطبِحاً
كذا محمد الدرويش سيدنا
يا غائبين فلا عهدِي بمنتقض
سَرَى لكم سلامي الجمُّ أغطُرُهُ
تحدوه ريح الصَّبَا وهناً لأرضكم

وعنكما ظلَّ جفنُ الدهر منطبقاً
سقاءهُ من غاديات السُّحب ما غَدَقَا
لِنَحْتِ قُبَيْهِ الشَّهْء وانطلقا
لم تُبق لي منذ حَلَّتْ مهجتي رَمَقَا
من فرط لاعجِ أشجان أَّتْ نَسَقَا
اشتاق صحبي إخوان الصفا خلُقَا
المسكُ اللُّن تبياناً إذا نطقا
من فاق فضلاً به على السَّك رقى
من ذا يجاريه في ميدانها طَلَقَا ^(٣)
وتارة من سُلَاف الجود مغتبقا
مَنْ زَيْن اللطف والآداب منه تقى ^(٤)
منكم ولا حبلُ ودِّي واهياً خَلِقَا
ما حنَّ ناءُ مشوق قلبه للقاء ^(٥)
يُزرى شذاهُ برياً المسك إن عبقا

(١) في الرِّجْانة: سلاماً.

(٢) في الرِّجْانة: المغني الشوق، وهي معرفة عن المضنى كما لا يخفى.

(٣) هذا البيت والذي قبله لم يردا في الرِّجْانة.

(٤) ولم يرد هذا البيت أيضاً في الرِّجْانة.

(٥) وكذلك هذا البيت.

قصيدة المؤلف في الرد عليه

فأنفذتُ إليه من دمشق الشام بهذه القصيدة الغراء جوابها، فكانت عنده من حُسَانَةِ أترابها، وهي قولي:

وافتْ فأرَجَّتِ الأرجاء والأفقا	أمنيَّةٌ من شذاها قُطِرْنَا عبقاً
وافتْ كأن الصَّبَا باتت تعلُّها	بالشَّخْرِ بين رياضٍ طلُعها بَسَدٌ ^(١)
أو نفحة من رُبَى دارين عاطرةٌ	أهدتْ لها أرجاً جَنَحَ الدجى غَسَقاً ^(٢)
هيفاء تزهُو بقَدِّ زانه هَيْفٌ	كخطوبانٍ غضيضٍ مثمر بَنَفاً ^(٣)
ترنُو إليَّ بطَرْفٍ كُلُّهُ حَوَرٌ	مهما انبرتْ لفؤادٍ هام أو عَشيقاً
لو شاهد ابنُ عُنَيْنٍ ^(٤) حسنَ طلعتها	لأذكرته زماناً يبعثُ الحُرْقاً
يا حسنها حين زارتنا مُحَبَّرَةً	قد نُظِمَ الدُّرُّ في لبَّاتها نَسَقاً

(١) الشجر بفتح الثين، بطن الوادي أو مجرى الماء، وفي الريحانة: بالحر.

(٢) الفسق: ظلمة الليل، وفي الريحانة: عبقاً وهي كلمة وردت قافية في البيت الأول أي قل هذا البيت بيت واحد، وهو ما لا يجوز عند العروضيين، إذ لا يجوز عندهم تكرار لفظ القافية بلفظه ومعناه إلا بعد ثلاثة أبيات أخرى من القصيدة.

(٣) النقا: الكتيب من الرمل.

(٤) هو محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن بن عنين، أبو الحسن شرف الدين الدمشقي الأنصاري.

كان أعظم شعراء عصره، وبدأ بالهجاء فلم يلب أحد من شره في دمشق، حتى السلطان صلاح الدين فنفاه، فذهب إلى العراق والجزيرة وخراسان والهند واليمن ومصر، ثم عاد إلى دمشق بعد وفاة السلطان صلاح الدين، فمدح خليفته الملك العادل وتقرّب منه. وتولى الوزارة للملك المعظم بدمشق ثم للملك الناصر، ثم انفصل عنها أيام الملك الأشرف، ولزم بيته حتى توفي عام ٦٣٠ هـ.

أَوْ انْبَرْتُ لِحَبِيبٍ^(١) وَهُوَ ذُو لَسَنِ
أَهْدَتْ نَحْيَةً وَدٌّ مِنْ أَخِي ثَقِيَّةٍ
لَا غَرَوُ أَنِّي مَشُوقٌ فِي الْأَنَامِ لَهُ
أَشْتَاقُ طَلْعَتَهُ^(٢) الْفَرَاءُ مَا طَلَعْتُ
وَكَلِمًا سَحَرًا هَبَّتْ شَامِيَّةٌ
أَحْبَابُنَا وَالَّذِي أَرْجُوهُ مَبْتَهَلًا
مَا إِنْ تَذَكَّرْتُ مَغْنَى رَاقٍ لِي بِكُمْ
وَلَا شَدَّتْ بَرِيَاضُ الْغُوطَتَيْنِ ضَحَى
إِلَّا وَغَاضَ اصْطَبَارِي أَوْ وَهَى جَلْدِي
سُقِيَا لِأَيَامِنَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعُ
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ رَائِقٌ بِهِجٌ
نَلْهُوً بِكُلِّ كَحِيلِ الطَّرَفِ سَاحِرِهِ

أُزِرْتُ بِهِ وَكَذَا سَحْبَانُ إِنْ نَطَقَا
يُزِرِي شَذَاهَا بَرِيًّا الْمَسْكُ إِذْ فَتَقَا^(٣)
فَالْحُرُّ يَشْتَاقُ إِخْوَانَ الصَّبَا خُلُقًا
شَمْسُ النَّهَارِ وَأَبْدَى صَبْحِهِ شَفَقًا
بَسْفَحَ جَلَقٌ أَوْ بَرَقَ الْحَمَى خَفَقًا^(٤)
بَأَنْ يَمُنَّ عَلَى مُضْنَاكُمْ بَلَقًا
إِلَّا وَرَحْتُ بِدَمْعِي جَازِعًا شَرَقًا
وَرَقَاءُ تَنْدُبُ إِلْفًا نَازِحًا شَفَقًا
وَفَاضَ مِنْ مُقْلَتِي الدَّمْعُ وَانْطَلَقَا
وَالضَّدُّ مَنْصَدَعٌ لَا نَحْتَشِي فَرَقًا
وَالدَّهْرُ قَدْ غَضَّ عَنَا الْجَفْنَ مَنْطَبِقًا^(٥)
يُزِرِي بِغَزْلَانِ عُفْنَانٍ إِذَا رَفَقَا^(٦)

= وَكَانَ ابْنُ عَنِينَ يُوَصِّفُ بِأَنَّهُ أَمْلَحُ أَهْلِ زَمَانِهِ شِعْرًا، وَأَحْلَاهُمْ قَوْلًا، ظَرِيفَ الْعَثَرَةِ، ضَحُوكَ السِّنِّ، طَيِّبَ الْأَخْلَاقِ، مُقْبُولَ الشَّخْصِ، مِنْ مَحَاسِنِ الزَّمَانِ، لَهُ دِيْوَانُ شِعْرِ، طَبْعُهُ يَجْمَعُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ فِي دِمَشْقَ.

انظر وفيات الأعيان، معجم الأدياء ١٢١/٧، النجوم الزاهرة ٢٩٣/٦.

(١) يعني به حبيب بن أوس الطائي، أبا تمام.

(٢) فتق المسك: خلط به ما يذكي رائحته، وفي الريحانة: إن عبثًا، بدل إذ فتقا.

(٣) في الريحانة: رؤيته.

(٤) في الريحانة: برقا.

(٥) في الريحانة: فانطبعا.

(٦) عفنان: قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلًا من مكة، وهي حد تهامة، وقيل: هي منهل من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة.

لا سِيَّما إنْ غَدَا بالكأس مُضْطَبِحاً أو راح في دِلِّهِ بالكاس مُغْتَبِقاً
 لَيْتَ الزَّمانَ الَّذِي فِينَا غَدَاهُ قَضَى بَشَتْ مَلَمُومَنَا فِي الدَّهْرِ لَا خُلُقَا
 يَا هَلْ أَوْيَقَاتُنَا اللَّاتِي بِكُمْ سَلَفَتْ تَعُودُ يَوْمًا فَأَجْنِي مِنْكُمْ بَلَقَا
 إِنِّي لأَرْجو مِنَ الرَّحْمَنِ عَوْدَكُمْ يَوْمًا فَتَنْظِمُ شَمْلِي بَعْدَما افْتَرَقَا^(١)
 سَقَى العَواصِمَ^(٢) سَحًّا غَيْرَ مُفْسِدِهَا وَجَادَهَا مِنْ رَوَايَا الْمِزْنَ مَا غَدَقَا
 وَخَصَّ مِنْ بَيْنِهَا الشُّهْبَا فَإِنْ بِهَا تَعَلَّقَ الْقَلْبُ مِنْ تَكْوِينِهِ عَلَقَا
 عَلَيْكَ مِنِّي سَلامُ اللَّهِ مَا بَقِيَتْ صُبَابَةٌ تَبْعَثُ الْأَشْجَانَ وَالْحُرَقَا
 تَهْدِيهِ رِيحُ النُّعَامَى^(٣) نَحْوُ أَرْضِكُمْ كَيْسِكَ دَارِينَ يَزْكُو كُلُّما نُشِقَا

قصيدة ابن العجمي في تهنئته بالقدوم إلى دمشق

وما كُتِبَ بِهِ إلَيَّ لَا زَالَ جَيِّدُ الْأَدَابِ مُحَلَّى بِعُقُودِ نِظَامِهِ، وَرِياضِها
 مَوْشَعَةُ الْأَعْطَافِ بِجَبِيرِ كَلَامِهِ، مَهْنَأً بِقُدُومِي مِنْ سَفَرِ الرُّومِ إلَى دِمَشْقِ
 مَنْزِلِ أَحِبَّائِي، وَمَلَاعِبِ أَتْرَائِي، أَوَاخِرِ سَنَةِ ٩٨٠، وَانْشِدْنِيهَا بِمَنْزِلِي فِي
 عِصَابَةِ مَنْ أَدْبَاءُ الْإِخْوانِ، وَفَضْلَاءُ الْأَخْدَانِ، فَوَقَعَتِ الْمَوْقِعَ مِنْ أَوْلَيْكَ
 السَّادَةِ الْأَعْلَامِ، لَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ كِهَالِ الرِّقَةِ وَحَسَنِ الْانْسِجَامِ، قَوْلُهُ:
 مَا اجْتَازَ بَارِقُ ذَاكَ الشَّعْبِ مُبْتَسِماً وَلَا النِّسِيمَ بِأَخْبَارِ الْحُمَى نَسَماً

(١) البيت وبعده بيتان لم ترد في الرجحانة.

(٢) العواصم: حصون مجلب، كما فرها المؤلف في هامش النسخة.

(٣) النعامة: ريح الجنوب، أو ريح بين الجنوب والصباء.

إِلَّا وَعَاوَدَهُ مِنْ دَائِهِ طَرَبٌ
لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ مِمَّا يَهْجُجُهُ
مَتِّمٌ لَعَبْتُ أَيْدِي الْغَرَامِ بِهِ
يَبِيتُ يَثْنِي عَلَى الْأَحْشَاءِ كَفَّ شَجِرِ
حَلَفُ الْخَلِيلِينَ تَسْهِيْدُ بِسَامِرِهِ
كَأَنَّهُ وَالْدُّجَى مُرْخٍ عَذَائِرُهُ
سُقِيًّا لِنَاضِرِ عَيْشٍ بَانَ لَا سِيَّامِ
أَيَّامٍ لَا الْعَهْدُ مِنْ ذِيهِ بِمَنْتَقِضِ
أَيَّا خَلِيلِي لَا زَالَتْ مُجَلَّلَةٌ
حَتَّى تَظَلَّ لَهَا الْأَرْجَاءُ بِاسْمَةٍ
فَتَبْصُرَانِ بِهَا الْخَوْدَانُ مَنْعُطَفَا
إِنْ جِئْتُمَا حَيٍّ مَنْ أَوْدَى بِمِصْطَبِرِي
لَعَلَّ يَسْمَحَ لِي بِالطَّيْفِ مِنْهُ وَهَلْ
أَمَّا وَمَبْسُومُهُ الزَّاهِي لُتَّقِ
وَمَا حَوَى مِنْ رِضَابٍ طَيِّبٍ شِيمِ
وَمَنْظَرٍ لَاحٍ كَالرُّوْضِ النَّضِيرِ إِذَا
وَمَا تَضَمَّنَ مِنْ وَرْدٍ نَدٍ تَرَفِّ

حَتَّى كَأَنَّ بِهِ مَا يُشَبِّهُ اللَّمَّ (١)
قَلْبٌ إِذَا رَامَ تَسْكِينًا لَهُ عَرَمًا (٢)
فَغَادَرْتَهُ كَأَنْفَاسِ الصَّبَا سَقْمًا
تَضُمُّ صَدْرًا خَفُوقَ الْقَلْبِ مُضْطَرَمَّا
لَيْلًا وَدَمْعُ مَرَاهُ الشَّوْقُ فَانْجَمَا
مُوكَلِّ بَسْرَى النِّجْمِ الَّذِي نَجْمَا
شَمْلٌ تَقْضَى بَيْنَ أَهْوَاهِ مَلْتَمَسَا
وَاهٍ وَلَا حَبْلُهُ إِذْ ذَاكَ مَنْصَرَمَا
مِنْ الْبَوَارِقِ تَهْمِي فِي عِرَاصِكُمَا
تَبْتُ مِنْ سَرَّهَا مَا كَانَ مِنْكَتَا
نَحْوَ الْعَرَارِ يَنَاقِي الرُّنْدَ وَالسَّلَا (٣)
فَبَلَّغَاهُ بِمَا يَلْقَى خَلِيلَكُمَا
تُجْدِي لَعْلًا عَلَى الْمَشْتَاكِ أَوْ رُبَّمَا
يُزْرِي مَفْلَجَهُ بِالْدَّرِّ مَنْتَظِمَا
عَذِيبٌ يَفُوقُ الزُّلَّالَ الْبَارِدَ الشَّبَا
تَرْقَرَّتْ فِي نَوَاحِيهِ عَيُونُ سَمَا
عَنْهُ يَحْدُثُ زَهْرُ الرُّوْضِ مُبْتَسِمَا

(١) اللمم: الجنون أو طرف منه يلم بالإنسان ويعتريه.

(٢) عرم: شرس واشتد.

(٣) الخوذان: نبات عشبي من ذوات الفلقتين، منه أنواع تزرع لزهرها، وأخرى تنبت برية، والعرار: زهر طيب الرائحة ينبت في الربيع، والرند: شجر طيب الرائحة كذلك ينبت في سواحل الشام والجبال الساحلية، أو هو العود، واللم: شجر له نبت أحمر يدبغ به.

وأوطفٍ فاتر أجفائه غنجٍ
ولفتةٍ تذرُ الأبواب شاردةً
وسميريّ قوامٍ منه منعطفٍ
لا حلت عن حبه الأشهى إلى كبدي
ولا تبدلتُ إنساناً سواه ولو
يا قاسي القلب يا لذن القوام أما
عطفاً على مستهامٍ مُغرِمٍ دَنَفٍ
وحقّ عينيك يا مَنْ قد أباح دمي
دع ذا فإنّ من التوفيق تركك ما
وانثر مآثر لا تُحصى عجائبها
القائلُ الفضلَ قد فاقَتْ فصاحته
كالبحرِ مُلتطماً والدهرِ محتكماً
مفوءٌ لو دَعَا سحبانٌ منطقَه
حلّالٌ مشكّلةٍ فتّاحٍ مقفلةٍ
أما المكارمُ والرحمنُ يمنحها
فردٌ من النَّفَرِ المحسودِ جارُهُم
ذو عَزْمَةٍ لفرار السيف ماضيةً

إذا رنا سلّ منه صارماً خذماً
أيدي سبّا وتردُّ الفكر مُنقما
إلا عليّ يميناً برّةً قسماً
من الزلّال وقد كادت تَذُوب ظيماً
أضحى وجودي كصبري في الهوى عذماً
تراقبُ الله في هذا الصّدودِ أمّا
يعالجُ الوجدَ والتبريحَ منذ زماً^(١)
لم يُبق مني شديد الشوق غيرَ ذماً^(٢)
لم يُجدِ نفعا وإشغال الزمان بما^(٣)
للطّالويّ الذي هام السّاك سماً
والباهرُ الفضل قد جُلّي به غمّاً
والغيثُ منسجماً والليث منتقماً
لراح يسحبُ ذيل العيِّ منفحماً
كشافُ معضلةٍ طريقتها انبها
لمن يشاء فقد أضحت له شيئاً
يهمّ لها خَوْلُوه منهم نِعَمّاً
تردُّ غرَبَ خُطوب الدهر مُنثلاً

(١) منذ زماً: أي منذ زمان فحذف النون للعلم بها لكي تتسق له القافية، وقد وضع المؤلف النون في هامش الصفحة.
(٢) الذما: بقية الروح في الجسد.
(٣) بما: أي بما يفيد كما هو مفهوم من السياق.

والناسُ إمّا أخو شك يُرِينُهُ
تُطِيفُ مِنْهُ بَنُو الْأَمَالِ قَاطِبَةً
رَحْبُ الْمَبَاءَةِ فَيَاضُ الْأَكْفِ نَدَى
لَهُ مَوَاهِبُ تَسْمَى وَهِيَ مُسْرَعَةٌ
تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانُ مِنْ لَبِنٍ
يَأْيَاهَا الْفَاضِلُ الْمُبْدِي الْعُجَابَ وَمَنْ
لَكَ الْيِرَاعُ الَّذِي يَجْهِي تَسَارُعُهُ
فَلَا زَاهِرَ تَنْدَى مَا يُوسِّعُهُ
لِلَّهِ مَا أَنْتَ فِي الْآفَاقِ تَنْشُرُهُ
مِنْ كُلِّ زَاهِيَةِ الْأَلْفَاظِ زَاهِرَةٍ
مِنْ اللَّوَاتِي إِذَا مَا أَنْشَدْتَ مَلَأَتْ
تُغْنِي عَنْ الشَّمْسِ يَوْمَ الرُّوعِ مَشْرَعَةً
لَوْ أَنَّهَا أَنْشَدَتْ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ
هُنَيْتَ فِيهَا حَبَاكَ اللَّهُ مِنْ مَنَحٍ
فَالْوَابِلُ الْجُودُ قَدْ غَصَتْ سَحَابُهُ
خَذُّهَا مَقْبِلَةَ الْأَيْدِي مُهْنَةً
بِكِرًا تَهَادَى بِأَنْوَاعِ الثَّنَاءِ لَكُمْ

عَنْ شَأْنِهِ وَأَخُو عَزَمَ مَضَى قُدَمَا^(١)
بَارِيحِي يَرَى الْإِعْطَاءَ مُفْتَنًا
إِذَا الثَّرَى بِضَرَامِ الْأَزْمَةِ احْتَدَمَا
لَمْ عَرَى هَلْ رَأَيْتَ الْبَحْرَ حِينَ طَمَا
شَيْبًا - كَمَا قَالَ بَعْضُ الْغَابِرِينَ - بِمَا^(٢)
فِي عِلْمِهِ الْجَمُّ أَضْحَى مَفْرَدًا عَلَّمَا
مَشَى الْأَرَاقِمَ وَسَطَ الطَّرْسِ إِنْ رَقَمَا
مِنْ رَائِقِ النَّظَرِ فِيهِ أَوْ لَزُهِرِ سَمَا
هُوَ اللَّالَاءُ ظَنَنْتُهُ الْوَرَى كَلِمَا
لَا تَرْضِي الشَّعْرَ إِنْ تُغْرِي لَهُ شَمَا
عُلِيَا بِلَاغَتِهَا أَسْمَاعَنَا حِكْمَا
وَالْبَيْضُ يَقْطُرُ مَاضِي غَرْبِهِنْ دَمَا
بَيْنَ الْخَمِيسِينَ وَلَى الضُّدَّ مِنْهَزَمَا
فَإِنَّمَا بَدَأَ حَظَّ قَدْرُهُ عَظْمًا
بَيْنَا يُرَى قَطْرَاتٍ إِذْ تَرَاهُ هَمِي
تَبْغِي التَّغَاضِيَّ عَنْ تَقْصِيرِ مَا كَرَمَا
يَضُوعُ كَالْمَسْكَ مَبْدُوءًا وَمَخْتَمًا

(١) يرينه: أي ينطيه ويحجبه.

(٢) القعبان: مثنى قعب، وهو قدح ضخم غليظ، ويشير ببعض الغابرين إلى الخطيئة في قوله:
تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

يقترح عليه ابن العجمي استدعاء صديق

وَضَمَنِي وَإِيَّاهُ نَدِيُّ أَنْسٍ حَفَتِ حَافَاتُهُ بِأَنْوَاعِ الزَّهْرِ الْأَنْثِقِ، مَا بَيْنَ
وَرْدٍ وَنَرْجِسٍ وَشَقِيقٍ، فَتَعَاطَيْنَا أَكُؤُسَ الْحَدِيثِ مِنْ قَدِيمٍ وَحَدِيثٍ، إِلَى
أَنْ قَالَ: يَا سَيِّدِي لَوْ اسْتَدْعَيْتُمْ فَلَانًا بِأَبْيَاتٍ فَحَضَرَ مَجْلِسُنَا هَذَا لَمْ لَنَا
السُّرُورُ بِاسْتِجْلَاءِ قَمَرٍ طَلَعَتْهُ، وَكَانَ يَوْمُنَا هَذَا عِقْدًا فِي جِيدِ الدَّهْرِ
وَلَبَّتُهُ، فَدَعَيْتُ بِرَاعَةَ مَبْرِيَّةٍ، وَكُتِبَتْ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ:

قَدْ غَاظَلَ النَّسْرَيْنِ ^(١) لَخَطَّ النَّرْجَسِ	فِي مَجْلَسِ سُقَيِّ الْحَيَا مِنْ مَجْلَسِ
يَرْنُو إِلَيْهِ كَمَا رَنْتَ مِنْ خَشْيَةِ الـ	رُقْبَاءِ غَيْدٍ عَنْ لِحَاطِظِ نُفْسِ
وَالْوَرْدُ أَخْجَلُهُ الْحَيَا فَكَأَنَّهُ	خَدٌّ تَوَرَّدَ مِنْ لَهَيْبِ تَنْفُسِي
فِي فَتِيَةٍ نَشَرَتْ حَدَائِقَ وَدُّهَا	فَزَهَتْ عَلَى زَهْرِ الْجَوَارِي الْكُنُسِ
دَارَتْ سَلَاةُ الذِّكْرِ مِنْكَ عَلَيْهِمْ	فَعَدْتُ تَمَائِلَ كَالْفَصُوفِ الْمَيْسِ
تَرْجُو قَدُومَكَ كَيْ يَتِمَّ سُورُهَا	وَتَقَرَّ عَيْنًا يَا حَيَاةَ الْأَنْفُسِ
لَا زَالٍ وَرَدُّكَ يَانَعًا فِي رَوْضِهِ	وَشَبَابُكَ الْفَيْنَانُ زَاهِي الْمَلْبَسِ
مَا غَرَدْتُ وَرَقًا بِأَعْلَى أَيْكَةٍ	فِي رَوْضَةٍ كُسَيْتٍ مَطَارِفِ سُنْدُسِ

ابن العجمي يستدعيه بعد قدومه من حلب

وَمَا كُتِبَ بِهِ إِلَيَّ عَامَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَتِسْمِئَةٍ، وَقَدْ قَدِمَ مِنْ حَلَبٍ إِلَى
دِمَشْقٍ دَارَ إِطْرَابِهِ، وَمَلْعَبِ أَتْرَابِهِ، مُشِيرًا إِلَى تَجْدِيدِ مَعَاهِدِ اللَّذَاتِ،

(١) النسرين: ورد أبيض عطري قوي الرائحة، واحدته نسرينة.

وتشييد معالم المسرات، مورياً في المقال، وبمن يُنظم به شمل الأنس
يسمى إقبال، بقوله:

يا من له مع بديع الفضل إفضالُ	تَحْيَا به لبني الآمال آمالُ
ومن له الأدب الفضل الذي ضربتْ	بسحر رائقه الفتان أمثالُ
ومن قصائده الغرُّ الحسان لها	على القصائد إحسان وإجمالُ
إن أنشدتْ عند قوم أنشأتْ طرباً	كأنما لعبتْ بالقوم جريالُ ^(١)
ومن فواضل كفيه لها أبداً	عن الذي يبتغي المعروف تَسَالُ
نرتاحُ للراح ما دُمنّا وساعدنا	دهرٌ مُواتٍ كما نهوى وإقبالُ
يسمى بها تكتسي من خده شفقاً	حلُّو الشائل بالألباب مَيَّالُ
له إذا طاف بالكاسات مترعةً	على الحشا برخيم الدلّ إذلالُ
ومقلة ما رنتْ يوماً إلى أحد	إلا وعمّته بالأهواء أهوالُ
وقامة كقضيّب في كتيب نقا	إذا اثنت لعقل الصبّ تَقْتَالُ
ثوب التجلّد إن لاقاك أسمالُ	ومربّع الصبر إن عا طاك أطلالُ
فهل يكون لنا بدرأ ونحن له	كهالة في سماء البسّط تحتالُ
يا من به شرفتْ أيامنا وسمتْ	إلى السماء به فخراً بنو طالو

يكتب المؤلف إليه مستدعياً إلى قاعة الوعاء

ومما كتبتُ إليه مستدعياً له إلى منزل يعرف بيننا بقاعة الوعاء

(١) صبغ أحمر، تشبه به الخمر.

والربوة الفيناه يفوق بحسنه روضة بيرين، ويُزري بريّاه نفحة دارين،
بقولي:

داعي الصُّبُوح دعا إلى الصَّهْبَاءِ	والوقتُ راق بقاعة الوعاء
ما بين وَرْدِي وَجَنَةِ جال الندى	فيه وآخر يجثليه الرائي
ومَدَامَةِ راض المزاج مِزَاجِهَا	فغدث تشيرُ الشوق في الأحشاء
من كَفِّ ساقٍ أهيف حُلُو اللَّمَى	يرنو إليك بمقلة حَوَّاءِ
كالبدْر ليلةً تمه فكأنما	ربُّ البرية صاغه من ماء
فأجب أخاك ولا تكن متوانياً	واغنم لذيد العيش قبل تناء

استدعاء إلى مجلس أنس

٢٩ ب أنشدني يوماً بيتاً وقد مال به هواه، لظبي بالصالحية يهواه، وهو

أَحْبَبْنَا بالصالحية فالسَفْحِ دُمُوعِي فيكم لا تملُّ من السَّفْحِ^(١)

وكان المَهْوِيُّ من الأطباء العين، يُدعى بابن شاهين، فكتبت إليه
ارتجالاً، وقد وجدتُ للقول مجالاً، سنة ٩٨٢، مستدعياً له لمجلس أنيق،
ومحذراً من هوى ذلك الظبي الرشيق:

كسائي يسعى قد أتاكَ على العَيْنِ فبادر إلى مَغْنَى سلمتَ من العَيْنِ

(١) الصالحية: مدينة ذات اسواق في لطف (أصل) جبل قاسيون من غوطة دمشق، وفيها قبور
جماعة من الصالحين، ويسكنها أيضاً جماعة من الصالحين لا تكاد تخلو منهم، معجم البلدان
٣/٣٦٣. والسفح الأول: منحدر الجبل، والسفح الثانية: بمعنى انصب وهطل.

به حلّ من أهل الغرام عصابةً حديثهم كالراح بين الرياحين
وطيرُ بجناح العزم نحو مطارهم وإياك بالسفح من رُبربِ عينِ
سفرنُ بُدوراً والتفتنُ جاذراً ومِسْنُ غصوناً قد تعطفن من لينِ
فمن رام يصطادُ البزاة بعُشّها فلا غرّو أن يُلْفَى بقبضةِ شاهينِ

صورة حسنة في أحد أزقة دمشق

مرّ معي يوماً في بعض أزقة دمشق فقرأت له صورةً حسناء ، من
غرفة علياء ، فأنشد:

بينما يقلّب ناظريه بغرفةٍ إذ فاجأتُ خَوْدَ تَرُوعُ جَمَلا
فأجبتُه وقلتُ:

نظرتهُ عن حَدَقِ المهابةِ فأسارت في عقل ناظرها - سلّمت - خيالاً

استدعاء من ابن العجمي إلى مجلس في الصالحية

ومما كتب إليّ مستدعياً، وقد ضمّه ومن يهواه نديّ أنس كما يتمنّاه،
بروضٍ أِينعتُ أزهاره، وغرّدتُ فيه أطياره، ورقتُ أسحاره وأصائله،
وشقتُ من زهره فيه غلائله، من سفح الصالحية بدمشق الحمية، قوله:
قد ضمنا السعدُ ضمَّ السلكِ للدُررِ ولنا الجدُّ^(١) لَمَّ الجفن للَبَصَرِ

(١) الجد: الحظ.

بروضة كسيت من سندس حللاً
 من أصفر فاقع أو أبيض يقق^(١)
 تميل أغصانها الهيف الرشاق بها
 والماء ينساب في أرجائها غدقا^(٢)
 وعبدنا من تروق العين طلعت
 إذا خطا صارت الألباب في خطير
 مقابل الخلق بين الشمس والقمر
 فالطير مذ سمعت تغريده وقفت
 فحن دائرة في الشكل وهو بها
 إننا لأقصى أمانينا قدومكم
 وإنه الحلبي في جيد السرور وإك
 ودبجت من بديع الوشي والزهر
 أو أحر قان أو أخضر نصير
 كأنها ثملت من نسمة السحر
 ما بين مضطخب منه ومنحدر
 ذو منظر فاتن يذمى من النظر
 وإن رنا لم يدغ صبراً لمضطبر^(٣)
 مقسم الحزن بين الدلّ والخور
 بعد التشاجر تحكيه على الشجر
 هل أنت شاهدت يوماًدارة القمر^(٤)
 فإنه لظمانا وائل المطر^(٥)
 ليل على جبهة الافراح والوطر

في وصف ليلة أنس جمعتة هو وصحبه

وَضَمْتَنِي مَعَهُ لَيْلَةً غَابَتْ شَوَائِبُهَا، إِلَى أَنْ شَابَتْ ذَوَائِبُهَا، وَطَلَعَتْ
 سَعُودُهَا حَتَّى غَابَتْ نَحُوسُهَا، فِي أَدْبَاءِ أَكْيَاسٍ، وَآرَامِ كِنَاسٍ، تَطْيِيفٍ
 عَلَيْنَا حَتَّى الصَّبَاحِ، مِنْ أَقْدَاحِ أَحْدَاقِهَا سَلَافَةِ الرَّاحِ، مِنْهَا أُغْيَدُ مَجْدُولُ

(١) البقق: الناصع.

(٢) الفدق: الفياض الغزير.

(٣) رنا: نظر نظرة حب، مع سكون طرف.

(٤) دارة القمر: حالته.

(٥) وائل المطر: مستقره ومآله.

مكان الوشاح، وذلك بمنزل الأخ المكين، سيدي يحيى بن شاهين^(١)، لا زالت أخلاقه الرضية، كأفعاله المرضية، فكتبت إليه واصفاً تلك الليلة، وبطلب (لزوم ما لا يلزم) للشيخ أبي العلاء المعري، وقد تقدم وعده بإرساله، وذلك عام ٩٨٣، بقولي:

سَقَّـتْ عُهُودُ الدَّيْمِ عَهْداً عَلَى ذِي سَلَمٍ
قَضَيْتُ فِيهِ لَيْلَةً مَرَّتْ لَنَا كَالْحُلْمِ
ب ٣٠ فِي جِبْهَةِ الدَّهْرِ غَدَتِ كُفْرَةً فِي أَدهمِ
وَضُخْبَتِي عَصَابَةٌ قَدْ نَظَّمْتُ كَأَنجَمِ
كَأَنَّا أَخْلَقْهَـا زَهْرُ الرُّبَى وَالْأَكَمِ
أَوْ رَوْضَةٍ أَرِيضَةٍ جَيَّـدَتِ بَنُو المِرْزَمِ^(٢)
وَهَكَذَا أَلْفَاظُهَا كَاللَّوْلُو المنتظم
مَنْ كُلُّ مُنْقَادِ الهَوَى لِحَكِيمِـهِ مُسْتَسْلِمِ
لَكِنَّهُ يَوْمَ الْوَغَى لَيْسَتْ عَرِينِ ضَيْغَمِ
وَحَوْلْنَا قَدْ رَتَعَتْ أَسْرَابُ عَيْنِ جُثَمِ
مَهَا انْتَشَتْ بَعْطُفْهَـا تِهَـا عَلَى الْمُتَيِّمِ
تُرِيكَ كُلَّ ذَابِلٍ يَغْلُوهُ كُلُّ لِهْذَمِ^(٣)

(١) القيسي الحنفي، امام جامع سنقر، كان عالماً فاضلاً قرأ العديد من الكتب على كبار العلماء في عصره بحيث تميز في الجملة في الفقه والقراءات وبعض علوم العربية، مع خير وعقل، توفي عام ٩٧٠ هـ.

انظر الضوء اللامع ٢٢٩/١٠.

(٢) المِرْزَم: ريح الشمال الباردة، أو أحد نجمي المطر إذ يطلق عليها العرب اسم (المرزمان).

(٣) اللهزم: كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب، يقال: سيف للهزم: حاد.

طارحتهم نَجْوَى غَرَا
 ولم أذُذْ سَرَحَ اللَّحَا
 حتى إذا جال الكَرَى
 نامت ولمّا أم
 وعبرة مُرَاقِبَةٍ
 حتى إذا الصبح أتى
 والليل ولّى هارباً
 ومالست الجوزاء إذ
 فارقتهم وفي الحشا
 وفي العيون لا بكت
 من مُشرقَاتِ المَسمِ
 وكلّ رُودٍ ألبست
 تحتال في وشي صَبَا
 أوَاهُ إن لم تجتمع الـ
 في رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ
 غنّت بها وَرَقُ الجَمَى
 قضيتُ وجدّاً بهم
 إني لأرجوها وما

م من مُجِيبٍ مُغْرِمٍ
 ظر عن حَامِهَا المُرْهَمِ (١)
 بجفنهَا ذِي السَّقَمِ
 على جَوَى مُخَيِّمٍ
 كهـاطلات الدَّيْمِ
 في جَحْفَل عَرْمَرَمٍ
 بجيشه المنهزم
 رَغَرَهَا بالفَدَمِ (٢)
 رس هَوَى مُحَكَمِ (٣)
 صوبُ دموع ودَمٍ
 وقاصراتِ الخـيـمِ
 بُرْدَ الشَّبابِ المُعْلَمِ
 بُرداه لم ينمنم
 أَيَّامُ شَمْلِي بِهِمِ
 بمـارِضٍ منسجِمِ
 بِفَصْحَاتِ النِّعَمِ
 وحسرةً عليهمِ
 بمهدنَا من قَدَمِ

أ ٣١

(١) المرهم: الذي أصابه الرهام، والرهام جمع مفردة: رهمة وهي المطرة الضعيفة الدائمة.
 (٢) الجوزاء: برج من بروج السماء، وغرّها: سترها، والفدم: أي سائر تستر به من البروج الأخرى.
 (٣) رس الهوى: بقيته وأثره.

وهاكها بهنأنة	ذات بنانٍ عنديم ^(١)
نيطت بهوى قُرطها	لآلىء من كلمي
عن فكرة شاردة	وخاطر مُقَسَّم
تبغى قبُولاً في ظُـلا	ل الأكرم بن الأكرم
فَتسى العَجَمي من رَقَى	بالفضل هام الأنجم
وتنتحي ^(٢) من فيضِه	وجوده الملتطم
إرسالاً مـا ألزم من	لُزوم مـا لم يلزم
لا زال يسمو بالعـلا	في نِعمـة وأنعم
ما غرَدتْ مفتنة	أرقى الحمام الرئيم
ويمت مُستنة	له مطايا الكلم

يستهدي كتاب صدر الشريعة

ومما كتبت أيضاً له مستهدياً على يديه من بعض إخوانه، وخُلص
خُلاصه كتاب « صدر الشريعة »^(٣)، بهذه الحساء البديعة، وذلك في عام
٩٨٣ بدمشق الشام:

(١) البهانة: الحفينة المرحة في هدوء ورقة، قال الشاعر:

بهانة تستعير القوم أعينهم

والعندم: نبات أحمر يصبغ به.

(٢) تنتحي: تقصد.

(٣) هو عبد الله بن معمود بن محمود بن أحمد الحيومي البخاري الحنفي، صدر الشريعة الأصغر
من علماء الحكمة والطبيعات وأصول الفقه والدين، له كتب كثيرة منها: التنقيح في أصول
الفقه وشرحه التوضيح، وله شرح الوقاية في فقه الحنفية، توفي ببخارى عام ٧٤٧ هـ، انظر
الفوائد البهية ١٠٩-١١٢.

طالعا نَقَبَ الْغَوِيرَ وَرَيْعَهُ
 خَلِيَاهُ وَوَقْفَةَ فِي طُلُولِ
 مَعْدٍ مِنْ شَبَابِهِ كَانَ قَدْماً
 كُلُّ خَصَانَةِ الْوِشَاحِ دَعَاها
 صَبَّتْ فِي عِطْفِهَا الصَّبَا مَاءَ حُزْنٍ
 فَبَرَاها قَيْدَ الْنَوَاطِرِ تَزْهَى
 ذَاتَ لَطْفٍ كَأَنَّا أَلْبَسْتَهَا
 مُحَرَّزُ السَّبَقِ يَوْمَ حُضْرِ الْمَعَالِي (١)
 مَاجِدٌ مِذْ تَفُوقَ الْفَضْلِ طِفْلاً
 ذُو سَجَايَا تُرَى كَزَهْرِ رِيَاضٍ
 أَوْ كَبَكْرٍ أَبَتْ مَوَاقِعَةَ الشَّرِّ
 عَلَنِيهَا بُعِيدَ هَلَاءٍ نَدِيمِي
 إِيهِ فَاسْمَعْ يَا مَنْ لَهُ سَعْدٌ جَدُّ
 قَدْ أَتَتْ يَمَكَ الْفُرَاتِ قَوَافٍ
 وَرَدَّتْهُ ظَهَائٍ لِتَصْدُرَ عَنْهُ
 وَابَقٍ لَا يُغَيِّبُ السَّحَابُ هَزِيماً
 وَكَسَاهُ الرِّبِيعُ وَشَيْئاً يُحَاكِي
 مَا تَغْنَى قُمْرِيٌّ بِمُقَرَّى بَرُوضٍ

وَدَعَاهُ يُنْدِي هَوَاهُ مُذِيعَهُ
 دَارَاتٍ يَقْضِي بَيْنَ وَلُوعِهِ
 مَعْدُ الْغَايَاتِ يَسْلُكُنْ رَيْعَهُ
 لِلتَّصَايِي هَوَى فَلَبَّتْ مُطِيعَهُ
 وَكَسَاهَا رَيْطَ الْجَمَالِ بَدِيعَهُ
 رَوْضَةً غَضَّةَ النَّبَاتِ مُرَيْعَهُ
 حَلِيٌّ يَدِ أَبِي الصَّفَاءِ وَشَيْعَهُ (٢)
 بَيَّانٍ تَلَا النِّظَامُ بَدِيعَهُ
 قَدْ أَبَى مَشْرَعِ الْمَجْنَنِ شَرِيعَهُ
 وَكَزْهَرِ السَّمَاءِ تَلْفَى مَنِيعَهُ
 بَ فَشَجَّتْ عَمْداً بَمَاءٍ وَقِيعَهُ (٣)
 وَالثَّرِيَّاءَ لِلْغَرْبِ تَهْوَى سَرِيعَهُ
 سَعْدُهُ نَيْطَ بِالْعُودِ الرَفِيعَهُ
 صَدَرَتْ خِلٌّ عَنْ كِلَالِ طَبِيعِهِ
 بَعْدَ بَرْحٍ رَوَى بِصَدْرِ الشَّرِيعَةِ
 لَكَ رُبْعاً يُؤَلِّي عَلَيْهِ رَيْعَهُ
 وَشَيْءَ صَنْعَاءٍ بَلْ يَفُوقُ صَنْيعَهُ
 رَقْرَقَ الطَّلَّ فِي رُبَاهُ دُمُوعَهُ

(١) الوشيمة: الخطوط الملونة بألوان زاهية في الثوب.

(٢) الحضر: المدوم مع الوثب.

(٣) الوقعة: الأرض التي لا تنشق الماء لصلابتها.

إلى محمد بن إلياس بمناسبة توليه القضاء

ومن ذلك ما كتبت به إلى جناب دوحة الفضل السنية، وشجرة العلم
الطيبة الزكية، المولى الشهير نسبه الخطير، بين الناس، بمحمد بن
٣٣ أ إلياس^(١)، وقد شُرّف به قضاء دمشق الشام، لا أُغَبّت ربوعها غُرّ
الغمام، وهي أول ما انبعث عن الجنان، ونطق به هديل اللسان، وذلك
في عام ست وسبعين وتسعمائة^(٢):

أطيفَ سرى وَهناً مُتَيّاً	أَمِ الرَّوْضُ بكَأهُ الحيا فتبسّاً
أنفحةُ وادي السّحروافت بها الصّبا	سُحَيراً أَمِ المسكُ الذكيُّ تنسّاً
أوردُ جنّي أَمِ رياضُ أريضة	كستها يدُ الأنواءِ وشياً مُنمناً
أزهرُ سماء أَمِ أزاهرُ روضة	سقتها غواصي المزن سجلاً على الظّما
فأغصانها اللدنُ الرّشاقُ تراقصتُ	لطيرٍ على هاماتها قد ترنّاً
أَمِ الشمسُ في أوج الكمال منيرة	أَمِ البدرُ في أفق السيادة قد سَمّا
أُبشّري على يأسٍ أوعدُ على رجاء	فلله ما أحلى وأجلى وأكرماً
فيا راكبا إما عُرِضت فُججٌ إلى	رُبّا جَلَّقَ لُقَيْتَ رُشداً مُيمّاً
وعرّج بواديها المقدّسِ منشداً	فيا حبّذا الوادي ويا حبّذا الحمى
لقد حلَّ قطر الشام نورُ هداية	يفوقُ سَنّا لألائه البدر في السما
وأصبحت الأرجاء تُزهى منيرة	وغُصنُ الأمانِ بالمسرة قد نما
أما تنظرُ الغنّاءُ أبدتُ مَلاباً	من النّورِ وشأها الربيعُ وسَهّا

(١) محمد بن إلياس: سوف ترد ترجمة له فيما يلي.

(٢) كان الطالوي آنذاك في السادسة والعشرين من عمره.

وبآكرها الوسمي ينثر لؤلؤاً
وغنت بدوح النيرين حاتم
لموطى شيخ العصر قاضي قضاتها
أريب مهيب لودعي مهذب
غياث للمهوف أمان لحائف
فيا أوجد الدنيا ويا عالماً غداً
ويا سيّداً حاز الفضائل كلّها
ومن عدّله قد شاع في كلّ موطن
قصدت ذرى عليك فالدهر قد جنى
ولي مقلّة قرّحى طويل سهادها
لعلك يا مولاي ترحم فاقتي
فلي عالّة ربّي العليم مجاهم
ونفس ترى أن السؤال مذلة
لأنك يا قسّ الفصاحة حاتم

من الطلّ في سلك البهاء تنظماً
فجاوبها قمريّ مقرّي مزمزماً^(١)
إمام لدى أعتابه السعد خيّا
كريم نداءه يُخجل الغيث إن همى
ملاذّ لحزون شكاً متظلماً
له الفخر والشيوخ الرئيس مسلماً
فلا عالم يلقاه إلّا وأحجماً
فأنجد في قطر البلاد وأتّهما
عليّ وما لي غير بابك مُتّمتى
وقلب بنيران القطيعة أضرمّا
وتنصّفي من عبدك الدهر بعدما
فؤادي لهم أضحى بجمر يضرّمّا
سوى أنها ترجو ندادك تكرّمّا
وجودك يا بحر المكارم قد طمّا

(١) النيرين: تشية نيرب، والنيرب قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط الباتين
أنزه موضع يرى، ويقال إن فيه مصلّى الخضر عليه اللام نظراً لحسه، والنيرب يستعملها
الشعراء أحياناً مثناة كما هنا وكما في قول وجيه الدولة ابن حدان:

سقى الله أرض الفوطتين وأهلها فلي بجنوب الفوطتين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفني إلى برد ماء النيرين حنين
انظر معجم البلدان.

والقمري: نوع من الحمام مطوق حسن الصوت، مقرى أي يحلّ ضيفاً في الدوح، أو يشتكي
أله، ومزمزماً: يصدر صوتاً في ترنم ودندنة.

عسى جُودك الفيّاضُ يأتي بنائلٍ تُروِّي به ولهانَ من ألم الظما
بقيتَ بقاء النّيرين بنعمةٍ مدى الدهر ما ناحِبْ مُطَوِّقَةٌ وما

وقال في عتاب علي جلبي المحاسبجي

وما كتبته من باب العتاب، لبعض خلّص الأصحاب، وهو جنابُ
الأخ الوفيّ، والجِدْن الصفيّ الوليّ، ذمر الآلاء الطاهرة، والنماء
الباهرة، «علي جلبي»^(١) المحاسبجي يومئذ بدمشق الشام، دامت له
النعم الجسام، وذلك سنة تسع وسبعين وتسعمائة:

سلامٌ كنشَر الرّوضِ غِبَّ تَبَسُّمٍ	على ربّكم مَغْنَى الهوى المُتَقَدِّمِ
على معهدٍ لم تُبْق منه يدُ النّوى	سوى دمنيةٍ من عهدكم لم تكلمِ
وجادت له حيث الديارُ فسيحةٌ	سحابةٌ عهد عهدها لم يُذَمِّ
وخصّتْ مَغَانِي اللّهُمِنْه وألبستْ	معالمه بُردى شباب وأنعمِ
وحياَ إلهُ العرشِ قاطنَ رَبِّعِهِ	وإن كان لا يَرعى ودادَ مُتَمِّمِ
تحيةٌ صَبَّ كُلُّها ذِكْرُ الفضا	رمى بين جنبينه بجمرٍ مُضَرَّمِ
يحنُّ لها تيك الديارِ وأهلها	حنينَ مَشُوقٍ نازحِ الدارِ مُغْرَمِ
يروحُ على بُرْجِ الهمومِ ويغتدي	بمفلوذةٍ حرّى وقلبٍ مُقَسَّمِ ^(٢)
ويذكرُهُ القُمْري بالأيك ساجِقاً	زمان الصِّبا من شرخِهِ المُتَقَدِّمِ

(١) سبقت ترجمته.

(٢) برح الهموم: شدائدُها، والمفلوذة: القطعة من الكيد أو الأحناء، والحرى: المحترقة من
الهم أو الألم، وقلب مقسم: أي جعلته الهموم مشتتاً.

ورقراقٍ عيشٍ راقٍ حُسنًا ونَضْرَةً
 وظِلُّ شَبَابٍ كانَ يَنْدَى غُضَارَةً
 طَوَى بُرْذَه كُرُّ الجَدِيدِينَ مِثْلَ ما
 وَرُبَّ صَدِيقٍ قد نَعِمْتُ بِقَرْبِهِ
 تَدُورُ شَمُوسُ الرِّاحِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
 إِلَى أَنْ رَمَتْنَا الحَادِثَاتُ بِأَسْهُمٍ
 طَوَتْ شَخْصَهُ عَنِّي اللَّيَالِي واسَأَرَتْ
 وَهَلْ أَنَا إِلَّا رَبُّ نَفْسٍ مَعَارَةٍ
 وَمَا شَجَانِي وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ
 وَجُورُ أَخٍ يُبْذِي التَّجَنِّيَ وَيَنْشِي
 فَيَا أَيُّهَا الجَانِي وَنَسْأَلُهُ الرِّضَا
 وَأَضْغِ إِلَى عَتَبِ الصَّدِيقِ فَرَبْمَا
 فَهَذَا قَدْ بَسَطْتُ العَتَبَ فَاسْمَعْ هَدِيَّةً
 لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْآنَ جَلْدًا عَلَى النُّوَى
 عَلَى أَنْتَنِي لَا غَالِبُ الرَّأْيِ بِالْهُوَى
 أَرْوَحُ بِأَثْوَابِ العِفَافِ مُسْرَبِلًا
 وَإِنْ نَكَرْتَنِي خَلَّةٌ أَوْ نَكَرْتُهَا (١)
 فَبَدِّلْنِي بِالْعَزِّ ذَلًّا هَوَاكُمُ
 أَقُولُ إِذَا نَامَ الحَلِيُّ وَلَمْ أُنَمْ

بَأَفْيَاءٍ شَرَحٍ قَدْ ضَفَا فِي تَنْعَمٍ
 وَوَشِي رِداءٍ رَيَعَانُهُ لَمْ يُنَمِّمْ (١)
 طَوَى وَدَّ مِنْ أَهْوَاهِ عَنِّي لُؤْمِي
 زَمَانًا وَجَفَنُ الدَّهْرِ عَنْ وَدَّنَا عَمِي
 بِمَجْلِسِ أُنْسٍ فِي نَدَامَى كَأَنْجَمٍ
 وَأَقْفِرُ رَبْعِي مِنْ هَوَاهِ وَمَعْلَمِي
 بِقَلْبِي عَقَابِيلُ السَّقَامِ الحَكَمِ
 وَقَلْبٍ مَعَارٍ لِلْجَوَى وَالتَّأَلُّمِ
 تَغْيِيرُ دَهْرٍ فِي الْكَرَامِ مُحْكَمِ
 عَلِيٍّ بِلُومٍ - وَالْكِتَابِ - مُحَرَّمِ
 تَرَفَّقَ عَلَى صَبٍّ بَيْنِكَ قَدْ رُمِي
 أَعَادَ عِتَابُ خَلَّةٍ الْمُتَصَرِّمِ (٢)
 وَأَوْدَعْتُهُ سَلَكَ الْجَمَانِ الْمُنْظَمِ
 أَيْبًا وَلَمْ أَرْبِغْ عَلَى رَسْمِ مُعْلَمِ
 وَلَا قَائِلُ لِلشُّوقِ إِنْ ضَلَّ بِحِلْمِ
 وَأَغْدُو بِحِلْمٍ مِثْلَ طَوْدٍ يَلْقَلَمِ
 رَحَلْتُ إِلَى أُخْرَى بِغَيْرِ تَنْدَمِ
 وَلَا عِجْ شَوْقٍ مِنْ نَعِيمِ مُخَيَّمِ
 عَلَى حَرٍّ وَقَدٍ لِلضَّلُوعِ مُقَوِّمِ

(١) لم ينم: أي لم يؤثر فيه الزمان بعد، وأصله من غنمت الريح التراب، تركت فيه أثرًا.

(٢) الخلة (بضم الخاء): المودة والصداقة، والمتصرم: الهاجر.

(٣) الخلة (بفتح الخاء): الخصلة، يقال: فيه خلة حسنة أو خلة سيئة.

خَلِيلِي مَا لِلخَلِّ قَدْ حَالُ وَدُّهُ
أَغْيَرُهُ صَرْفُ الزَّمَانِ أَمْ ارْعَوِي
فِيَا مَنْتَهَى الْأَمَالِ يَا غَايَةَ الْمُنَى
لَكَ اللَّهُ فِي صَبٍّ أَضَرَّ بِحَالِهِ
مَقِيمٌ عَلَى رَغْوِي الذَّمَامُ وَطَالَ مَا
صَفَّتْ مِنْهُ أَخْلَاقُ لَدَيْكَ خَلِيقَةٌ
كَزَهَرَ الرَّبَّاءُ قَدْ فَتَحَتْهُ يَدُ الصَّبَا
وَرَاعَ لَهُ حُسْنَ الْوَدَادِ وَإِنْ نَبَأَ
أَعْيَذُكَ مَنْ قَالَ فِي وَصْفِ شَأْنِهِ
إِذَا سَاءَ فَعَلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ
وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ
تَذَكَّرْ رَعَاكَ اللَّهُ سَابِقَ خَلَّةٍ
جَحَذَتْ وَلَائِي مِنْ وَلِيِّيْ غَدَا لَهُ
وَأُنْكُرْتَ مِنْهُ الْوُدَّ يُزْهِي نَضَارَةً
فَمَهْلًا - عَلَيَّ الْقَدَرِ - يَا مَنْ جُبَّهِ
اتَّجِدْ مِنْ وَالَاكِ وَالرَّبْعُ شَاسِعٌ

وَوُدِّي عَلَى طَوْلِ الْمَدَى لَمْ يُصَرِّمْ
إِلَى وَشْيٍ وَاشْرَ أَمْ مَقَالٍ مِنْمَنْ (١)
وَنَزَهَةِ نَفْسِ الصَّبِّ يَا ذَا التَّكْرُمِ
يَعَادُ لَهُ فِي قَلْبِهِ فِعْلٌ لَهْذَمٍ (٢)
غَذَاكَ لِبَانَ الْوُدِّ غَيْرَ مُذَمِّمٍ
بِحَسَنِ ثَلَاثٍ مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ
وَجَرَّتْ عَلَيْهِ ذَيْلُهَا فِي تَبَسُّمٍ
زَمَانٌ، وَلَا تَسْمَعُ مَقَالَةَ مُجْرِمٍ
أَدِيبٌ لَهُ فِي الشَّعْرِ فَضْلٌ تَقْدُمُ (٣)
وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهَمٍ
وَأَصْبَحَ فِي شَكٍّ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمٍ
وَلَا حِقَ عَهْدٍ بِالْقَلَى لَمْ يُهْدَمِ
عَلَى كُلِّ مَوْلَى فَيْكَ فَضْلُ الْمَقْدَمِ
وَأَقْبَلْتَهُ صَدْرُ الْحَسَامِ الْمُصَمِّمِ (٤)
نَفُوزُ غَدَاً مِنْ ذِي الْجَلَالِ بِمَغْنَمٍ
لَعَا لَكَ (٥) هَلْ هَذَا فَعَالٌ مُكْرَمٍ

(١) النعم: المزوق.

(٢) اللهزم: الحاد القاطع.

(٣) الأديب هو شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي، والبيتان التاليان له، وهما في ديوانه
صفحة ٣٩١.

(٤) أقبلته صدر الحسام: أي سدده إلى.

(٥) لعاً: صوت معناه الدعاء للمعثر بأن يرتفع من عثرته، يقال: لعاً لفلان، وفي الدعاء عليه
بضد ذلك، يقال: لا لعاً له.

أعد ما مضى يوماً إليه لعله
وإن لم يكن في غورٍ ودكٍ مطمعٌ
سأعمل عيسى عن بلادك راحلاً
وأولى بلاد بالمقام من الألى
وقد محضتكَ النصح نفسٌ لصحبةٍ
إذا ما صحبت المرء فاصحب مهذباً
وعاشرٌ بخلقٍ ما استطعت مُحَبَّبٌ

وراع لإخوان الصفاء حقوقهم

وإن أنت ضيّعتَ الوفا - خِلٌّ - تُندَمُ (١)
حقوق إخاء من صديق مُقَدَّمٍ
مطايًا إلى لَحْدٍ بغيراء مُقْتَمٍ
وعِزُّ الفتى فيه كطيفٍ مُسَلَّمٍ
به واخش يوماً أن يطاك بِمَنَسَمٍ (٢)
يرى ما خفي من كلِّ أمرٍ مُكْتَمٍ
تضمن عتْباً مثل عَقْدٍ مُنْظَمٍ
لَمِي شادنٍ يبدو خلال تَبَسَمٍ
بُزْنٍ مَرَّتْ أخلافُهُ يدُ مِرْزَمٍ (٣)
بعيشٍ هنيءٍ من ذُرَا العز واسلم

(١) خل: أي لا خلي فحذف حرف النداء لوزن الشعر، وحذف ياء التكلم تخفيفاً.

(٢) المنم: خف البعير، أو طرفه.

(٣) انصهاء: الحمر، وشجت: أي مزجت، والمزن: ماء المطر، ومرت أخلافه أي ملست على ضروع حبله، والمرزم: ريح الشمال الباردة.

مقامك محمودٌ وبابك ملجأً وظلُّكَ ممدودٌ له السعد ينتمي
مدى الدهر ما بكى القريض بسجعه هديلٌ وفاءٌ قد مضى بترنمٍ

في وصف يوم قضاء بين الرياض

ومر لي بدمشق يوم كأيام الشباب، مع بعض أدباء الأصحاب، في ظلّ روضةٍ حُفَّت بأنواع الرياحين، من ربوتها ذات القرار والمعين، وقد تفجّرت أنهارها عن لجين ماء جرى ذهبُ الأصيل، ومدّت الأغصانُ فيها وارفاً ظلّها الظليل، ومعنا شابٌ مقبِلُ الشباب برشاقة القدّ، وصباحة الخدّ حُبِّي، يسمّى بعبد النبي، قد طرّز بقائي وجنتيه قلّة جماله، وحسّن بياضها أسودُ خاله، وذلك بأرض النّيرب من متنزّهات دمشق المشهورة، لا برحت باللذات معمورة، وذلك سنة أربع وثمانين وتسعمائة:

لِلَّهِ يَوْمٌ مَرٌّ بِالنَّيربِ	من غير واشٍ ثمّ بالنّيرب ^(١)
جدّد للذات ما قد عفا	أو كاد من ربع ومن يلعب
ومن عهد الصّبِّ حيث الصّبّا	إلى الغواني شافعُ المذنبِ
أيامَ أهواهنَّ حُمَرَ الحُلَى	خُضَرَ المَلّا بيضَ طَلّا الرُّبْرِ
يسمّن عن مثل اللّالي كما	يسفّر عن مثل سنّا الكوكبِ
من كلّ حسناء سقاها الصّبّا	ماء الشباب الرّيقي الأطيّبِ
سقاها عهدُ القُرب من معهدٍ	ومنزلي رَحْب الفِنا مُخَصَّبِ
ميدان لَهْوي ومَعانُ الهوى ^(٢)	وربعُ أنسي ورُبى مَارِي

(١) النيرب الأولى: هو المتزّه الذي سبق الحديث عنه، والنيرب الثانية معناها: النيمة.

(٢) معان الهوى، المعان: المنزل.

يومٌ كإيَّام القطاة انقضى
 نادمني فيه مُبِيحُ اللَّمَى
 أرعنَ لا عَهْدُ يراعي كما
 ذو وَجَنَةٍ بالحنن قد عَمَّها
 أفديه بالخال وبالخال والـ
 منَّ به الدهرُ ويا حبذا
 في ظل أخوى جَادَهُ وابلٌ
 بكتنه عينُ المزن هَتَانَةً
 حتى انبرت أنوارُهُ غُضَّةً
 والنهرُ ينسابُ خلال الرُّبَا ٤ ب
 أَلَقْتُ عليه الرِّيحُ من نَسْجِهَا
 تُخَالُهُ وسط الرُّبَا نَثْرَةً
 كأغما الأغصانُ من فوقه
 ومذهبي فيما انقضى مذهبي
 على الظما من ورده الأعذب
 لا يرعوي قطُّ إلى مُقْتَبِ
 خالٌ بذيغٍ منه عبد النبي
 خال والخال معاً والأب^(١)
 منٌ بخيلٍ جاد بالمطلب
 وناب فيه الطلُّ عن صَيِّب^(٢)
 تُثْري الثرى دانية الهيدب^(٣)
 باسمَةً عن ثغرها الأشنب^(٤)
 كالأيم ينسابُ لدى مهرِب^(٥)
 مُفَاضَةٌ السَّرد على المنكب^(٦)
 قد سقطت في الروض من مِقْتَبِ^(٧)
 ربيضةً وافت على مَرَقِبِ^(٨)

-
- (١) الخال له معان كثيرة، فمن هذه المعاني: الذي يدير أمور أهله ويكفيهم، والخال: المتكبر، والخال: الذي صار ذا خول أي له أتباع وحشم بعد انفراد، والخال أخو الأم، والشاعر يفديه بهؤلاء كلهم، في مقابل الخال الجميل الذي في وجهه.
 (٢) الأجوى: النبات الذي تضرب خضرته إلى سواد، والصيب: المطر المنصب بغزارة.
 (٣) الهيدب: السحاب الذي يدنو من الأرض، ويرى كأنه خيوط عند انصبابه.
 (٤) الثغر الأشنب: الجميل ذو الأسنان الصافية.
 (٥) الأيم: الحية الذكر.
 (٦) المفاضة: الدرع الواسعة اللينة، والسرد: النج.
 (٧) النثرة: ما تنثر من الأشياء، والمنكب: شبه الخلاة أو الجراب.
 (٨) الربيضة: الجاسوس أو العين الذي يحرس قومه ويربأهم.

ظلالها تحكي ظلال النقا يَنْبُثْنَ في الحافَّاتِ عن مَسْرَبِ (١)
 كأنها والريح مالت بها ظَمَأَى تَحَرَّى الوَرْدَ من مَسْرَبِ
 والوُرُقُ تبدي الشَّجُو ما بينها بلحنِ غَرِيْدِ شَجِ مُطْرَبِ
 وكان ما كان بنيل المنى فظُنَّ خَيْراً بحبيبي وبـي

ومما قاله في وصف شباك يطل على منظر حسن

ومما دعا إليه باعث غرام وداعية صبوة، ما نظمته في شَبَاكِ جامع
 يَلْبُغا المِطْلَ على النهر والقهوة، بإشارة من بعض أدباء العصر، وفضلاء
 مصر، مشيراً أثناء ذلك إلى أوقات أنسِ مرَّت بالجامع المزبور، في غبطة
 من المؤانسة والسرور، صُحْبَةِ شَيْخِي وأستاذي شيخ الإسلام، عمدة
 الأفاضل الأعلام، مفتي المالكية بدمشق الشام، محمد بن محمد بن محمد أبو
 الفتح بن عبد السلام (٢)، سقى الله ثراه سحابة رضاه، وذلك عام ٩٨٣
 قولي:

(١) الصلال جمع صل وهو الحية من أخبت الحيات، وينبثن: يبحثن.

(٢) الشاعر الأديب، الفقيه الأصولي أبو الفتح محمد بن محمد بن سلامة المعروف بأبي الفتح بن
 عبد السلام.

ولد بتونس عام تسعمائة وواحد، ورحل إلى المهديّة ومنها إلى الاسكندرية وأقام بمصر نحو
 سنتين، ثم سكن دمشق سنة ٩٣١ هـ حتى وفاته.

وصفه ابن العماد بقوله: «له الباع الطويل في الأدب ونقد الشعر، وشعره غاية في الحسن»،
 ومع ذلك فقد كان معذباً... عاداه دهره وصافاه فقره، كما يقول الخفاجي في الریحانة، توفي
 سنة ٩٧٥ هـ.

انظر ریحانة الألباء ١/١٧٤ - ١٨٨، شذرات الذهب ٧/١، وانظر ما كتبناه عنه في
 المقدمة.

أَلَمِ بِسَاعَةِ يَلْبُغَا مِمَّا انْبَرَتْ
وَاسْتَجَلِي رَوْضًا مِنْ سَاءِ زُمُرْدٍ
يَنْسَابُ فِيهِ كَالْجَرَّةِ جَدُولٌ^(١)
حَاكِبًا لَهُ الْأَنْوَاءُ مِنْ حُلُلِ الْبَهَا
وَرَسَا النِّسِيمُ بِسَاحَتَيْهِ كَمَا رَسَا
مَا بَيْنَ شُحُورٍ كَرَاهِبٍ بَيْعَةٍ
وَعِنَاءٍ قُمْرِيٍّ وَسَجْعِ حَامَةٍ
وَحَرِيرِ نَهْرٍ مِنْ لُجَيْنِ مَآوَةٍ
ذُو شَاطِئٍ لَوْ قَدْ رَأَى رَقْرَاقَهُ
مُلِثَتْ بِوَارِدٍ بِأَسَةِ أَرْجَآؤُهُ
يُسْقُونَ فِيهِ عَلَى التَّصَافِي قَهْوَةً
مِنْ كَفِّ سَاجِي الطَّرَفِ مِمَّا أَنْ رَنَا
فَاسَمَهُ سَرَحَ اللَّحْظِ ثُمَّ وَذَدَهُ لَا
فَلَكُمْ جَلِيْتُ بِهِ الْهَمُومَ وَصُحْبَتِي
كَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ مِنْهُ بِهَجَةٍ
فَسَقَى إِلَيْهِ الْعَرْشَ تُرْبًا غَيْبَتَ

مِنْكَ الْهَمُومُ وَمِيلَ إِلَى شُبَاكِهِ
طَلَعَتْ نَجُومُ الزَّهْرِ مِنْ أَفْلَاكِهِ
حَصْبَاؤُهُ كَالدَّرِّ فِي أَسْلَاكِهِ
وَشَيْئًا يَحَارُ الطَّرَفُ فِي إِدْرَاكِهِ
طَيْرٌ تُدِيمُ الشُّجُو فَوْقَ أَرَآكِهِ
قَدْ رَتَّلَ الْإِنْجِيلَ فِي أَخْلَاكِهِ
وَرَجِيعِ سِنَّ مَوْلَعٍ بِشَبَاكِهِ
ذَهَبُ الْأَصِيلِ جَرَى خِلَالَ حِبَاكِهِ
نَهْرُ الْأَبْلَةِ غَاضَ وَسَطَ نَبَاكِهِ^(٢)
حَتَّى ثَوَتْ مِنْهُ مَكَانَ مَسَاكِهِ^(٣)
كَالْمِنْدَلِ الشَّخْرِئِ غِيبَ مَدَاكِهِ^(٤)
أَسَرَ الْفُؤَادَ فَعَادَ فِي أَشْرَاكِهِ
عَنْ وَرْدِهِ وَحَذَارٍ مِنْ إِمْسَاكِهِ
شَيْخُ عُلُومِ الشَّرْعِ طَوَّعُ مِلَاكِهِ
وَنَضَارَةٌ ثَوَتْهَا بُعِيدَ هَلَاكِهِ
تِلْكَ الْعُلُومُ مُلِثَتْ نَوَى سَمَاكِهِ^(٥)

(١) المجرة: البياض المعترض في السماء والنيران من جانبيها (والنيران مجموعة من النجوم معروفة بمشابهتها للنير، المجموعة الأولى تسمى النير الطائر والثانية تسمى النير الواقع).

(٢) النباك يعني به المجرى، وهو الأرض التي تحتلط فيها السهولة بالوعورة.

(٣) ساكه: حافاته.

(٤) المندل: المود الطيب الرائحة، ومداكه: دقه.

(٥) ملك: مأخوذ من لك المطر أي استمر أياماً لا يقلع.

وغدت تحايا الربِّ كلَّ عشيةٍ تُهدي إليه على يدي أملاكه
وما قلته في شبَّاك الجامع المذكور أيضاً:

ألم إذا همَّ غَزَاكَ يلبُّغاً واعطف لمقصفه تنل ما يُبتغى (١)
فوحقَّ كوثر مائه من وآل في جنَّاتِ عدنٍ مثله فلقد لَفَا (٢)

من نظم شيخه ابن عبد السلام في أغراض متعددة

ومن نظم الأستاذ العلامة - أحله الله دار المقامة - في الجامع
المذكور:

كم نزهة في يلبُّغاً تُبتغى ومَدرج لم يخلُ من دارج
يا حُسْنُهُ من جامع جامع فاق على الزوراء من عالج (٣)
يموجُ في بركته ماؤها تحت منارٍ ليس بالمائح
مئذنة قامت على بابه تشهد للداخل والخارج

★ ★ ★

ه أ وله فيه طاب ثراه، وحسن مرقدته ومثواه:

إلى يلبُّغاً فارق أعلى الدَّرَج بشريقه تلق باب الفرج

(١) المقصف: صوان يستخدم في غرف الطعام لحفظ أدوات المائدة، وقد يوضع عليه الطعام، ويستعمل الآن بمعنى مكان اللهو في أكل ولعب وشرب.

(٢) لفَا: قال خطأ أو كلاماً باطلاً.

(٣) الزوراء: الأرض البعيدة أو اسم لمدينة بغداد، وعالج الرمل التراكم الذي دخل بعضه في بعض.

وَحُذِّ يَمَنَةً مِنْهُ نَحْوُ الشَّمَالِ تَحْذُ عِنْدَ ذَلِكَ بَابَ الْفَرَجِ
وَصَوَّبَ إِلَى نَحْوِ غَرْبِيٍّ — تُصَادَفُ هُنَالِكَ بَابَ الْأَرْجِ
وَمِنْ حَوْلِهِ عُصْبَةٌ لَمْ تَزَلْ لَهَا تَحْتَ سَرِّحَتِهِ مُفْتَرَجِ
تُقْضَى نَفَائِسَ أَوْقَاتِهَا — بِأَخْبَارٍ مِنْ قَدْ مَضَى أَوْ دَرَجِ
فَإِنْ كُنْتَ عَنْ حَالِهِمْ سَائِلًا فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِهِمْ مِنْ حَرَجِ

★ ★ ★

ومما نظمه سقى الله ثراه صَيَّبَ غَفْرَانَهُ، وَأَسْكَنَهُ بِحَابِيحِ جَنَانِهِ، فِي
الْجَامِعِ الدَّنْكَزِيِّ أَيْضًا، وَقَدْ كَانَ لَهُمُومَةٌ مَجْلَى، وَلَغُومَةٌ مَسْلَى، وَهُوَ كَمَا
قَالَ:

أَرَأَيْتَ عَيُونَكَ مِثْلَهُ مِنْ مَجْلِسِ يَجْلُو بِبِهِجَتِهِ هُمُومَ الْأَنْفُسِ
مَا بَيْنَ دَوْلَابٍ يَثْنُ وَرُوضَةٍ تَزْهُوُ بِهَاتِيكَ الْغُصُونِ الْمَيْسِ
كَالزَّهْرِ لَاحَتْ فِي سَمَاءِ أَزَاهِرِ تَرْنُو فِتْلَعْبُ بِالْجَوَارِي الْكُنَّسِ
تَحْمُرُ مِنْ خَجَلٍ شَقَائِقُ نُورِهَا وَتَظَلُّ تَبْسِمُ عَنْ لَآلِي نَرْجِسِ
كَمْ قَدْ حَلَلْتُ بِهَا عَلَى رَغَمِ الْعَدَا فِي فَتْيَةٍ خَطَرْتُ بِأَفْخَرِ مَلْبَسِ
سَقِيًّا لِأَوْقَاتٍ بِهَا قَضَيْتُهَا بِشَوَائِبِ الْأَكْدَارِ لَمْ تَدْنَسِ
وَالْوَقْتُ صَافٍ وَالزَّمَانُ مُسَاعِدٌ وَالذَّهْرُ طَلَّقَ الْوَجْهَ لَيْنَ الْمَلْسِ
وَلَكُمْ حَلَلْنَا بِالْمَسْرَةِ حَوْلَهَا فِي كُلِّ وَادٍ بِالْهِنَاءِ مُقَدَّسِ

★ ★ ★

ومما نظمهُ أيضاً في دُولاب الجامع المذكور من المَوَال^(١)، قوله:

للجامع الدنكزي المشهور في الآفاق نهر وبستان على الروضة رياضه فاق
قَلْبُ النسيم حول دُولابو غداً خفاق يبكي فتبكي الحباييم له من الاشفاق

ولما تعطل أحد دولابي الجامع المذكور عن دَوْره، أنشد من فوره:

دولاب كان لو رفيق كيف سار معو ساير
مُنْذُ فارَقُو صار لبعده مضطرب حاير
ليله عليه ونهاره في الرياض داير ولازم النوح حتى أقلق الطاير

★ ★ ★

وله من قصيدة بديعة على حرف الحاء، لم يحضر في الآن سوى مطلعها وهو:

رِحَالُ الهموم هنا تُطْرَحُ وَصَدْرُ الكُتُبِ هنا يُشْرَحُ

ومما أملاه عليّ من لفظه أواسط شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة،
ما نظمهُ بإشارة الوزير مصطفى باشا، وقد أنشأ بدمشق دار العبادة،
سقى الله عهده وجاده، خاناً رفيع البناء، وسيع الأقطار والفنا، يكاد
ينقلب البصر خاسئاً وهو حسير في وسع ساحته، بل لا يكاد يجمع بين
قُطري مساحته، قوله:

حمداً لمولّى كريم شُكْرُهُ وَجَبَا على مقام له قلبُ العدا وَجَبَا

(١) كتب المؤلف في الهامش: «الموال قسم من الشعر، ويقال له المواليا أيضاً»، ويلاحظ أنه شعر بالعامية.

على مواهب لا تُحصى وأعظمها
تم البناء الذي تم السرور به
سبحان من بدمشق الشام يسره
بعون ذي العرش أنشأناه في مدد
ومن له هم من المجد عالية
سقى دمشق وواديها الفهم إذا
وجاد صوب الحيا خاناً أقيم بها
كانت محاسنها تزهو بأربعة
ماء وطيب هواء والرياض وما
وجامع ليس في الدنيا بأجمعها
فأصبحت ستة لما أضيف لها
خان بديع رسا كالطود وارتفعت
كأنها الفلك الأعلى أقام له

فلو رأى هرماً مريضاً شواهقه

لا قنسنسا حسداً في الأرض واضطرباً^(١)

وقصر سندان أو غمدان من يمن راما سجوداً له من رامة أدباً^(٢)

(١) اقننسا: تراجعاً وارتداداً إلى الخلف.

(٢) سندان ويقصد بها سندان ولكنه أتى به بالنون مشاكلة لكلمة غمدان التي بعدها، وسندان نهر بين الحيرة والأبلة وكان عليه قصد فتح إليه العرب، وهو القصر الذي عناه الأسود بن يعفر في شعره بقوله:

أهل الخوزنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سندان
انظر الديوان، وانظر معجم البلدان.

وغمدان بضم أوله وسكون ثانيه، قصر بناء ليشرح بن يحصب أحد ملوك اليمن بين =

وَالْأَبْلَقُ الْفَرْدُ مِنْ تَيْمَةٍ تَيْمَةٍ
وَمَسْجِدٍ فِيهِ فَوْقَ الْمَاءِ تَحْسَبُهُ
أَوْ غَرْفَةٍ مِنْ جَنَّاتِ الْخُلْدِ جَادِ بِهَا
تَظَلُّ مَنْ تَحْتَهُ الْأَنْهَارُ جَارِيَةٌ
تَوْسَعُ النَّاسُ فِي أَقْطَارِ سَاحَتِهِ
وَالْقَادِمُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ أَمِنُوا
أَلَيْسَ كَانَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ مُفْتَقِرًا
فَقَبِضَ اللَّهُ مَوْلَانَا الْوَزِيرَ لَهُ
ثُمَّ اشْرَأَبَتْ إِلَى الْحِمَامِ هِمَّتُهُ
وَصَاغَهُ مَفْرَدًا فِي قَالِبٍ حَسَنِ
فَجَاءَ أُعْجُوبَةً فِي الْوَضْعِ مُخْتَرَعًا
بِيرْكَةٍ ذَاتِ أَمْوَاجٍ مَبَارَكَةٍ
سَمَاوَهَا بَيْنَ أَقْبَارِ كَوَاكِبُهَا
طَوَالِغٌ لَمْ تَنْبُ فِي الدَّهْرِ أَنْجُمُهَا
لَهُ دَرُّ هَامٍ هَامٍ هِمَّتُهُ
يَزْدَادُ فِي كُلِّ حِينٍ بِالْعُلَا شَفْعًا

إِذْ شَامَ مِنْهُ بِشَامٍ بَارِقًا وَسَبَاً (١)
قَصْرًا مُشِيدًا سَمَا فِي الْجَوِّ وَانْتَصَبَا
رِضْوَانُ يَرْجُو الرِّضَا أَوْ يَحْتَشِي غَضْبَا
عَلَى حَصَى الدُّرِّ يَحْكِي مَأْوَهُ الضَّرْبَا
مِنْ بَعْدِ ضَيْقٍ وَحَصْرٍ أَوْ جِبَا شَفَا
وَأَحْرَزَ التَّاجِرُ الْجَلَّابُ مَا جَلَبَا
عَقْلًا وَكَانَ إِلَيْهِ الشَّرْعُ قَدْ نَدَبَا
فَاخْتِطَّ رَحْمَةً لِلنَّاسِ وَاحْتِسَبَا
وَعَزَمَهُ فَانْتَقَى الْآلَاتِ وَانْتَخَبَا
إِلَيْهِ بِالطَّبَعِ مَالَ الْقَلْبِ وَانْجَذَبَا
مَحَرَّرًا بِدَقِيقِ الْفِكْرِ مُقْتَضِبَا
عَنِ الْجُسُومِ تَزِيلُ الدَّاءِ وَالْوَصَبَا
تَزْهُوُ بِفَرْطِ جَمَالٍ مَنْ رَأَاهُ صَبَا
تُعَاصِرُ الْعُنُصْرَيْنِ الْمَاءُ وَاللَّهْبَا
سَمَا عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَّارِ فَاصْطَحَبَا
بِفِكْرَةٍ فِي الْمَعَالِي تَعَشَّقُ التَّعْبَا

صنماء وطيوة على سفح جبل، ثم سكنه الملوك منهم، ومن بينهم سيف بن ذي يزن الحميري، وهدم غمدان في عهد عثمان رضي الله عنه، انظر معجم البلدان ٣/٧٢٢، ٨١٢.

(١) الأبلق الفرد: حصن شامق كان السموال بن عاديا اليهودي بناء أبوه، وكان في تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب، وإنما قيل له الأبلق لأنه كان في بنائه بياض وحمرة، وتروى عنه قصص كثيرة، انظرها في معجم البلدان ١/٩٤.

وتيمه وسبا: أي أعجبه وأسره، وشام البرق: نظر إليه يتحقق مكان نزول مطره.

لما أراد شروعاً في عمارته
أقامه صورةً في الذهن جرّدها
ثم ابتنى طبق ما في العقل هندسة
وكان تأسيسه في طالع حسن
فالله يجزيه خيراً في المعاد وفي
لقد تحمل أمراً لو تجشّمه
أليس جاد بما تحوي خزائنه
وعمّ بالعدل والإحسان مفتناً
براحة لو رآها الغيث ما انسكبا
وهيبة لو رأتها الأسد مقبلة
كم قد كسا خلعاً كم قد عنا ورعاً
أقام حمامه هذا ليجعله
فازداد حُسن دمشق الشام واكتسبت
وأصبحت كمروس تنجلي فرحاً
والطلّ منسجم والزهر مبتسم
لا زال يرقى بأنواع الكمال إلى
بجاء خير الورى المختار من مُضَرٍ
صلّى عليه إله العرش ما اطلّعت

وصحح العزم بعد الحزم وانتدبا
عن الفواشي^(١) بعلم ليس مكتسبا
بناءً ذي حكمة تستنبط العجبا
سعد تيسر والسعدان ما غربا
دار البقاء جزاءً فوق ما طلبا
سواه قصر عن اتقانه ونبا
فلم يدع ورقاً فيها ولا ذهباً
فعل الجميل ولم يحفل بما ذهباً
وطلمة لو رآها البدر لاحتجبا
لأدبرت وتولّت في الفلا هربا
ولم يقل جزعاً في الحرب وأحرّبا
في الأرض مُعجزة تبقى له حبقبا
فخرّاً على سائر الدنيا وطيب نبا
في روضة رققت أغصانها طربا
تخال قطر الندى في ثغره شبا
أوج العلا وبنوه السادة النجبا
سميه المصطفى أعلى الورى نسا
شمس النهار وما سار الدجى خببا

(١) الفواشي: جمع غاشية، وهو ما يغطى على الذهن ويمنع التفكير السليم.

والآلِ والصحبِ والأتباعِ قاطبةً ما رَنَحْتُ عَذَبَاتُ الْبَانِ رِيحَ صَبَاً^(١)

★ ★ ★

وبما املانيه أيضاً من لفظه سقاه الله طيب غفرانه، وأفاض عليه
سجال إحسانه، ما نظمه أيضاً للوزير المزبور^(٢) مؤرخاً لبناء حمام بنائه
على شكل غريب، وطرح^(٣) يحار فيه الهندسة عجيب، ببركة أتقنتها يدُ
الصَّنَاع، وأبدعها فكره أيّ إبداع، وذلك عام ٩٧٥ قوله:

أيُّ حمامٍ هُنا قد بُنيَا	مثله في حسنه ما رُؤيا
بدمشق الشام قد أنشأه	مصطفى باشا سَمَا مُرتقيا
جَلَّ آلَـشام وأحيا حُسْنُها	وبه الرحمنُ عنها رَضِيَا
وكساها من نداه حُلُـلا	غير ناديةا بها ما حَظِيَا
وبها عَمَّ البرايا برُّه	عن يد تخجل منهلاً الحيا
فدمشق الشام زادت بهجّة	وبهاء مُذْ بها ما وَلِيَا
كم له من بنية قامت بها	ذات آثار ثراها سُقِيَا
قيصرٌ يقصر عن إنشائها	وبها إيوان كسرى نُسِيَا
فهي كالروضة حيّا زهرها	في السماء الزُّهر لما رُؤِيَا
أسفرت عن حسنّها مشرقة	ذات لألاء ونُور وضيّا
وبها الحقُّ تعالى خصّه	نعمّةً كان لها مقتضيا

(١) البان: شجر مستقيم الأفرع، لحب ثمره دهن طيب ينتفع به في كثير من أمراض الجلد، وعذبات البان: أطراف أغصانه.

(٢) المزبور بمعنى المكتوب، أو المذكور.

(٣) الطرح: الطول، يقال: طرح بناءه (بتشديد الراء) إذا طوله.

زاده الله وأبقى عزّه
كيف لا وهو يحبُّ العلما
عمر الحمام هذا رغبة
وبما قدّمه الحقّه
كل ما أنشأ قد كان له
أعمل الفكرة في إتيانه
واقتضاها صورة في ذهنه
ثم في الخارج قد أبرزها
فأتت أعجوبة في حنّها
كونت بالوضع والحكمة في
بين أرضٍ وسلك لم يزل
بين أنوار ونارٍ بحرّها
يا لها من بركةٍ حفّت بها
أي طهر وشفاء جمعاً
فأبقراط وجالينوس لو
لأقاما عندهما سوقهما
واين سينا لو رآه قال ذا

وعلاءه أبداً ما بقيا
وهو منهم ويحبُّ الأوليا
منه في إتمام ما قد بدأ
من وجوه نفعها ما خفيا
في مجاري الخير أيضاً مجريا
حين بالعقل غدا مقتديا
قبل حكم بشروع قضيا
طبّق ما في فكره قد جليا
مثلها في لطفها ما حكيا
ملتقى ضدّين حين التقيا
بلظاهها صخرها مضطّليا
ساكنٌ حين عليه التقيا
بركاتٍ نفعها قد قرّيا
لمريض جاءها مستشفيا
أبصرا أبزّنها إذ مليا^(١)
بعلاج نفعه قد رُجيا
عن دوا القانون أضحى مُغنيا^(٢)

(١) الأبرن: حوض يتل فيه، وقد يتخذ من نحاس.

(٢) القانون: اسم كتاب في الطب وضعه ابن سينا وبين فيه العلل وأوصافها وطريقة معالجتها وقد اهتم به الناس في المصور الوسطى وبخاصة الأوربيين الذين ترجموه ودرسوه في كلياتهم لفترة طويلة، وقد طبع آخر مرة في القاهرة عام.

واغتدى كلُّ طبيبٍ في الجَمَى عن سوى أُبزنها مُخْتَمِيا
فلماذا جعلوا تاريخَه خير همام لطبِّ بُنيا

★ ★ ★

ومن بديع نظمه متغزلاً في غزال ألى الشفة، بديع الصفة عام
٩٧٥^(١) قوله:

بأبي ألسُ المرائِف ألى مائِسُ القَدِّ ساحرُ الأجفان
سرق الجيدَ واللاحِظَ من الطبِّ يَ ولينَ القوامَ من غُصْنِ بان
عطفَتَه الصِّبا عليَّ ومالي بالصِّبا بعد ما تراه يدان
فتحاميت لثمهُ خيفةَ الإثِّ سم وأطلقتُ مُقلتي ولساني
آه لولا التقى ومعتك الشِّدِّ سبٍ لطاوعتُ في الهوى شيطاني

★ ★ ★

ومن نظمه العالي، المخجل عقود الدر والالآي، ما سُئل في نظمه من
بعض أكابر دمشق الشام، وقد نشأ بها شابٌ حَسَنٌ يسمى بابن حسام،
بِقَدِّ يُخجل الأغصان أهيفاً، ولحظ فاطر الأجفان أوطَفَ، بمثله يصول
على عشاقه إذا رنا، ويميسُ كالقضيب إذا انثنى، فنظم هذه القصيدة
الغراء فيه، أرقَّ من سلافة فيه^(٢):

كم باسمِ والده على عُشاقه يَسنطو فواحرَباه^(٣) من أخلاقِه

(١) زاد هذا التاريخ في الهامش، والأبيات التالية في ريجانة الألبا ١/١٧٥.

(٢) وردت الأبيات الثامن والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في الريجانة ١/١٧٦،
وانظر الكواكب السائرة ٣/٢٣.

(٣) الحرب: الويل والهلاك.

ظبيُّ ظُبا الحَاظِه قد جُرِّدَت
رَشًا كَحِيلُ الطَّرَفِ مَعْسُولُ اللَّمَى

يَفْتَرُّ عَنْ ثَغْرِ الثَّرِيَا ثَغْرَه
كَالْفُصْنِ فِي حَرَكَاتِه وَالظِّي فِي
فَاقِ الْمَلَّاحِ صَبَاحَةً وَفَصَاحَةً
يَسِي بِجَمْرَةٍ خَدُّهُ بِيضَ الدُّمَى
حَازَ الْجِهَالَ بِأَسْرَه فَمَجَّبُهُ
كَمَلْتُ مَحَاسِنُه وَتَمَّ كَمَالُه
وَاسْتَفْرَقْتُ أَعْطَافَه حُلَّ البِهَا
قَسَمًا بِصُبْحِ جَبِينِه لَوْ زَارَنِي
لَفَرَشْتُ خَدِّي فِي الطَّرِيقِ مَقْبَلًا
وَوَهَبْتُ مَا مَلَكَتْ يَدَيَّ لِمَبْشُرِي
وَصَفَحْتُ عَنْ زَلَّاتِ دَهْرِي كُلَّهَا
وَشَكَرْتُ سَعْيَ غَزَالِ نَرْبِ زَارَنِي
وَرَشَفْتُ عَذْبَ رُضَابِه بِاللَّحْظِ لَا
لِلَّهِ مَا فَعَلَ الْهُوَى بِمَتِّيمٍ
مَتْنَفْسٌ عَنْ نَارٍ وَجَدَ بِالْحَشَا
أَهْدَى أَرْقًى مِنَ النِّسِيمِ تَغْزَلَا
قَمَرٌ قَمًا قَلْبًا وَلَانَ مَعَاطِفًا
لَوْ قَدْ وَقَفْتُ بِدَيْعِ نَظْمِي كُلَّهُ

لِلْفَتَكِ بِالشَّاكِينِ حَوْلِ وَطَاقِهِ (١)
عَذْبُ الْمَرَاشِفِ بَاخِلٌ بِعِنَاقِهِ

وَيَنْوُو بِالْجُوزَاءِ تَحْتَ نِطَاقِهِ
لَفَتَاتِه وَالْبَذَرِ فِي إِشْرَاقِهِ
وَرَجَاحَةٍ فِي الْعَقْلِ بَيْنَ رِفَاقِهِ
وَبِيَاضِ مَعْصَمِه وَرَوْنِقِ سَاقِهِ
فِي اسْرِهِ لَمْ يَرْضَ حَلًّا وَثَاقِهِ
وَحَوَى السَّنَا السَّامِي عَلَى إِطْلَاقِهِ
فَبَدَائِعِ الْإِغْرَاقِ فِي اسْتِفْرَاقِهِ
جُنَحَ الدَّجَى وَسَعَى إِلَى مُشْتَاقِهِ
نَعَمَ الْجُفُونِ مَوَاطِنَ اسْتِطْرَاقِهِ
يَلْقَاءُ حَضْرَةَ مُنْعَمٍ بِوَفَاقِهِ
وَعِنَادِهِ فَيَا مَضَى وَشَقَاقِهِ
حِينَ الْغَزَالَةِ آذَنْتُ بِلِحَاقِهِ
يَمِيسُ مَبْسَمِيهِ وَلَا بِمَذَاقِهِ
لِلْهَجْرِ كَادَ يَذُوبُ مِنْ أَشْوَاقِهِ
لَمْ يُطْفِئْهَا عَبْرَاتُ فَيْضِ مَآقِهِ
لَغَزِيلِ مَا رَقَّ لِاسْتِرْقَاقِهِ
فَتَطَابَقَ الْوُصْفَانِ مِنْ أَخْلَاقِهِ
غَزَلَا عَلَيْهِ لَكَانَ بِاسْتِحْقَاقِهِ

(١) الوطاق أو الطاق: بيت الظبي أو الفتحة في الجبل.

نَفْسِي الْفِدَاءَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَرْضَنِ عَبْدًا وَلَمْ يَسْمَحْ بِزُورَةٍ نَاقِهِ^(١)
يَا أَيُّهَا الْبَطْلَ الصَّقِيلَ حَسَامُهُ وَالْحَائِزُ الْقَصَبَاتِ يَوْمَ سَبَاقِهِ
صِلْ مُغْرَمًا يَا بَدْرُ فَيْكَ مَتِيًّا وَاكْفُفْ بِنَارِ الْهَجْرِ عَنْ إِحْرَاقِهِ
وَلِكَلْمِهِ^(٢) اجْعَلْ مِنْ كَلَامِكَ مَرْهَمًا يُغْنِي لِدَيْغِ الْهَجْرِ عَنْ دِرْيَاقِهِ
وَاعْطَفْ عَلَيْهِ بِفَاءِ فَيْكَ وَلَا تَرُمْ بَدَلًا بِهِ وَتَوَقَّ وَشَكَّ فِرَاقِهِ
وَاسْلَمْ وَعِشْ مَتَبَوًّا أَوْجَ الْعُلَا مَا لَاحَ بَدْرُ التَّمِّ فِي آفَاقِهِ

★ ★ ★

وكان بين الأستاذ وبين مولانا العلامة القاضي معروف^(٣) من التآخي،
وشيجة أدب محكمة عرى الأواخي^(٤)، وما برحا على ذلك مدة وهما
كندما في جذية مودة، فلما كتب إليه وهو قاضٍ بمحمية صفد صحبة
ولده صدر الأفاضل وزين الأماثل الأمير نجمي^(٥) كثر الله في الأفاضل من
أمثاله، وضاعف من إجلاله، وقد أهدى له حلة من فاخر ثيابه، ونفيس
أثوابه، قوله^(٦):

(١) نقه بكسر القاف: إذا لم يبيل من مرضه.

(٢) الكلم: الجراح.

(٣) هو القاضي معروف الشامي، أديب ظريف وشاعر رقيق، يصفه الخفاجي بقوله: هو بمن
اتسم بالأدب في الحديث والقديم، وسرى ذكره كما سرى من الرياض النسيم، انظر الریحانة
. ١٩٧/١

(٤) الأواخي: جمع أخية، وهي الوند الذي تشد إليه عروة الدابة، وتطلق الأخية أيضاً على
المعروف، وعلى الحرمة والذمة، وكلها معانٍ صالحة لما هنا.

(٥) ذكره الخفاجي في ریحانة الألباء ٢٠٠/١، وقال فيه: تقلد سيف الإمارة، فلاحته عليه
من السعادة كل إمارة، وقال عنه إنه أديب شاعر، ثم ساق له بعض شعره.

(٦) الأبيات التالية ما عدا الثالث في ریحانة الألباء ١٨٣/١.

مخدومنا قاضي قضاة مدينتي صَفَدِ أَحَقُّ النَّاسِ بِالتَّفْضِيلِ
العالمُ الحَبْرُ الَّذِي مَعْرُوفُهُ تَزْرِي زِيَادَتُهُ بِيحَرَ النَّيْلِ
أَعْنِي الْهَمَامَ الْجَهْبَذَ الْعَلَمَ الَّذِي مَا زَالَ مَعْرُوفاً لِكُلِّ جَمِيلٍ
أَهْدَى لِنَحْوِي مِنْ مَخِيطِ ثِيَابِهِ جُمَلًا فَأَغْنَانِي عَنِ التَّفْصِيلِ^(١)

★ ★ ★

ثم عقب هذه القطعة بنثر ينجلُ الدُّرَّ في أسلاكه، ويُزري بلامع
الدُّرِّيِّ في مجاري أفلاكه، وهو قوله:

تَلَوْ تِلَاوَةً مِثْلَ الْأَثْنِيَةِ الْعَوَاطِرِ^(٢)، وَالْأَدْعِيَةَ الَّتِي يَشْهَدُ بِصَدَقِ
دَعْوَاهَا الضَّمِيرُ وَيُزَكِّيهِ الْخَاطِرُ، ثُمَّ لَمْ يَسَاطِ الثَّرَى، وَالتَّضَرَّعَ إِلَى إِلَهِ
يَسْمَعُ وَيَرَى، أَنْ يَخْلُدَ عَلَى الذَّاتِ الشَّرِيفَةِ سَوَابِغِ الْإِنْعَامِ، وَيَدِيمَ ظِلَالَهُ
الْوَرِيفَةَ عَلَى الْخَاصِّ وَالْعَامِ، لَا زَالَ جَاهُهَا مَبْذُولاً، وَبَابُهَا مَأْهُولاً،
وَفَضْلُهَا مَسْثُولاً، وَنَوَالُهَا مَأْمُولاً، وَحَدُّ الزَّمَانِ عَنْ جَنَابِهَا الرَّفِيعِ مَغْلُولاً،
وَأَخْلَقَ بَيْنَ هَاطِلَتِهِ عَلَيْهِ سَحَابُ عِنَايَتِهِ، وَرَفَرَفَتْ عَلَيْهِ أَجْنَحَةُ رِعَايَتِهِ،
أَنْ يَنْبُوَ عَنْهُ سَيْفُ الزَّمَانِ، وَتَحْبُوَ عَنْهُ نَارُ الْحِذْثَانِ، وَمَا أَقْرَبَ الْبَعِيدِ
إِذَا صَادَفَ أَسْبَاباً، وَوَافَقَ دُعَاءً مُسْتَجَاباً، هَذَا وَالْمَمْلُوكُ يُثَبَّتُ مَا عِنْدَهُ
مِنَ الْأَشْوَاقِ إِلَى مَشَاهِدَةِ جَمَالِهَا، وَالْفَوْزُ بِاقتباس أنوار كمالها.

(١) قال في الرِّيحانة: التَّفْصِيلُ فِي لِسَانِ الْعَامَةِ بِمَعْنَى قَطْعِ الثِّيَابِ الْجَدِيدَةِ، فَفِيهِ تَوْرِيَّةٌ، كَقَوْلِ
ابْنِ نَبَاتَةَ الْمَصْرِيِّ:

كَمْ جَمَلَةٌ وَصَلَتْ لِي مِنْ نَدَاكِ وَكَمْ تَفْصِيلَةُ أَلْبَسْتَنِي أَجَلَ الْحُلُلِ
حَتَّى لَقَدْ غَدَتِ الْمَدَاحُ حَاضِرَةً بَيْنَ التَّفَاصِيلِ مِنْ نَعْمَاكِ وَالْجَمَلِ
(٢) المِثْلَانِ: الْآيَاتِ تَتْلُو وَتَتَكَرَّرُ، وَفِي الْقُرْآنِ ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مِثْلَانِ﴾
تَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَالْأَثْنِيَّةُ: جَمْعُ ثَنَاءٍ وَهُوَ الْحَدِيثُ عَنِ الْحَاسَنِ وَالنَّعَمِ.

يُقْبَلُ الأرضَ مملوكاً لخدمتكم على الدُّعاء لكم ما زال مُنْعَكِفاً
عبداً لإِحسانكم لولا تفضُّلكُم ما كان في الحلقِ مذكوراً ولا عُرفاً

فلما وصل ذلك إلى مولانا العلامة القاضي معروف، كتب إليه أيضاً
مع ولده الأمير نجمي محمد المذكور، بقوله^(١):

يا مُفرداً أضحَتْ مَظَاهِرُ شَانِهِ	ما فوقها في الحُسْنِ غيرَ المَخْبِرِ
يا من تَتَلَبَّ فِكرَتي متبرئاً	أشكو الجفاء إلى السميع المنصِرِ ^(٢)
مَنِيَّ إِلَيْكَ مع الحبيب تحية	فُتِّقَتْ نَوَافِجُهَا بِمَسِّكَ أَذْفَرِ ^(٣)
من منطق يُزْهِي بِسَحَرِ ^(٤) بلاغةٍ	تُزْري حلاوته بطعم السُّكْرِ
فكأنَّها وكأنَّه وكأنَّها	من جوهرٍ في جوهرٍ في جوهرٍ
تُبْدي التداخل في الجواهر عَنوَةً	لبصيرة المقدام لا المتحيرِ
وكأنَّما قرطاسُها أَسْرارُنا	والْبَيْنُ بينهما سوادُ الأَسطَرِ
أَرْجُو على خير الوجوه ^(٥) يَقْرَبُ الدَّ	بَارِي تَعَالَى مَوْرِدِي من مَصْدَرِي
في ذلك الشرفُ المَعْلَى المنتهى	طربُ المشوقِ وجَنَّةُ المتذَكِرِ

ثم أتبع هذه القطعة المُرزية بخمائل الشجر، الظاهرة على أعطافها
مخايل السَّحَر، بنثيرٍ تودُّ الجوابات لو كان لها نطاقاً، والثريا أن يكون

(١) الأبيات التالية في ريجانة الألباء ١٩٧/١.

(٢) رواية هذا البيت في الريجانة هي كما يلي:

يا من تَتَلَبَّ فِكرَتي متبرئاً أشكو الجفاء إلى السميع المبصر

(٣) في الريجانة: مع النسيم بدل مع الحبيب، والنوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك في جسم
الظهي، والأذفر: الطيب الرائحة جداً.

(٤) في الريجانة: يزهو بحسن.

(٥) في الريجانة: على قرب المزار.

لَاذَانَهَا شُنْفَا وَأَقْرَاطَا، وَهُوَ قَوْلُهُ:

أَحْلُلْ نَشْرَ الرِّيحِ عِنْدَ هَبْوِهِ رِسَالَةَ مُشْتَقٍ لَوْجِهِ حَبِيبِهِ
خلاصة نتائج الأفكار، تُجْرِيهَا عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَقْلَامِ، فِي مِيَادِينِ
الْأَرْقَامِ، بِتَحِيَّاتٍ يَصْطَفِيهَا، وَأَدْعِيَةٍ صَالِحَةٍ مَعَ رِجَالِ الْغَيْبِ يُهْدِيهَا، إِلَى
مَنْ يَذْكُرُهُ الشَّرِيفُ النَّابِغِ، تَقَرَّرَ الْأَعْيُنُ وَتَلَذَّ الْمَسَامِعُ، الْمُتَمَتِّعُ بِإِرْثِ
النُّبُوَّةِ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْمُرُوءَةِ.

يُذِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُلِّ فَاحِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيهِ الْمَغَانِيَا
عَالِمٌ بِمُفْرَدِهِ عَالَمٌ، بِهِ تَفْتَخِرُ بَنُو آدَمَ، لَا يُشَقُّ لَهُ غِبَارٌ فِي الْمَنَاطِرَةِ،
وَلَا يُلْحَقُ شَأْوُهُ فِي الْحَاضِرَةِ، فَارَسُ الشَّرْعِ وَالشَّعْرِ، وَفَالِقُ بَتْدَقِيهِ مِنْهَا
الشَّعْرُ، لَهُ الْقُوَّةُ الْإِلَهَامِيَّةُ عَلَى اقْتِرَاحِ بَنَاتِ الْأَفْكَارِ، وَالْمَنْ الْعَزِيزُ عَلَى
كَشْفِ أَسْتَارِ الْأَسْرَارِ، لَا زَالَ رَيَّانٌ مِنْ مَاءِ الْعُلُومِ، سَارِيًّا فِي سَمَاءِ
مَعَالِيهَا مَسْرَى النُّجُومِ.

فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَمْ يُخْلَفْهُ مَوْعِدُهُ وَلَا تَخَلَّفَ يَوْمًا عَنْهُ أَسْعَدُهُ
فَلْيَهْنِ ذَا الْفَضْلِ نَعْمَى ظِلًّا حَاسِدُهَا بَغِيظُهُ مَا رَأَى مِنْهُ وَيَكْمِدُهُ

وَيُنْهِي شَوْقًا يَكَادُ الْقَلْبُ مِنْهُ يَسْتَطِيرُ، إِلَى مَشَاهِدَةِ ذَلِكَ الْوَجْهِ
الْمُنِيرِ، الَّذِي كُلَّمَا تَذَكَّرَهُ حَنَّ، وَتَنَفَّسَ تَنَفُّسَ الصُّعْدَاءِ وَأَنَّ، وَيَسْأَلُ ذَا
الْآلَاءِ وَالْمَنَّ، أَنْ يَجْمَعَ هَذَا الشَّمْلَ الْبَدِيدَ، فِي مَوْطِنٍ لَا يُنَاجَى فِيهِ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ.

مَرَضُ النَّسِيمِ وَصَحَّ وَالْدَاءُ الَّذِي أَرْجُوهُ لَا يَبْرِي لَهُ أَفْرَاقُ^(١)

(١) الْأَفْرَاقُ: جَعْفَرُ، وَهُوَ الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ.

وهذا خُفوقُ البرقِ والبرقُ الذي تُطوى عليه جوانحي خَفَاقُ

ثم، وماذا عسى أن يقول من جَرَحَ الأسى قلبه، وأذهب البينُ لبَّه،
ينتظرُ المنون حيناً بعد حين، وذلك حالٌ من ارتقى إلى سِنِ السبعين:

ووافى حياةَ الغابرين لصاحبِ حياةِ امرئٍ خائتَه بعد مشيب

ومن الله تعالى أسألُ حسنَ الخاتمة، وجلاء هذه الليالي القاتمة:

كان الشبابُ الغضُّ يجمعُنا في ظلِّ عيش ماله ضَبْطُ
فنأى الأحبةُ والشبابُ معاً فكأننا لم نجتمع قطُّ

وللهِ دَرُّ القائل (١):

أبدأً تستردُّ ما تهبُّ الدنيا فيا ليت جودَها كان بُخلا
فكفتُ كونُ فرحةٍ تعقبُ الغمَّ وخِلٌّ يغادرُ الوجدَ خِلاً

لكنْ للفقير رجاءٌ وأملٌ، في فضل ذي الفضلِ الجَلَلِ، فاطر السموات
والأرض عالم الغيب والشهادة، أن يَمُنَّ عليه بما تقرُّ به عينه، وَيَسِرُّ
قَواده، من الفوز بالرضا، والعفو عما مضى، والاجتماع بالذين أذهل حُبُّهم
قلبه، فَمُنَّ يا عالم الإسلام بالتأمين، فمَنك يُرجى الفتح المبين.

يا واحداً وحَدَّثَ رُوحِي مَحَبَّتَهُ لله في الله حيثُ الحبُّ يُحْتَسَبُ
يا عالم الشام يا من عِلْمُهُ عِلْمٌ بنوره يَهْتَدِي ناءٌ ومقربُ

(١) البيتان التاليان لأبي الطيب المشي، وهما في ديوانه ٣٤٢ ضمن قصيدة طويلة في رثاء
أخت سيف الدولة.

ذوفطنةٍ مثل حَدِّ السيفِ منصليّاً
موقراً لهم في كسب العلوم جفاً
يرى الجحود لما قد حاز من منح
فحبذا منه أخلاق مطهرةٌ
وحبذا منه ودٌّ لا تغيّره
يا مفرداً علماً يا واسعاً كرمًا
في حبٍّ مثلك تُرجى الصالحات غداً
كم جاهل بك في أسرارهِ مرضٌ
حاك ربُّك من ريب الزمان فما
لا زلتَ في درجاتِ العلم مرتقباً
من نورِ جوهرهِ تُستوهب القُضبُ
مضاجعَ النوم مُدَّ عزَّت به الرتب
غرّاً إذا عُدَّ لا نَبْعٌ ولا غَرْبٌ^(١)
لا شوطةٌ^(٢) يَحْتَشِي منها ولا غَضَبٌ
مرُّ الليالي ولا تنبو به النوب
يا هادياً أماً ألعجم والعربُ
في يوم لا نسبٌ يغني ولا نسبٌ
منك الشفاء له لو كان يَتَنَبُّ^(٣)
في كلِّ ما نلتَه من صالح ريب
ويَهْدِي بك اللهُ من للقرب يقتربُ

ولا يرح مولانا بأعباء الرسالة مستقلاً، وبأفياء السعادة مستظلاً، نور اللطف من كلامه يفوح، ونور السيادة من سنا مُحيّاه يلوح.

★ ★ ★

ومن القصائد الغر، والفرائد المحجلة عقود الدرّ، للأستاذ، ما كتب به إلى تلميذه الفاضل، أستاذ أدباء الأفاضل، محرّر الأشكال

(١) في الأصل: رتب بلد منح، وصححت في الهامش، والنبع: شجر ينبت في قلة (ذروة) الجبل، تتخذ منه القسي والسهام، والغرب: نوع من الشجر تتخذ منه السهام أيضاً وكلاهما جيد، وهو يصفه بأنه من تواضعه لا يعتبر علمه من هذا الصنف أو ذاك على سبيل التشبيه.

(٢) الشوطة: الغضب.

(٣) يتنب: يتنحي.

الاقليديسية^(١)، والأكر الهندسية الرستميدية^(٢)، القاضي تقي الدين بن مولانا القاضي معروف^(٣)، لا برج بمزايا دقائق الرياضي في الأنام بين الفضلاء معروف، وصحبته ساقية^(٤) تعطلت بعض دوائرها، ليصلحها بفكره الثاقب، ورأيه المنير الصائب، وهي قوله:

يا من يجرُّ على المجرة ذَلَّ هِمَّتُه العليَّه
وعلى الثوابت ثابتٌ قَدِمَا أَرُوْمَتُه الرَكِّيَّه
ومدارُ أوجِ الشمسِ تحوُّ تَ نطاقِ شيمته الوفيَّه

(١) الأقليديسية نسبة إلى أوقليدس، وهو من الفلاسفة الرياضيين اليونان، وكتابه في أصول الهندسة ويسمى «الاسطروشيا» نقله الحاج بن يوسف بن مطر نقلين، أحدهما في عهد هارون الرشيد ويعرف بالهاروني، والثاني في عهد المأمون ويعرف بالمأموني، وعليه يعمل، ونقله أيضاً إسحاق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة الحراي. انظر فهرست ابن النديم ٢٦٥.

(٢) الأكر الهندسية: علم يبحث فيه عن الأحوال العارضة للكرة وهي الجسم المعروف الذي يحيط به سطح واحد مستدير في داخله نقطة تكون جميع الخطوط المستقيمة الخارجة منها إليه متساوية وتلك النقطة مركز حجمها سواء كانت مركز ثقلها أو لا، وقد يبحث فيه عن أحوال الأكر المتحركة، وكلاهما من فروع علم الهيئة وبراهينه تتوقف على هذين.

انظر كشف الظنون ١/١٤٢، وقد نقل فيه هذا التعريف عن القاضي تقي الدين الراصد، الآتي ذكره.

(٣) هو محمد بن معروف الدمشقي الأسدي، ويعرف بالراصد، تقي الدين، أمير المجاهدين، ملكي، رياضي، حاسب، من القضاة، ولد بدمشق عام ٩٣٢ هـ، وولى القضاء بدمشق ونابلس، من مؤلفاته: بغية الطلاب في علم الحساب، وريحانة الروح في رسم الساعات على مستوى السطوح، وسدرة منتهى الأفكار في ملكوت الفلك الدوار الخ، توفي بالقسطنطينية عام ٩٩٣ هـ.

انظر الأعلام ٣٢٦/٧، معجم المؤلفين ٤٠/١٢، وانظر ریحانة الألبا ١/١٥١، وكشف الظنون ١/١٤٥، ١٤٦.

(٤) قال في الهامش: قوله ساقية، يريد بها ساعة من عمل الإفرنج، سميت بذلك لدورانها على التشبيه.

من ذا يناهز أو يقا
 أو من ينال مواهباً
 ومناصباً قلَّدتها
 أنال رتبة فاضل
 وإليه أسند علم وا
 وتحفظ الكتب النفيسة
 جمع الهداية والهدرا
 وحوى اللطائف والمعا
 وفوائد وقواعداً
 فعلى المخطى ثم
 وأبان أشكالاً بأشكا
 وغدا بصادق حدسه
 فكأنما يوحى لفظ
 يا واحداً جمع الفضا
 عطفنا لنحوك آلة
 سلب الدجى لما سجدى
 هجرت وليس لها إذا
 فعت بقصة مشتك
 ربُّ كنه قدرك في البريه
 قدماً خصصت بها هنيه
 عفواً بكم المولوية
 سلك الطريق الفاضليه
 لديه المقدس عن وصيه
 في صباه بالمعيه
 ية والرواية عن رويه
 رف والعلوم الأخروييه
 رسخت بفهم منطقييه
 تعقب في المناظر من قضيه^(١)
 ل الخطوط الهندسييه
 يستنبط الحجج المضييه
 نته بأسرار خفييه
 ئل والصفات الأوحدييه
 آلت إلى صفة ردييه
 عن ذاتها حن السجيه
 طلب التأسي من أسيه
 يحمي جنابك عن حميه

(١) المخطى كلمة يونانية تعني «التعاليم»، وأطلق هذا الاسم على كتاب بطليموس اللودي
 الذي يشرح فيه علم التنجيم ويثبتته بالبرهان الهندسي، وقد ترجم وشرح مراراً. انظر
 الفهرست ٣٧١.

تشكُّو وقوف الحال وا	قفة ببابك مستحيه
متجنباً لسماعها	فكأننا هي أجنبيه
تبغي مواصلة السرى	ويعوقها خوف السرى
كاد التصدي للصدا	يمحو محاسنها الجليّه
عدمت منها فانبرت	تُذري دموعاً عنديّه
فاجبر بلطفك كرها	بيد أناملها نديّه
حتى تعود كأننا	كُييت ملابس سندسيّه
وتجرُّ في إصلاحها	تحرير قسمتها السويّه
لا زلتَ يا اتقى القضا	ة على الولاة لك المزيّه
ما تحرّك الفلك الحي	طُ بهمة نفس قويّه
أو سار نجم بيتغي	شرفاً ومنزلة سيّه

★ ★ ★

ومما املانيه من لفظه ما كتب به إليه أيضاً، أفاض الله على مشواه
سجال عفوه ورضاه، مع ناظورة^(١) أرسلها، وقد كان يألفها، وقد
استطار زُجاجها، وأسلمها بعد التأسك عاجها، ليجير من عظمها
الكسير، بنظره الإكسير، قوله وهي من غرر أشعاره:

يا أيها المولى الذي من شأنه	جير الكسير إذا استطارت أعظم
وبجدس فكرته وثاقب ذهنه	يلتام منصدع ويكشف مُبهم

(١) الناظورة: لعله يعني بها النظارة أو المنظار، وهو الذي يتركب من عدة وإطار مناسب
للقراءة به أو رؤية الأشياء البعيدة أو نحو ذلك.

وافتك يا نورَ العيونِ نواظراً تتلو القطيعة وصلها يتحتم
وعليه يعرض جابرٌ إكسيرة^(١) وله ابن سينا والإمام يُسلم
فتلقها بالجبر منك تكرماً فلأجل عين ألف عين تُكرم
لا زلتَ مخصوصاً بباهرِ حكمة ما لاح برقٌ ثغره يتبسم

وقصيدة لتقي الدين الراصد إليه

وما كتب إليه، دامت سوايغ النعم لديه، تلميذه مولانا العلامة تقي الدين المذكور هذه المقصورة المزرية بدلها مقصورات الخيام، وهو بدمشق الشام، مستدعيًا منه ما استجد من نظم قصائده، ودُرُّ فرائده ليجمع ذلك، وهي^(٢):

يا كعبة يؤمها أولو النهي وسدرة الفضل إليها المنتهى
لأنت في العالم فردٌ علّم بل أنت كلُّ الخلق علماً وهدي
والفضل لما قال إن مالكي في الشام كلُّ قد أقرَّ بالولا

(١) جابر بن حيان، الصوفي، الفيلسوف الكيميائي الأشهر، من أهل الكوفة، اتصل بالبرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى، وتوفى بطوس عام ٢٠٠ هـ، وله مصنفات كثيرة قيل بلغت خمائة، وقد نقل الإفرنج كثيراً من كتبه، ويقول عنه برتلو: لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق، وهو أول من استخرج حامض الكبريتيك، وأول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استحضر ماء الذهب، وكربونات البوتاسيوم والصوديوم ومركبات الزئبق واستحضرها. انظر الفهرست ٣٥٤، والأعلام ٩٠/٢.

(٢) الأبيات الستة الأولى عدا الرابع، ثم البيت الثالث عشر في الرجاسة ١٥٢/١، ويذكر الخفاجي أن الشعر الآتي شعر وسط....، ويستطيع القارئ أن يلمس هذا بنفسه عند قراءته.

لشيخ الاسلام على الإطلاق في
 رفعتَ قدراً وعلوتَ رتبةً
 وفقتَ أهل الأرض بالعلم الذي
 إن جال بحث أو تراءى مشكل
 في حلبة الفتيا لك التقديم إذ
 كثافُ أسرار العلوم عمدة
 وفي أصول الشرع أنت عضدُ
 ١٢ ب وفي الكلام الجوهر الفرد له
 منطقك الرائق في تصديقه
 يصرفُ لبَّ المرء نحو لفظه
 لك البلاغة التي لو رامها
 فصاحة لو أن سحبان أتى
 قصائد في نظمها كدُرٍ
 ماذا امرؤ القيس فلو أبصرها
 والقصد من مولاي أن يسمح في
 خصوصاً الآن التي قد برزت
 في مدح قاضي الشام فالعبدُ
 وجمع الآن الذي أمكنه
 لا زلتُم للخلق ذخراً ملجأً

هذا الزمان بل وفيما قد مضى
 وفزت بالتقديم حال الابتدا
 أوتيته مولاي من ربِّ السما
 أوضحت للطلاب ما قد اختفى
 تجلو المهمات فأنت ابنُ جلا
 مفتاحُ كنز الحق إرشادُ المَلَا
 توضح للطلاب ما فيه خفاً
 مقاصدُ تجريدُها له نبأ
 نتيجة تُبدي القياس بالسوا
 إذ يُعربُ الفعل على هذا البنا
 قبلُ الحريري لأعياء المدى
 في عصرنا كان عنها قد روى
 لا بل دَرارٍ في السمو والعلا
 لكان لا يُدعى بإلاً عبداً
 شيء من المسودات ما يثا
 من خدرها كما العروس تجتلى
 لقد ألزم نفسه بجمع ما رأى
 من نظم مولانا لعل وعسى
 والله يبيِّقكم على طول المدى

★ ★ ★

ومن لطائف المولى شيخنا العلامة، أجله الله دار المقامة، ما كتب به
 لمولانا تقي الدين المذكور مع خادمه أبي الرضا مداعباً، ولأذيال المجون
 مجاذباً، قوله:

أبو الرضا بَرِّقَ تبريقاً عيناها تغريباً وتشريقاً

فحَاكُم أَحْبَبَهُ جَاكَمُ يطلب للقهوة إبريقا
يشكو إلى حضرتكم فاقَةً سَلَّتْ على الخير بواريقا^(١)
لا زِلْتُمْ بين الورى مَلْجَأُ يتلَعُ الشاكي بكم ريقا

★ ★ ★

سأل بعضُ أكابر دمشق منه قُدُس سرُّه عن قائل هذا البيت:

لا ضُرَّ أَحْبَابِي ولا رُوعُوا سِرْنَا فما زاروا ولا ودَّعُوا

فأجاب عن السؤال، وذَيَّل عليه بقوله في الحال:

يا مَنْ لَصَبٌ بين أَطْلَاهُمْ يهيمُ لا يَرْقَا له مَذْمَعُ
تَرْحَلُوا فالسَّادَرُ من بَعْدِهِمْ لُبُعُهُمْ أَطْلَاهُما بَلْقَعُ
خَلَّتْ كَأَن لَمْ يَكُ فيها لَنَا مقام أنسٍ لا ولا مَرْبَعُ
يا هَلْ لِمَاضِي عَيْشِنَا عَوْدَةٌ مَفْتَرِقُ الشَّمْلِ بها يُجْمَعُ
لا، آخَذَ الرِّحْمُنُ من ضِيْعُوا. وَدَيَّ وَإِنْ خَانُوا وَإِنْ ضِيْعُوا
حَثَّوْا السَّرَى بَغِيًّا ولم يَرْحَمُوا ضَعْفِي والبَغْيُ لَهُ مَرْعُ
نَذَرْتُ إِنْ عَادُوا لَهُم مَهْجَتِي هِيَهَاتَ ما في عَوْدِهِمْ مَطْمَعُ

★ ★ ★

(١) في الأصل: براريقا، والتصحيح من النسخة ب، والبواريق يعني بها التهديد والوعيد، أو هو لمان السيف عند تحريكه للتهديد به.

ومن قوله في التشوق إلى وطنه

وما نظمه رَوَّحَ الله روحه . ووالى في غرف الجنان فتوحه ، يتشوقُ إلى
أوطانه بتونس الغرب ، ويحنُّ إليها حنين الواله الصَّبِّ ، في سنة ٩٥٥
لكنه لم يُكملها ، فإني وجدتها هذا القدر بخطه ، مثبتة في قِطْعِهِ (١) :

تذكرُ الغربَ مُضْنَى القلب شائقه مُذْ لَاحَ في الأفق الغربي بارقه
وشام جنح الدجى بالشام منه سناً فانهلّ مدمعه سحاً يسابقه
يا ساهر البرق أيقظْ بالوميض فتى أمسى يُسَاهِرُ صَبّاً أو يُرافقه
ويا حمام اللوى رفقا بمكتب بأهلِ ذاك الحمى نيطت علائقه
هيجتَ بالنوح من أشجانه شَجناً فاعتاده من وجيب القلب خافقه
لم تكتحلْ بسهادٍ مُقلّته الى أن للورى فلق الإصباحَ فالقُهُ

ومن باب حنينه لأوطانه ، وتذكره معالم أوطاره واخوانه ، ما نظمه
متشوقاً إلى بلدته تونس مسقط رأسه ، ومشتعل نيراسه ، يذكر فيها معهد
شبابه الرائق ، وعهد عيشه الفائق ، حيث غُصْنُ الشباب قَيْنان ، ومن
ماء الصَّبِّ والتصافي رَيّان ، وهي الغاية في باب الاشتياق والحنين ،
والواسطة (٢) في عقد النظم الثمين ، وذلك سنة إحدى وخمسين
وتسعمائة (٣) بدمشق الشام ، حيث قال (٤) :

(١) القط : الكتاب الذي يحاسب به الإنسان ، أو الكتاب مطلقاً وهو المقصود هنا .

(٢) الوساطة : ما يتوسط العقد من جوهره نفيسة .

(٣) في هذه السنة يكون ابن عبد السلام قد قضى عشرين عاماً من عمره في دمشق ، فقد دخلها
وهو في الثلاثين ، وحيث إنه ولد سنة إحدى وتسعمائة وقد أوفى بذلك على الحسين أو
جاوزها بقليل فإذاً يكون قد قضى في دمشق عشرين عاماً ، والواقع أنه سوف يعيش فيها بعد =

سَلُّوا الْبَارِقَ النُّجْدِيَّ عَنْ سُحْبِ أَجْفَانِي

وَعَمَّا بَقَلِي مِنْ لَوَاعِجٍ نِيرَانِي
وَلَا تَسْأَلُوا غَيْرَ الصَّبَا عَنْ صَبَابِي
فَمَا لِي سِوَاهَا مِنْ رَسُولٍ إِلَيْكُمْ
فِيَا طَالَ بِالسَّحَارِ مَا قَدْتُ كَفَلْتُ^(١)
وَتَنْفِيسِ كَرْبٍ عَنْ كَثِيبِ مُتَيْمٍ
فَلَلَهُ مَا أَذْكَى شَذَا نَسَمَةِ الصَّبَا
وَسَارَتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ وَهَنًا فَأَصْبَحْتُ
وَقَدْ وَقَفْتُ بِالشَّامِ وَقَفَةً حَامِلٍ
لِتَرْتَاضٍ فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ هَنِيئَةً
وَمَا غَرِبْتُ حَتَّى تَضَاعَفَ نَشْرُهَا
فَكَمْ نَحْوَكُمْ حَمَلْتُهَا مِنْ رِسَالَةٍ
وَنَاشَدْتُهَا بِاللَّهِ إِلَّا تَفَضَّلْتُ
وَشَدَّةَ أَشْوَاقِي إِلَيْكُمْ وَأَشْجَانِي
سَرِيعُ السَّرِيِّ فِي سَيْرِهِ لَيْسَ بِالْوَانِي
بَانْعَاشٍ مَحْزُونٍ وَإِيقَازٍ وَسَنَانٍ
يَحْنُ إِلَى أَهْلِ وَيَصْبُو لِأَوْطَانٍ
صَبَاحًا إِذَا مَرَّتْ عَلَى الرُّنْدِ وَالْبَانَ
مِنْ الشَّرْقِ نَحْوَ الْغَرْبِ تَجْرِي بِحُسْبَانٍ
نَوَافِجٍ مِنْكُمْ مِنْ ظِبَاءِ خِرَاسَانَ
وَتَزْدَادُ مِنْ أَزْهَارِهَا طَيْبَ أُرْدَانٍ
بِوَاسِطَتِي رَوْحٍ هُنَاكَ وَرَيْحَانٍ
مُدُونَةٍ فِي شَرْحِ حَالِي وَوَجْدَانِي
بِتَبْلِيغِ^(٢) أَحْبَابِي السَّلَامَ وَجِيرَانِي

= حتى سن الخامسة والبعين إلى أن توفي، وبالرغم من تشوقه وحنينه هذا إلى بلاده، وبالرغم
كذلك من أنه كان فقيراً يقاسي شظف العيش إلا أنه آثر الحياة في دمشق، والحقيقة أن دمشق
مدينة عظيمة حقاً، عظيمة بروعة التاريخ التي تفوح من كل شق فيها، وعظيمة بأهلها الذين
تحس فيهم بدمائة الخلق مع الإباء والشم الذي يتناسب مع عظمة تاريخهم وروعته، هذا فوق
احترامهم وتقديرهم للعلماء الذين يقدون إليهم، هذا التقدير الذي يمد أجل مكافأة يظفر بها
العالم، وقد تكون تعويضاً لبعده عن وطنه وتولية لحنينه إليه، كما ترى مع هذا الشيخ الجليل
ومع الكثير غيره من العلماء الذين آثروا الإقامة فيها.

(٤) ترد الأبيات السبعة، ثم الثاني عشر، في ريجانة الألبا ١٨٧/١.

(١) في الريجانة: تكلفت.

(٢) في الريجانة: لتبليغ.

تحيّة مشتاقٍ إلى ذلك الحمى
 سقى الله هاتيك الديار وأهلها
 وحيّا ربوعَ الحيّ من خير بلدةٍ
 هي الحضرة العُليا مدينة تونس
 لها الفخر والفضلُ المبين بما حوتْ
 ١٤ أ لقد حلّ منها آلُ حفص ملوكها^(١)
 وسادوا بها كلّ الملوك وشيدوا
 وكان لهم فيها بهاءٌ وبهجةٌ
 وكان لهم فيها عساكرُ جةٌ
 جيوشٌ وفرسان يضيّق بها الفضا
 وكان لأهلها المفاخرُ والعلا
 وكان على الدنيا جمالٌ بحسنا
 وكانت لطلاب المعارف قبله
 وكان لأهل العلم فيها وجاهةٌ
 وكان بواديها المقدسِ فتيةٌ
 ومن أدباء النظم والنثر معشرٌ

وسكّانه والنازحين بأظمانِ
 حائب تحكي صوبَ مدمعي القاني
 تخيّرها قدماً أفاضلُ يونانِ
 أنيسة إنسان رآها بإنسانِ
 من الأنس والحسن المنوط بإحسانِ
 مراتب تسمو فوق هامة كيوان
 بها من مباني العز أفخر بنيان
 وحسن نظامٍ لا يُعاب بنقصان
 تصولُ بأسياف وتسطو بُمرانِ^(٢)
 وتحجم عنها الفرس من آل ساسان
 وكان بها حصنا أمانٍ وإيمانٍ
 وحسن بنيتها من ملوك وأعيان
 لما في حماها من أئمة عرفان
 وجاءَ وعزٌّ مجده بالفاني
 تُقدّسُ باريها بذكرٍ وقرآن
 تفوقُ بناديها بلاغة سحبان

(١) آل حفص: أسرة عربية تولت حكم تونس من سنة ٦٢٥ هـ إلى ٩٨٢ هـ، وأولهم أبو زكريا يحيى بن حفص الهنتاتي الذي استقل عن الموحدّين عام ٦٢٥ واتخذ لقب أمير، ثم توالى على الحكم أربعة وعشرون والياً منهم آخرهم أبو عبد الله محمد السادس بن الحسن الذي تولى عام ٩٨٢ هـ ثم عزله الأتراك واستولوا على البلاد نهائياً عام ٩٨٣ هـ.

انظر معجم الأنساب والأسرّات الحاكمة في الإسلام ١١٥-١١٦.

(٢) المران: الرماح الصلبة اللدنة، واحدها مرانة.

وكانت على الأعداء في حومة الوغى
 وما برحت فيها محاسن جنة
 إلى أن رمتها الحادثات بأسهم
 فما لبثت تلك المحاسن أن عفت
 وشئت ذاك الشمل من بعد جمعه
 فأعظم برزؤه خصّ خير مدينة
 لعمري لقد كادت عليها قلوبنا
 وقد عمنا غمّ بعظم مصابها
 وما بقيت فيما علمناه بلدة
 فصبراً أخي صبراً على الحنة التي
 فما الدهر إلا هكذا فاصطبر له
 أحبابنا إن فرق الدهر بيننا
 فإنني على حفظ الوداد وحقكم
 ووالله والله العظيم أليّة
 لقد زاد وجدي واشتياقي إليكم
 فلا تحسبوا أنني تسليت بعدكم
 ولا أنني يوماً تناسيت عهدكم
 ولا راقني روض ولا هشّ مسمي
 ولا حلّ في فكري سواكم مخلوة
 وما اختلجت يوماً ضائراً مهجتي

تصول بأبطال وتسطو بشجعان
 وفي كل نوع أهل حذق وإتقان
 وسلت عليها سيف بني وعدوان
 وأقفر ربع الأنس من بعد سكان
 كما انتثرت يوماً قلائد عقيان^(١)
 وخير أناس بين عرب وعُجّان
 تضرّم من خطب عراها بنيران
 وإن خصّني منه المضرّ بجثاني
 من الشرق إلا ألبست ثوب أحزان
 رمتك بها الأقدار ما بين إخوان
 رزية مال أو تفرّق خلان
 وطال مغيبي عنكم منذ أزمان
 مقيم وما هجر الأحبّة من شاني
 على صدقها قامت شواهد برهان
 وبرّح بي طول البعاد وأضاني
 بشيء من الدنيا وزخرفها الفاني
 بحال ولا أن التكاثر ألهاني
 لنفمة أطيّار ورنة عيدان
 ولا جلوة ما بين حور وولدان
 بغيركم في سرّ سري وإعلاني

(١) العقيان: ذهب متكاثف في مناجه، خالص مما يحتلط به من الرمال والحجارة.

ولو لم أَسَلَّ النفسَ بالقُربِ واللقا
فما أنا من عَوْدِي إِلَيْكُمْ بِأَيِّ
عليكم سلامُ الله في كُلِّ ساعةٍ
مدى الدهر ما ناحتْ مطوْقَةٌ وما
لأُذْرجَ جِسمي في مقاطعِ أكفانٍ
فما اليأسُ إِلَّا من علامةِ كفرانٍ
تحيّةُ صَبٍّ لا يدين بِلُوانٍ
تعاقبَ بين الخافقينِ الحديدانِ

★ ★ ★

وما قاله قُدُسُ سِرِّهِ في المعنى، هذه القطعة متأسفاً لما بلغه تغلب
الإفرنج على تلك الديار ومتهلفاً، قوله:

كم من أسيرِ ماله من فادي من تونسٍ أضْحى بِمَحَلِّ الوادي
يبيكي عليه بها بقايا أهله إن كان ذا أهلٍ وذا أولادٍ
أولاً فتُبكيه المنازلُ والرُّبى ورسومُ أطلالِ بذاك النادي
ويظُلُّ يبيكيه الغمامُ بأدمعٍ تنهلُ من سُحبِ هناك غَوادي
لَهْفِي على تلك الديارِ وأهلها . لَهْفُ ابنِ عَبادٍ على عَبادٍ

قوله: قصد الإحاض

١٥ أ وقال رَوَّحَ الله رُوحه، وأَجْزَلَ من الرحمن فتوحه؛ في غرض من
الأغراض قصد الإحاض^(١)، عام أربع وستين وتسعمائة:
أَقْسَمْتُ بِالرَّحْمَنِ لَا بِالْفَجْرِ وَلَا بِأَنْاءِ لَيْلٍ عَشْرِ^(٢)

(١) الإحاض: قصد مؤانسة الإخوان بالحديث والشعر.

(٢) الليالي العشر الواردة في الآية الكريمة ﴿والفجر﴾ وليال عشر هي العشر الأخيرة من =

ولا بشفع مُرْدَفٍ بَوَثَرٍ ولا بِجُنْحِ الليل حين يَري^(١)
ولا برادات الضحى والعصر^(٢) وما حوى الجِمارُ يوم النحر
لقد فتكتُ فتكةَ الهَزْبِ لا فتكة البراض نجل عمرو^(٣)
ولا بني الخزرج يوم بدر^(٤) بضربة فُوتق عِقد النحر
ضربة لا غَمِرَ ولا ابن غَمِر^(٥) ولا خبيث الأصل غير حُرٍّ
ولا ابن نَخَالٍ حَقِيرِ القَدَرِ نَذَلْ عديم رفعةٍ ووَفَرِ

رمضان، وذلك تفسير ابن عباس للحديث المتفق على صحته، قالت عائشة رضي الله عنها
«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مثزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»،
أما عند غيره فهي الليالي العشر الأولى من ذي الحجة، انظر البحر المحيط ٤٦٨/٨.
(١) الشفع: يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، وهذا أشهر ما قيل فيها، والليل
إذا يري: يري أي يدبر. انظر المصدر السابق.

(٢) قال ابن عباس: أقسم الله تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لا فيها من دلائل القدرة.
والعصر وقته من صلاة العصر إلى المغرب، والضحى من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس،
وهذان الوقتان بسمان الأبردان لا فيها من طيب الجو وبرودته، ولعل هذا هو ما يعنيه
الشاعر برادات الضحى والعصر.

(٣) الهزبر: الأسد، والبراض بن عمرو هو على التحقيق البراض بن قيس بن رافع الصخري
الكناني، فأتك جاهلي يضرب بفتكه المثل، تبرأ منه قومه ففارقهم وقدم مكة، ثم رحل إلى
المراق، ومنها إلى المدائن حيث أراد أن يضمن قافلة كسرى التي تذهب بالتجارة كل عام
إلى بلاد العرب، وكان ضمينها وحارسها عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب، فرفض
كسرى عرض البراض بأن يكون مكانه، فترى هذا بعروة ثم قتله، فهاجت حرب الفجار
بين خندف وقيس، وكان حوالي سنة ٣٨ قبل الهجرة، ومات هو قبلها نحو عام ٣٥ هـ.
انظر مجمع الأمثال ٢٣/٢، وثمار القلوب ١٠١ وجمهرة الأنساب ١٧٥، وسيرة ابن هشام
٦٢/١، والمحرر ١٩٠.

(٤) كان الخزرج يوم بدر أكثر المقاتلين عدداً، إذ كان الجيش كله ٣١٤ رجلاً، منهم ٨٣ من
المهاجرين، و٦١ من الأوس، ومائة وسبعون من الخزرج، وقد أبلوا في المعركة أحسن البلاء
رضي الله عن أصحاب بدر جميعاً، انظر السيرة النبوية ٣٧١/٢.
(٥) الغمر: من لم يجرب الأمور.

هَلْبَاجَةٌ^(١) عَلَّامَةٌ فِي الشَّرِّ يَفْخَرُ بِالْفَسْقِ وَهَتْكَ السِّرَّ
أَفْسَقُ مِنْ قِحَابٍ شَطٌّ تَغْرِ كَمْ حَكَّ بَطْنَ غَيْرِهِ بِالظَّهْرِ
وَحَكَّ ظَهْرَ الْأَرْضِ كَالْمُسْتَشْرِ^(٢) بَلْ قَسَا بِالسَّابِحَاتِ الزُّهْرِ
السَّانِحَاتِ بِاللَّيَالِي الْقَمَرِ وَالظُّبْيَاتِ النَّافِرَاتِ الْعُفْرِ
بَيْنَ الْخَزَامِيِّ وَالْعَرَارِ النَّصْرِ يُعْطِرُ الْكَوْنَ بِطِيبِ النَّشْرِ
إِنِّي فِي الْفِتْكَ وَحِيدٌ دَهْرِي وَفِي الْمَهْمَاتِ فَرِيدٌ عَصْرِي

قوله في فضل علم الحديث

وقال - قدس الله سره، وأجزل له عطاءه وبره، مُحَثًّا على طلب علم الحديث لطلّاب الكمال، وأنه العلم النافع في الحال والمآل، في عام ثلاث وثلاثين وتسمائة:

عَلَّمَ الْحَدِيثَ أَجَلَ عِلْمٍ يُطْلَبُ وَأَحَقُّ مَا يَزُولِي اللَّيْبُ وَيَكْتَبُ
وَأَعَزُّ مَا صَرَفَ الْفَتَى أَوْقَاتَهُ فِي جَمْعِهِ نَظْمًا بِهِ يَتَقَرَّبُ
فَهُوَ الْوَسِيلَةُ الْمُغْلَى فِي حَالِهِ وَمَالِهِ وَهُوَ الْغَامُ الصَّيِّبُ
مَنْ نَالَهُ قَدْ نَالَ حَظًّا وَافِرًا وَغَدَاً لَهُ ذِكْرٌ يَطِيبُ وَيَعَذِّبُ
وَمَنْ انْزَوَى عَنْهُ الْحَدِيثُ وَعِلْمُهُ فَهُوَ الشَّقِيُّ الْخَائِرُ الْمُتَذَبِّذُ
وَقَدْ انْتَقَيْتُ عَيُونَهُ فَنَظَّمْتُهَا لِلْمَبْتَدِي شِعْرًا يَرُوقُ وَيُغْرِبُ

يشير إلى أرجوزته التي نظّمها في علم الحديث، قدّس سره،

(١) الهلّابجة: الأحمق الضخم القدم الأكل الجامع لكل شر.

(٢) المستشري: الذي عظم داؤه وتفاقم.

في منع إعارة الكتب

ومما قاله في عدم إعارة الكتب لمن لا يهتم بحفظها، وصَدَقَ:

إعارةُ كُتُبِ المرء من لم يكن له مزيدَ احتفاظٍ غاية الظُّلم والإفك
فلا تُعِرِ الجُهَّالَ كُتُبَكَ مُطْلَقاً ولا سيما ما كان منها بلا حَبْك^(١)
فيخلُوبها من ليس أهلاً فتفتدي مُقْلَبَةً الأوراقَ عَادِمَةَ السُّلْك

يهجو متولي الجامع الأموي ونائبه

ولما أن خلتُ توليةَ جامع بني أمية بدمشق الحمية، وجهها قاضي
قضائها. مولانا علي أفندي الشَّهير بقَفَّةٍ لي زاده^(٢)، أسبغ الله ظلاله،
وضاعف جلاله، إلى إسماعيل العجمي الهمداني^(٣) المنبوز بزנקولا، وكان

(١) الحبك: شد الفتل وتقوية العقد، وهو يعني بالنسبة للكتاب ما يشبه التجليد اليوم.
(٢) هو المولى علي بن إسماعيل قتالي زاده، فاضل من القضاة، ولد في قسبة (سبارة من لواء حميد سنة ٩١٨ هـ، وتوفي عام ٩٧٩ هـ، من مصنفاته: «رسالة سيفية» (أي رسالة في وصف السيف وذكر فضائله)، وقد ترجمه الشهاب الخفاجي باسم علي بن أمر الله الحميدي أو الحناني. انظر: شذرات الذهب ٣٨٨/٨ - ٣٩٠، وريحانة الألبا ٢٤٩/٢ وانظر هامشه.

(٣) هو إسماعيل بن عبد الله الهمداني، (ويسميه الطالوي هنا العجمي على عادته في ذكر نسب لا توجد في كتب التراجم).

دخل إسماعيل هذا دمشق سنة ٩٥٨ ووسعته، فسكن بالجهادية وكان يبيع الحبر بباب البريد ويصنع الورق، وكان يخدم القضاة وغيرهم ويتقرب منهم فأعطى تولية جامع سيباي خارج باب الجابية، ثم أعطاه المولى قتالي زاده السابق ذكره وكان قاضي قضاة دمشق تولية الجامع الأموي نيابة عن النلا أسد الدين التبريزي وضم إليه نظارة النظار، وبقي متولياً على الجامع أربعين سنة وتصرف هو والقاضي ابن الموقع المنبوز بالدب تصرفاً انتقد عليها أكثره

له نائب يُنبر بالدبّ أيضاً، فسل حكاية الحال عن لسانه، فقال:

يقول - على ما قيل - جامعٌ جَلَّتْ	ألم يك قاضي الشام عني مسئولا
يُكَلِّمُ للأعجام وَقَفِي لأكله	ويروي لهم عني كتاب ابن ماكولا ^(١)
أبعد الفتى السُّبكي أعطى لسبيك	وبعد الإمام الزُّنكلوني لزُنكولا ^(٢)
أقاموه لي قِرْداً بِشَبَّاكٍ مشهدي	وَضُمُّوا له دَبًّا على الرَّقْصِ مجبولا
يُؤَمِّلُ كُلُّ أَكَلٍ مالي بِأسره	فلا بَلَغَ اللهُ الأعاجم مأمولا

= حتى آل أمر وقف الجامع إلى الضياع فصرف عن النظارة، وتوفى خاملاً عام ١٠٠٦ هـ: انظر خلاصة الأثر ٤١٠/١، وانظر الأبيات التالية فيها.

(١) ابن ماكولا: هو علي بن هبة الله بن علي بن جعفر، أبو نصر، سعد الملك، من ولد أبي دلف المجلي، أمير، مؤرخ من العلماء الحفاظ الأدباء، ولد في عكبرا قرب بغداد، وزار الشام ومصر والجزيرة وما وراء النهر وخراسان، وقد طمع فيه غلمان له من الترك فقتلوه بخوزستان عام ٤٨٦ هـ خاص كبه: الإكمال في المؤلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، قال عنه ابن خلكان: لم يوضع مثله، وقد طبع الكتاب في الهند، وتكملة الإكمال، والوزراء.

انظر فوات الوفيات ٩٣/٢، والوفاي بالوفيات ٣٣٣/١ (عن الأعلام ١٨٣/٥).

(٢) السبكي: هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث، ولد بالقاهرة وانتقل إلى دمشق مع والده فكنها وتوفى بها، نسبته إلى سبك من قرى محافظة النوفية بمصر، وكان طلق اللسان قوي الحجّة، انتهى إليه قضاء القضاة في دمشق، من مؤلفاته: طبقات الشافعية الكبرى، ومعيد النعم ومبيد النقم، وجمع الجوامع في أصول الفقه وغيرها، توفى عام ٧٧١ هـ.

انظر الدرر الكامنة ٤٢٥/٢، وحسن المحاضرة ١٨٢/١ (الأعلام ٣٣٥/٤٠).

الزُنكلوني هو أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز الزنكلوني نسبة إلى زنكلون من قرى محافظة الشرقية بمصر، فقيه أصولي محدث نحوي، توفى عام ٧٤٠ هـ، من مؤلفاته، شرح التنبيه وسماه تحفة النبيه في شرح التنبيه من أربع مجلدات (وهو في فقه الشافعية) وشرح منهاج الطالبين، واللمع المعارضة فيما وقع بين الرافعي والنووي من المعارضة.

انظر الدرر الكامنة ٤٤١/١، شذرات الذهب ١٢٥/٦، حسن المحاضرة ٢٤١/١.

وحين بُلِّغَتْ هذه الأبيات لمولانا قاضي القضاة، أفهم العتب على الشيخ، فكتب إليه شاكرًا لسعيه، مصوبًا ذلك لرأيه، بما صورته:

مولاي إسماعيلَ زاد حَمْدُهُ	وشكْرُهُ بقوله وفعلِهِ
وزاد في جُنْحِ الدُّجَى دعاؤُهُ	لكم عقيبَ فرضِهِ ونفْلِهِ
بما إليه سيدي أُسْدَيْتُم	من نظر الجامع عند حِلِّهِ
وكان كاد يضحلُّ أمرُهُ	من مُتَوَلٍّ مُفْرِطٍ في جهْلِهِ
وعلمكم به محيطٌ وبما	يفعلُهُ من مُوجِبَاتِ عزْلِهِ
والحقُّ يُبْلِي للفتى حتى إذا	أخذهُ أهْلَكَهُ بفِعْلِهِ
ونعم ما فعلتموه إنَّه	من باب وضع الشيء في محلِّهِ
أَسْأَلُ رَبَّ العرش أن يعطيكم	فوق المُراد من كمال فضْلِهِ

* * *

وكتبت أيضاً إلى المولى قاضي قضاة السَّام علي أفندي المذكور، وكان قد رَتَّب لمولانا الشيخ من محصُولِ الحِكْمَةِ ما يُحْمَلُ في كلِّ يوم إليه، فقطع كَتْنُخْدَاهُ^(١) ذلك الواصِلَ بعد أيام، ففاجأه طارقُ الحِجَامِ، فتشحَّط في داره قتيلاً، ولا يَظْلَمُ رَبُّكَ قتيلاً، فكانت للشيخ كرامةٌ باهرة، بل ولايةٌ ظاهرة، وهي قوله^(٢):

إِنْ قَطَعَ السَّيِّدُ عَنْ عَبْدِهِ	ما كان قد رَتَّب من رِفْدِهِ
فالعبدُ لم يقطع دُعَاءً له	رَتَّبَهُ كالجِزء من وَرْدِهِ

(١) الكَتْنُخْدَا: أمين الوالي أو وكيله (تركية).

(٢) القصيدة التالية في رِجْمانَةِ الألبا ١/١٧٨ - ١٨٠.

ولا ثبأ حَسَنًا نَشْرُهُ
أو كرياض راضها وابلٌ
وانتظمت من نشر^(١) أزهارها
وهو غنيٌّ عن ثناء امرئ
إذ مهّد الحقُّ له رتبةً
ونال ما شاء من المجدِ لا
فهو عليٌّ لا بمدح الوري
وإنما أوجبَ مدحي له
وما جناهُ الحقُّ سُبحانَهُ
والعلم والتحقيق والفهم وال
والشكر للنعم فرضٌ به
وفيه لا شك مزيدٌ لمن
هذا وإن العبد يبغي الرضا
وما له في غيره رغبةٌ
وليس ذا الحزن لما فات من
سيان فقرٌ وغنى عنده
وما تصدّى لصدى حالة^(٥)

كالملك والعنبر في نَدّه
فابتسم اليانع من وَرْدِهِ
جواهرُ الأنداء في عِقْدِهِ
مثلي كليلِ الذهن عن نَقْدِهِ^(٢)
عظيمةٌ مذ كان في مَهْدِهِ
بَسْغِي إنسانٍ ولا وُكْدِهِ^(٣)
له ولكن بسنا سَعْدِهِ
تتأبّع النماء من عِنْدِهِ
من العلى الناشئ عن جَدِّهِ
تدقيق والتوفيق في جنْدِهِ
يأمنُ ذو الإيمان من طرده
لازمه والكلُّ في ضِدِّهِ^(٤)
في قربه الأقرب أو بُعْدِهِ
والعبدُ محمول على قصده
دنياه مُذْ سيق إلى رشدِهِ
لما هو المهودُ من زهدِهِ
قبيحةٌ تُفْضي إلى صَدِّهِ

(١) في الربخانة: نشر.

(٢) في الربخانة: ظل كليل... عن فقده.

(٣) في الربخانة: كده.

(٤) في الربخانة: من عنده.

(٥) في الربخانة: آلة.

سوى لزوم البيت متوحشاً
 مشتغلاً بالعلم مستغرقاً
 قد لزم العزلة لكنه
 أقسم لا يبرح من بيته
 إن مات لم يترك له درهماً
 ولا أثاثاً لا ولا ملبساً
 وفروة جرداء من عتقها
 وطيلسان خلقي دمعته
 ولم يكن يترك شيئاً إذا
 غير بقايا كتب رثته
 يباع في تجهيزه بعضها
 هذا لعمرى عرض حالي لذا^(١)
 قاضي قضاة الشام علامة
 سلطان أهل العلم في عصره
 من عم أهل الشام إنعامه
 لا برحت أعتابه قبلة
 ما هطلت أنملة بالندی

أ ١٧

من الورى حتى ذوي وده
 أوقاته فيه وفي سرده
 لصخبه باق على عهده
 حتى يوارى في ثرى لآخده
 يحوزه الوارث من بعده
 يصلح للبيع سوى برده
 أضلاعه ترعد من برده
 من عتقه يجري على خده
 فارقه يأسى على فقدته
 أكثرها قد مات في جلده
 والبعض وقف لا على ولده
 من أجمع الناس على حمده
 العالم زاد الله في مجده^(٢)
 المنعم الصادق في وعده
 جوداً يضيأه في جوده
 يؤمها العافون من وفده
 من راحة كالبحر في مده

(١) في الرميانة: على.

(٢) لم يرد هذا البيت ولا البيتان بعده في الرميانة.

الأمير نجمي يستدعيه لزيارته

ومما كتبه لجنازة الرفيع، وبابه المنيع، تلميذه أديب عصره، وأريب
مصره، الأمير نجمي محمد ابن مولانا وسيدنا القاضي معروف مستدعياً له
إلى منزله بدمشق الشام، جاد ربّاه صيّب الغمام، ولا رمت ساحتها
حوادث الأيام، قوله:

يا أيها المولى الذي فُتِحَتْ له	فيضاً خزائن كُلِّ عِلْمٍ مُغْلَقِ
ووفودُ أربابِ الفنون تَقِيدُوا	بولاه إذ هو رَبُّ فَضْلِ مَطْلَقِ
وإذا أتاه الفاضلون بِجُمْلَةٍ	من فضله لا قاهم في فيلقِ
العبدُ يرغب أن تشرّفَ بيته	ليصير افضل بقعةٍ في جِلْقِ
لا زلتَ يا لُبَّ الوجود ممتعاً	بعوارفٍ منها المعارفُ نستقي

فأجابه، وأجابه:

يا ماجداً نحو العلّا لم يُسبق	ومهدّباً حاز الكمال بِجَلْقِ
لبيك من مولى تفضلّ راعياً	لُحْبِّهِ بل عبده المتعلّقِ
وافت بدائع نظمه تحكي عقو	د الدرّ في سلك البيان المطلقِ
١٧ ب يدعو بحضرته الرفيع مقامها	ببلاغةٍ فاقت بأفصح منطقِ
سعيّاً على الأحداق نحو كماله	وجاله المتوقد التآلقِ
نحو الفضائل والفواضل والسنا	نحو المكارم والندى المتدفّقِ
لا زلت محروسَ الجناح ممتعاً	بلقيك الفضلاء دون تفرّقِ
ما لاح نجمٌ في الدجّة ثاقباً	أو فاح عرّف الروضة المستنشقِ

[قوله في مدح مُغَنٍّ والإعجاب به]

وحضر ليلة مجلس الأمير نجمي المذكور، وكانت ليلة سماع فأتى المنشدُ بما أطرب الأسماع، وكان يسمّى بمحمود، فكتب يخاطبه بما يُزري بدرِّ العقود، وهو قوله:

أقسمتُ أنّك يا محمود محمودُ	وكلُّ معنى لطيفٍ فيك موجودُ
وأنتُ أدخلُ أهلَ العصر قاطبةً	بين الأنام وقول الخضمّ مردودُ
ما للسمع وللأوتار عنك غنى	ليلاً إذا حضر السُنطير ^(١) والعُودُ
كم ليلة أشرقت نوراً كواكبها	لما حَضَرَتْ بها والشمعُ موقودُ
والشمْلُ مجتمعٌ والضدُّ منقَعٌ	والصدُّ مندفعٌ والبعدُ مفقودُ
حتى تبسمَ ثغر الصُّبحِ عن نفسِ	وكأنه باللقاء والوصل موعودُ
والقومُ في طرب والنوم في هَرَبٍ	لَمْ لَا وقد شَنَّفَ الأسماعَ محمودُ
لا زال يتحفنا أنساً ويُسعفنا	جِئاً ومعنى ومنه الفضلُ والجودُ
ما انهلَ غيثٌ مغيثٌ بالرياض وما	لاح الصَّبَاحُ وذاك الحسنُ مشهودُ

وفي قيم طائفة العكامة

وما أملانيه من الشعر المليح، ما نظمه قصد التمليح، في شخصٍ يُدعى سلامة، وقيّم طائفة العكامة^(٢)، يصفُ مهارته في تلك الصناعة

(١) السُنطير: آلة موسيقية تشبه القانون، ولها أوتار من نحاس يضرب بها.

(٢) العكام: الحبال والأربطة التي تشد بها الأمتعة والأعدال إلى الدواب، والعكامة هم

دون الأنام، وذلك بدمشق عام ٩٧١ :

١٨ أ إذا ما شئتَ تظفرُ بالكِرامه
لنيل فضيلةٍ قُلْ للكَرَى مَهْ
وَدُدْ وَسَنَأْ وَقُمْ جَنحَ الدِّيَاجِي
لأعمالِ السُّرى ودعِ السَّامَةَ
وصابِرْ واصطبرِ فالصَّبْرُ مرٌّ
وأهلُ الذوقِ تستحلي مُدَامَهُ (١)
ويزْ نحو العَلَا سَيَرًا حِيثُأ
كسِرِ النَّاطِرِ (٢) السَّامِي سَلَامَهُ
سَرَى دَهْرًا وخاضَ البرَّ بَحْرًا
ولم يَبْرُخْ على سَنَنِ استقامه
وقد خدَم الأعَاطِمِ والموالي
وأهلُ العلمِ منتضياً حُسَامَهُ
وفي الأسفارِ أسفرَ عن حُبَابِ (٣)
وأصبحَ قِيَمَ الشُّطَارِ شَرْقًا
وأضحى في الحافلِ لا يُجَارَى
وفي فنِّ الزعامَةِ قد تناهى
وَمَدَّ إلى النِّعَامِ (٤) منه كَفَا
وأضحى في الحافلِ لا يُجَارَى
وطولُ يدِ حَوَى حِيًّا ومعنى
وطولُ نَجَادِهِ مُذْ حلَّ نَجْدًا

الرجال الذين يقومون بهذه المهمة، وتشير الأبيات إلى أن العكامة هم الشطار أو اللصوص وعليه فيكون العكامة بمعنى المهاجمون، من عكموا أي هجموا وكرّوا.

انظر ترتيب القاموس المحيط (ع ك م).

(١) مدامه: خمره، والمقصود مرارته الشديدة التي غالباً ما تؤدي إلى الظفر آخر الأمر.

(٢) الناطر: هو المحتال الذي أعيا الناس خبثاً وشرّاً، ويطلق في عرف العامة على الرجل الفهم الذي يحسن التصرف في الأمور.

(٣) الحباب: شرر النار.

(٤) النعائم: منزلة من منازل القمر، صورتها كالنعامة.

فلا برج المُشَار إليه يَسْعَى لأَغْثَابِ المُظْلَلِ بِالفِيَامِ
عليه صلاةُ ربِّ العرش تُتْرَى مَدَى الأَيَامِ مَا نَاحَتْ حَمَامِهِ

وفي استدعاء نائب الحكم إلى حضور مجلس

ومن روائع نظم الأستاذ العالي، المُزنية ألقاظه بعقود اللآلي، ما
خاطب به القاضي شمس الدين محمد الحنبلي^(١) الشهير بسبّط القاضي
الرُّجَيْحِي وهو نائبُ الحكم الشريف، والشرع المنيف، بصالحية دمشق
الشام، عن لسان بعض أعيانها من الكرام، ليشرف مجلسه بحضوره، ويتم
له به كمال سروره، قوله:

(١) هو محمد بن ابراهيم بن يوسف بن عبد الرحمن الحنفي التاذفي الحلبي المعروف بابن الحنبلي
ولد بجلب عام ٩٠٨ هـ، وكان مؤرخاً عالماً أديباً، له أكثر من خسين مصنفات، من أشهرها در
الحبب في تاريخ أعيان حلب، والمصابيح (في الحساب)، والدرر الساطعة (في الطب)، ومخايل
الملاحاة في مسائل الفلاحة، ثم كتب في الفقه الحنفي والفرائض والحديث واللغة والمنطق
وأصول الفقه والنحو والصرف وغير ذلك من الفنون.

ولقد ذكر المؤلف أن كنيته شمس الدين، هذا يتفق مع ما ذكر في الكواكب السائرة
وريجانة الألبا، ولكنه بكنيته الأخرى وهي (رضى الدين) أعرف وأشهر.
وقد أضاف المؤلف هنا إلى معلوماتنا عن ابن الحنبلي معلوماتين لم تذكرهما المراجع، الأولى
أنه كان نائب الحكم في الصالحية أو قاضي القضاة، والأخرى أنه سبط (ابن بنت) القاضي
الرجيحي.

والقاضي الرجيحي هو عبد القادر بن محمد بن عمر بن عيسى بن سابق بن هلال بن يونس
المزي الصالح الحنبلي، كان نائب الحكم في الصالحية أيضاً، وكان جده الأعلى يونس شيخ
الطائفة البيونية، وقد سلك هو الآخر طريق التصوف وعرف بالصلاح والعلم، وبني بالسهم
الأعلى من الصالحية زاوية وحاماً وسكناً، توفي عام ٩١٠ هـ ودفن بفتح قاسيون.

انظر ترجمة ابن الحنبلي في الكواكب السائرة ١ / ٢٤١، وريجانة الألبا ١ / ١٨٤،
والشذرات ٨ / ٣٦٥.

وانظر ترجمة جده ابن الرجيحي في شذرات الذهب ٨ / ٤٦.

على أفضى قضاة الصالحة
 على المولى الأجل سلام صب
 رجحي ترجح بالمالي
 لقد غمرت أياديه البرايا
 له فضل على الأصحاب طراً
 وإحسان وإتحاف وبذل
 وعلم لا يزال بحسن فهم
 تجمل منصب الأحكام لما
 وقد صلحت به الأحوال حتى
 وطابت للمقام بها وصارت
 فلا برحت به تسو وتعلو
 ولا زالت مكارمه ترجى
 ويسأل فضله شخص محب
 لنقل خطاه إحساناً وفضلاً
 ليحظى حين ينظره بوجه
 وحامل هذه الأبيات أضى
 تراه مبادراً في كل وقت
 فلا تتأخروا عما ابتغاه
 وعيشوا واسلموا دهرأ طويلاً
 مدى الأوقات ما صدحت سحيراً

سلام حامل أزكى تحية
 صبا نحو المقامات العلية
 وأنواع الصفات المولوية
 جميعاً بالعطايا الفاضلية
 وجود شائع بين البرية
 كبحر يقذف الدرر السنية
 يفوق به الأنام وحسن نية
 تولاها بهمة الزكية
 علت في الحافقين الصالحية
 تحاكي جنة الخلد البهية
 على كل البقاع الجليلة
 مدى الأيام في صور سنية
 فقير مولع بالأريجيه
 لمنزله بأخر ذي العشييه
 جميل حاز أنواراً بهيه
 خطيب محاسن الذات السنية
 إلى أبوابكم بالبدرية
 ولو كان المسير إلى المريه
 بأبهة العلوم القاضوية
 حام الدوح بالنغم الشجيه

★ ★ ★

كتب لبعض أكابر دمشق^(١)، وكان وعده بإرسال تأسومه^(٢)،
بالظرف مؤسومة، فتأخر إرسالها لغفلة، فكتب له من غير مهلة:

رُبَّ تَأْسُومَةٍ بِهَا قَدْ وَعَدْنَا فَإِذَا قُرْبُهَا مِنَ النِّجْمِ أَبْعَدُ
رُبَّ يَسْرٍ حَصُولُهَا لِحَبِّ عَلَيْهِ بِالْكَهَالِ يَرْقَى وَيَضَعُدُ
عَمَلًا فِي الْوَرَى بِقَوْلِ حَكِيمٍ ضَعَّ مَكَانَ السَّعِيدِ رَجْلَكَ تَنْعَدُ

★ ★ ★

وقال مخاطباً أهل الطريقة بلسان الحقيقة:

هَبُّوا فَقَدْ هَبَّ نَيْمُ الصَّبَا وَاطْطَحُوهَا خَنْدَرِيًّا أَبَى
كُلُّ لَيْبٍ غَيْرُهَا مَشْرَبَا مِنْ كَفِّ ظَنِّي سَاحِرِ طَرْفُهُ
يَلْمُ ثَغْرًا قَدْ غَدَا أَشْبَا رَاحَ عَلَى الرَّاحَةِ مِنْ لَمْعِهَا
وَمُبَيَّضٌ بَرَقَ لَمْ يَكُنْ خُلْبَا لَا تَحْسَبْنَهَا قَهْوَةً عُنُقَتْ
مِنْ عِنَبِ الْكَرْمِ زَيْبِ الرُّبَا لَكِنَّهَا خَمْرُ أَهْلِ التَّقَى
طُوبَى لَصَبٍّ نَحْوَهَا قَدْ صَبَا وَإِنَّمَا قَهْوَتُنَا هَذِهِ
قَهْوَةُ عِرْفَانٍ جَلَّتْ غَيْبَا يَشُقُّ جَلْبَابَ الدَّجَى نَوْرُهَا
تَخَالُهَا فِي أَفْقِهِ كَوَكْبَا يَشْرَبُهَا صِرْفًا وَمَمْزُوجَةً
مَنْ أَصْبَحَ الْكَشْفُ لَهُ مَذْهَبَا

(١) قال في هامش النسخة: إنه القاضي نجم الدين بن كريم الدين، أحد عدول دمشق.
(٢) التأسومة: نعل يشبه المداس، والتفسير من الريجانة التي أوردت الأبيات الثلاثة التالية في

وقال في المعنى قُدَّسَ سِرُّهُ:

بانعكاسِ الشعاعِ في المرآةِ وانعطافِ الصدى على الأصواتِ
أيقن القومُ أنه ليس في الكو نِ سوى مُقتضى شئونِ الذاتِ

وقال سقى الله مشواه، سحائب عفوه ورضاه:

عزمتُ بزهدي وانقطاعِ وليتني فعلتُ ولكنَّ الفطامَ شديدُ
ولو كان لي عقلٌ لكنتُ لِرِخلتي من الرّادِ بالجُهدِ الجهميدِ أزيدُ
ولا كنتُ للأولادِ والأهلِ خادماً ولكن عن الأقدارِ كيف أحيّدُ

★ ★ ★

ومما أنشدني من فيه لنفسه، قبيل حلول رmse، في تفضيل الغنى،
وأن الفقر هو العنا:

ألا لعن الله الخصاصةَ والفقراً فإنَّ سوادَ الوجه بينها بُهراً
وما الذلُّ إلّا منها وعليها وما العزُّ إلّا بالغنى وهو بي أخرى
ومن يك في الدنيا فقيراً ومُعديماً يجد من بنيتها المقت والصّد والهجرة
فلاتك عن كسبِ الحطامِ بعاجزٍ لتبلغ في الدنيا السعادة والأخرى

★ ★ ★

ومما أنشدنيه وهو معنى بديع، قوله:

من لي بردٌ معاشرِ كثُرُوا عــــــليَّ فأكثُرُوا

صادقتهُم وأرى الخرو
كالخطَّ سهلٌ في الطُّرُ
وإذا اردتُ كشطُـهُ
جَ عن الصداقة يـكـبرُ
سِ ومحوهُ مُتـعـذِرُ
لكنَّ ذاك يؤثـرُ

★ ★ ★

وله يخاطب شخصاً كان يألفه، وقد خان عهده وأخلفه:

أيُّها الناقضُ عَهْدِي ناسياً خالِصَ وُدِّي
خالِياً عن كُلِّ مَعهُو دِ من الخطوة عَنْدِي
أنتَ خالفتَ وبارزُ تَ وأكثرتَ التعمُدِي
بعتَ بالبُخسِ مُجِباً بيعُهُ ليس بِمُجْدِي
سَفَهًا بعتَ مُجِباً بيعُهُ ليس بِرُشْدِي
وارتضيتَ الفَدْرَ عَمْداً مَخْطئاً حالَةً عَمْدِي
وتصديتَ إلى ما شئتَ من هَجْرٍ وَضْدِي
فطرذناك وقد أصبحَ تَ في عكسٍ وطردِي

نَاوَلَهُ شَابٌّ وَرْدَةً، مُضَاهِيَةً خَدَّهُ، فَقَالَ:

لَيْتَهُ حِينَ نَاوَلْتَنِي يَدَاهُ وَرْدَةً أَلْتَمَّ التَّيْمَ خَدَّهُ

★ ★ ★

وَقَالَ فِي سَوْدَاءَ:

بِي مِنَ الْحُبْسِ ظَبِيَّةٌ تَتَهَادَى بَيْنَ أَتْرَابِهَا بِمَكِّ فَتَيَقِ

هي ربحانة إذا ما تثنت وشقيقي وما لها من شقيق

★ ★ ★

وله في مجلس شريف، عليه ظلٌ وريف:

مجلسٌ طاب مقيلاً مُذ حوى ظلاً ظليلاً
وسبيلاً تلقى ماءً سلسيلاً
ونسماً صَحَّ لِمَا مرّ بالروض عليلاً

★ ★ ★

في خطيب يخاطبُ ليبي:

ملىء المنبرُ مَكَاً مُذ به قمتَ خطيباً
أترى ضمَّ خطيباً منك أم ضمُّخَ طيباً

★ ★ ★

من أكيس الناس رجل باري أقواس، يدعى أبا اليسر، فقال مسئولاً
في ذلك:

إذا رُمْتَ رَمِي النبل باليمن واليسر وقهر العدى بالعزم والعز والنصر
فهاك قسيّاً ليس تُخطي سِهامها براها بتيسير الإله أبو اليسر

★ ★ ★

التمس منه بعض أعيان دمشق الشام عمل أبياتٍ تكتب على طراز
سَقْف تربةٍ ضمت أناس ينتمون لبني العباس، بصالحية دمشق الحمية

تعرف بالرباط لبني المنقار، فقال:

يا حُسْنُهَا من تَرْبَةٍ بل رَوْضَةٍ	تَزْهُو بِيَانَعِ وَزْدِيهَا وَالْآسِ
قد نَزَّهَتْ شَرْفًا وحَلَّتْ بِهِجَةٍ	عن أن تُقَاسَ بِرَوْضَةِ المِقْيَاسِ
وَسَمَتْ عَلَى هَامِ الكَوَاكِبِ إِذْ حَوَتْ	نسل الخَلَائِقِ من بني العَبَاسِ
فلها على تُرْبِ الِوَرَى فخرٌ بما	قد ضُمَّنَتْ من هذه الأَرْمَاسِ
ناهيك من أَصْدَافِ دَرٍّ في الثرى	لولا الحِجَامِ لَكُنَّ فوق الرَّاسِ
فإِذَا تَأَلَّقَ نورُهَا جُنَحَ الدجى	أَغْنَى عن المَشْكَاةِ والنَّبْرَاسِ
لا زال مُنْشِئُهَا الهَامُ مَجْمَلًا	وَمُؤَمَّلًا يومَ النَّدَى والبَاسِ
كلا ولا بَرَحَ الأَنَامِ بِيَابِهِ	مُتَرَدِّدِينَ تَرَدَّدَ الأَنفَاسِ
وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ يَوْمًا عَبْدَهُ	أَلْقَى عَلَيْهِ مَحَبَّةً في النَّاسِ

★ ★ ★

سأله بعضُ أكابرِ الدولة الغرَّاءِ ، عملَ تاريخٍ لقصرِ بُني بَمِيدانِ حلب
الشهباءِ ، برسمِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ خانٍ ، عليه الرِّحمةُ والرِّضْوَانُ ، فقال في
ذلك مُؤَرِّخًا :

لِللهِ بُسْتَانٌ وَقَصْرٌ جَدِيدٌ	ليس على حُسْنِهَا من مَزِيدٍ
لِلْمَلِكِ الأعْظَمِ قد أَنشَأَ	بِحُسْنِ تَدْبِيرٍ ورَأْيٍ سَدِيدٍ
أَعْنَى سُلَيْمَانَ الزَّمانِ الَّذِي	له مَلُوكُ العَصْرِ طَرًّا عَمِيدٍ
لا بَرَحَ السَّعْدِ لَهُ خَادِمًا	ما سَادَ في الأَفْلاكِ نَجْمٌ سَعِيدٍ
يا حَلَبَ الشَّهْبَاءِ فخرًا فَقَدْ	زَانَكَ في المِيدَانِ عِقْدٌ فَرِيدٍ
من بَنِيَةِ نِيطٍ بِأَعْطَافِهَا	رُوحٌ وَرِيحَانٌ وَطَلَعٌ نَضِيدٍ

قصرٌ مشيدٌ وَسَطَ روضٍ غدا تاريخه في الوسط قصرٌ مشيد

★ ★ ★

كتب لبعض الأصدقاء ، بهذا الاستدعاء :

أنا في البستان وَخِدي والصَّبَا فيه تَهَبُ
فيه محبوبي كِتابي فليكن مَعَهُ المحبُّ

★ ★ ★

سرتُ يوماً في خدمته ، وهو يتهادى في مشيته إلى بستان يعرف
بالحجّاجية ، ظاهر دمشق الحمية ، وقد تبسّم نورها عن ثغرا الأقاح^(١) ،
وقابله الشقيق بخدّه الوقاح ، فأعجب بما رآه وأنشد عند جلوسه هذا
المفرد :

في ذا المكان ثلاثةٌ قد جُمِعَتْ نُورٌ ونور واعتدال هَوَاءٌ
وقال لي أجز ، فقلت :

ولها وحقّك رابعٌ علّامةٌ شيخُ الشُّيوخ ومرجع العلماء
[الموشح المردوف في القهوة]

ومما أملاه عليّ - قدس الله روحه ، ووالى من الرّوحِ والريحانِ

(١) الأقاح أو الأقحوان : نبت زهره أصفر أو أبيض ، ورقه مؤلّل (محدد الطرف) كأسنان
المنشار ، ومنه البابونج ، وقد كثر في الأدب العربي تشبيه الأسنان بالنوع الأبيض منه ، قال
البحري :

كأنّا ييم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح
واسمه عند فلاحى البساتين في مصر « حوان » .

فُتُوْحَه، المَوْشَح المَرْدُوف^(١) في القهوه الذي لم يُنْسَج على منواله، ولا
سمحت قريحته بثاله:

قُهيوة القِدر قَدَرُها ارتفعاً مذفي الدُّجى بدر كأسها طلعا - يُجلى

يا حُسنها مثل ذائب السَّبَج^(٢)

سمراء تَسِي العقول بالدَّعِج

كالمسك في منظرٍ وفي أَرْج

لها مُذابُ العبير قد خَضَعَا وَمَنْدَلُ الشَّحَر^(٣) دَرَّهَا ارتضعا طِفْلا

أَحِبُّ بكأس لم يعلمها حَبُّ

جوهرُ ياقوتِها له لُحْبُ

ابنةٌ بِن^(٤) لها الشَّهَابُ أَبُ

كم بارقٍ منه حولها لَمَعَا فكيف مَعَ حسنِها الذي سطعا - تُقَلَّى

لا غَرَو أن سَلِمْتَ بذِي سَلَمِ

لماءٍ في رشفها شفا أَلَمِي

منشؤها الحِلَّ وهي في الحرم

ما طاف بالبيتِ طيفُها وسعى إِلَّا وقال الإمام حين دعا - أَهْلَا

من خِذْرُها العَيْدَرُوسُ أبرزها^(٥)

(١) المردوف: هو الذي يلي البيت الأول من كل مقطع فيه كلمة تلتزم فيها قافية واحدة.

(٢) السبج: الخرز الأسود.

(٣) المندل: العود الطيب الرائحة، والشحر هو ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، ينسب إليه

العنبر الشحري: معجم البلدان ٣/٣١٣.

(٤) في ب: ابنة ابن.

(٥) يعني بالعيدروس الشيخ أبا بكر بن عبد الله الشاذلي المعروف بالعيدروس، وهو مبتكر

وللندامى الكرام جَهْزَهَا
 وبالمعاني الحسان طَرَزَهَا
 وهَيَّيَ القومُ عندما وضعَا لها اسمُ راح ونعم ما صنعا - فعَلَا
 قد ظهرتُ في الورى منافعُها
 والغمر من جهله يُدَافِعُهَا^(١)
 يخفضُها والإلهُ يرفعُها
 يا عَاذِلِي زِدْتَنِي بِهَا وَلَعَا أَحَبُّ شَيْءٍ لِلْمَرْءِ مَا مُنِعَا - وَصَلَا
 كم طَابَ في طيبةِ بها السَّهْرُ
 وزال عند الصِّفا بها الكدرُ
 وضاع بالشام نشرها العطرُ^(٢)
 ورَبَّ شَادٍ والقدم^(٣) قد هجعا بها مع الأولياء قد جَمَعَا - شَمَلَا
 يا صاح شَرَّدَ بَشْرُهَا وَسَنِي

= القهوة المتخذة من البن المجلوب من اليمن، وكان أصل اتخاذها لها أنه مر في سياحته بشجر البن
 فاقتات من ثمرة حين رآه متروكاً مع كثرتة، فوجد فيه تخفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر،
 وتنشيطاً للعبادة، فاتخذته قوتاً وطعاماً وشراباً وأرشد أتباعه إلى ذلك، ثم انتشرت القهوة في
 اليمن ثم في بلاد الحجاز ثم في الشام ومصر ثم سائر البلاد. ويعد العيدروس من سادات
 الأولياء وأئمة العارفين، وقد أُلِفَ كتاباً في علم المتصوفة سماه الحزب اللطيف في علم التحكيم
 الشريف، وأُلِفَ فيه محمد بن عمر بحرق كتابه: مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس.
 توفي سنة ٩٠٩ هـ، وقيل ٩١٤.

(١) الغمر: الذي لم يجرب الأمور، وقد اختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة حتى
 ذهب إلى تحريمها جماعة، والأكثر ذهبوا إلى أنها مباحة.

(٢) ضاع: انتشر.

(٣) القدم: الغليظ الأحمق.

من كفّ ظيّر ذي منظرٍ حسنٍ

وقل لأهل الحجاز واليمن^(١)

من لام في شُرْبها دَعَاهُ دَعَا فإنه بالكمال ما اجتماعاً - أضلا

لواعجُ شوق في الحشا تتصرّم ووجدُ بأخفاء الضلوع مُخَيّم

أأجانبنا والحب لا يتصرّم تعلمتُ خطّ الرمل لما هجرتُم

لعلّي أرى فيه دليلاً على الوصل

أنقطُ مذ لاحت من الخال نقطة على الشرط والترتيب والعقل عقلة

وفي التّخت قد قامت بنصري نُصرة فصادفني فيه بياضُ حمرة

رأيتُها في وجنةٍ سلّبا عقلي

كواكبُ سعدٍ نورها قد تألّقا وراياتُ أفراحٍ علت كُتب النّقا

وغُصنُ المني في روضة العزّ أورقا وقالوا طريقُ قلتُ يا ربّ للقا

وقالوا اجتماعُ قلتُ يا ربّ للشمل

ضميرُ رجائي بالسعادة قد حُبّي وإشكالُ إشكالي نأي عن تقرّبي

فلاغروأن وافقتُ ماخطّه النبي^(٢) وقالوا نفّي الحدّ قلتُ معذبي

وقالوا انكيسُ قلتُ ماذا من شكلي

فؤادُ بغير الشوق ليس بعامرٍ عن الحبّ يَعدُّو كلّ ناهٍ وأميرٍ

لقطع الفيافي يمتطي متنّ ضامرٍ لقد صرتُ فيكم مثل مجنون عامرٍ

فلا تعجبوا أني اخط على الرمل^(٣)

(١) كررت كلمة أهل في ب.

(٢) النبي: أي النبي الذي يتنبأ له بحظه.

(٣) هذه العبارة فيها تورية، فيخط على الرمل يحتمل أن يكون المقصود بها أنه يفعل كما كان يفعل قيس مجنون بني عامر حينما كان يخط على الرمل وهو تائه عما حوله بفكرة الغرام =

القصيد الكافية فيما جرى بين الغزي والإيجي

وما استمليته بدمشق المحروسة هذه القصيدة الكافية ولها خبر ذكرته في ترجمته، وقد كان كتب بها إلى العلامة المحقق، والفهامة المدقق، الشيخ علاء الدين بن عماد الدين^(١) بطلب منه، لِقِصَّة جَرَتْ بين شيخنا العلامة بدر الدين الغزي^(٢) والشيخ محمد الإيجي^(٣) وهي مشهورة:

السيطرة على نفسه، وقد أورد ذلك أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني، ويخط على الرمل يحتمل أن الشاعر يفعل ذلك حقيقة ليعرف ما يؤول إليه الأمر مع محبوبه وهو ضرب من استكناه الغيب للتعلم أو التورية عن النفس، وعلى كل فالجملة فيها تورية كما لا يخفى.

(١) هو علاء الدين علي بن اسماعيل بن موسى بن علي بن حسن بن محمد الدمشقي، الشافعي، الشهير بابن عماد الدين وبابن الوس، عالم، أديب ولد بالقاهرة عام ٩١١، وتلقى العلم على شيوخ العصر، ثم هاجر إلى استامبول فعجب الناس من فطنته وفضيلته مع قصر قامته وصغر جثته، ثم أعطى تدريس دار الحديث الأشرفية بدمشق، فانتفع به كثير من الطلبة والعلماء، من آثاره: حواش على شرح الألفية لابن مالك، توفي بدمشق سنة ٩٧١ هـ. انظر شذرات الذهب ٣٦٣/٨.

(٢) هو بدر الدين محمد بن محمد بن محمد الغزي العامري الدمشقي، أبو البركات، بدر الدين بن رضي الدين فقيه شافعي، عالم بالأصول والتفسير والحديث، ولد بدمشق سنة ٩٠٤ هـ واعتنى والده بتخرجه ورحل به إلى مراكز العلم فتلقى تعليماً جيداً على سادة علماء العصر، ودرس وأفنى وهو في السابعة عشرة، ثم انقطع عن الخروج ولزم بيته في أواسط عمره، وألف مائة وبضعة عشر كتاباً، وهو أبو نجم الدين الغزي المؤرخ صاحب الكواكب السائرة، وكان الرجل كريماً محناً جعل لتلاميذه رواتب وأكسية وعطايا، توفي عام ٩٨٤ هـ.

انظر شذرات الذهب ٤٠٣/٨، وريحانة الألبا ٧٢/١.

(٣) هو شمس الدين أبو النعمان محمد بن كريم الدين محمد الإيجي (نسبة إلى بحر إيجيه) العجمي الشافعي الصالح نزيل صالحية دمشق، قدمها وهو شاب سنة ٩٣٠ هـ وصحب فيها ولي الله سيدي محمد بن عراق سنين كثيرة وعالج معه كثيراً من المجاهدات، واشتغل بالعلم والتدريس، وكان يتردد إلى الحكام وغيرهم لقضاء حوائج الناس، توفي عام ٩٨٥ هـ ودفن بمنزله بسفح قاسيون.

ولما أبى البدرُ إلّا الحُسُو
وبالصَّالِحِيَّةِ من سَفْهَها
وحاولَ سَفْكَ دَمِ سائِلِ
سألتُ أخا السَّفْحِ عن حاله
فقلتُ على مِجْزَاك البُدَيْ
وحاكَ قَمِيصاً من الهجو فيهِ
ولاك لُحُوماً حراماً ولم
وسائرُ ما كنتُ أسلفْتُهُ
ولم يكن الشَّيْخُ مستحضراً
وأمسك عن بعض ما عنده
فقام فقيرٌ له كان في
فقال: سألتُ أبا مُرَّةٍ
فقلتُ بماذا؟ فقال الفقيه
فقلتُ فما ذاك قُلْ لي فما

فَ ومدَّ على الأفقِ أخلاقَه
إلى الشرِّ واعد أتراكَه
ولم يكُ من قبل سفاكَه
سُؤالاً يصحَّ إدراكَه
رُ فأذعنتَ للذمِّ حاشاكَه
كَ وفصلَ في النظم ما حاكَه
يُطَقُّ يزدرُ بعضَ ما لاكَه
من الوُدِّ بالصدِّ جازاكَه
جواباً فأطبقَ أخناكَه
عليّ فصوّبتُ إمساكَه
محبَّتَه باع أملكاه
فأخبرني أنه شاكَه^(١)
رُ بما قد تضمّن إهلاكَه
عَهدُك في النقل أفاكَه^(٢)

= انظر شذرات الذهب ٨ / ٤٠٨

أما القصة التي يذكر المؤلف أنها وقعت بين بدر الدين الغزي والإيجي والتي صاغها الشيخ أبو الفتح بن عبد السلام التونسي شعراً، فهي كما يذكرها ابن العماد في الشذرات من أن الشيخ محمد الإيجي كان قد قبل أن يتولى تدريس المدرسة الشامية التي كان يتولاها الغزي - ويبدو أنه عزل عنها - ولما كانت المودة الوثيقة تربط بين الرجلين لهذا فقد كان الأول بالإيجي أن يرفض الولاية على هذه المدرسة مراعاةً لجانب صديقه، لكنه لم يفعل وكان ذلك مما أخذه عليه، وأدى إلى القطيعة بينهما، وإلى هجاء الغزي للإيجي كما يتضح من القصيدة التي يوقها المؤلف.

(١) شاكه: آذاه، يقال: لا تشوكك مني شوكة أي لا يلحقك مني أذى.

(٢) أفاكه: أي كثير الإفك.

فقال لقد شاكه بالعصا
 فذا ذنبه يا أخي عنده
 فحينئذ أمه بالهجا
 فليس يُلام وربّ الأنبا
 وأثبت بين الوري رِفْضَه^(١)
 ولو أعطي الشيخ غُرماً كما^(٢)
 لهرّ على البعد عَكَازَه
 وقام بمجده صارخاً
 وأرسل خلف دراويشه
 فهذا أتاه ببطوائِه
 وقال لأعجابه جردوا
 وها قد أبحث لكم قَتْلَه
 فلا برح الشيخ في نهره
 فقلت عصا؟ قال ذِيَاكَه
 وأحسبُ إبليسُ أنساكَه
 مديراً على السفح أفلاكَه
 مر إذا هو أصبح فتاكَه
 ولو شاء أثبت إشراكَه
 إلَه البرية أعطاكَه
 وهَيَا للطعن مِنواكَه
 وشبك بالكف شُباكَه
 وحيّ لدى السفح حيّاكَه
 وهذا يُحرك مِحْرَاكَه^(٣)
 سيوفاً تُمزق أوراكَه
 وأبرأت ذمّة من ناكَه
 يصيد متى شاء أسهاكَه^(٤)

وهذه القصيدة خلاف ما كانت عليه وقت نظمها فلما استمليتها
 منه غيرّها إلى ما ترى وخالف في كثير من أبياتها رحمه الله.

(١) الرّفْض (بكره الراء): معتقد الرافضة، وهم فرقة من الشيعة يبيحون ذم الصحابة، وقد
 رفضوا زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لأنه نهاهم عن ذلك.

(٢) يعني بالشيخ هنا الشيخ الإيجي، والمقصود أنه لو أتيح له الرد على الغزي لفعل كذا
 وكذا.

(٣) المحراك: أداة تحرك بها النار.

(٤) هذا البيت كناية عن أن الشيخ استولى على المنصب المتنازع عليه، وأصبح يجني من ثماره
 متى شاء.

أبياته في تعطف الغزي

ولما توفي العلامة الشيخ علاء الدين المذكور كتب مولانا الشيخ أبو الفتح إلى مولانا الشيخ بدر الدين الغزي بهذه الأبيات متعطفاً، ولخاطره ملاطفاً، مشيراً إلى الماء الذي كان أمسكه عن الجريان إلى داره، وقد ذكرنا القصة في رسالة أخباره^(١):

قَطَعُوا السَّبِيلَ فَعُوقِبُوا	قَطَعُوا بَمَتَّصِلِ الظَّامِ
وَمَا السُّرُورُ لَهُمْ بِهِ	فَرَحاً فَكَانَ الْمَأْتِياً
وَتَشْتَتُوا بِيَدِ التَّفَرُّ	قَ مُزْعَجِينَ عَنِ الْحَمَى
قَامَتْ صَوَائِحُ بَلْ نَوَا	ئِجِحْ حَوْلَ سَافِرَةِ الدَّمَاءِ
مَاضٍ ضَرَّهْمُ لَوْ أَنَّهْمُ	سَلَكُوا الطَّرِيقَ الْأَقْوَمَا
لَكُنْهْمُ حَسِبُوا الْقَبَا	حَاةَ وَالْوَقَاحَةَ مَفْنَمَا
وَتَعَرَّضُوا لِمَسَاءَةِ الدَّ	بِجَدْرِ الْمَنِيرِ تَوْهَمَا
وَتَنَاوَلُوا مِنْ مَسَاءِ سَا	حَتِيهِ الشَّرِيفَةِ أَسْهَمَا
سُرُوا بِذَلِكَ بُرْهَةً	حَتَّى إِذَا فَرَحُوا بِمَا
فَاللَّهُ يَغْفِرُ لِلْجَمِيعِ	عَ تَفَضُّلاً وَتَكْرُماً
قُلْتُ - وَالتَّكَلَّمَ دَاخِلٌ فِي	الدَّعْوَةِ - سَاعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى

(١) القصة كما ساقها الغزي في الكواكب السائرة ١٨٣/٣ هي أن الشيخ علاء الدين كان تلميذاً للشيخ بدر الدين الغزي وأن قطعة حدثت بينها أدت فيما بعد إلى أن يقطع علاء الدين الماء عن الشيخ، وكان يمر بداره، وقد طلب منه أصحابه أن يتصدوا له ولكنه رفض فأتى العمادي بعد أقل من سنة وعادت المياه إلى بيت الشيخ مرة أخرى.

طرديّة القاضي فخر الدين بن مكّانِس

وما استمليته منه وهو آخر ما أملاه عليّ: طَرَدِيَّةٌ (١) القاضي فخر الدين بن مكّانِس أديب عصره، وفاضل مصره، مُهذَّباً لها، ناقلاً ما ذكر فيها من المنتزهات المصرية إلى الشامية، وذكر لي أن القاضي معروف كان الحامل له على ذلك، تجاوز الله عن سيئاتها، آمين وهي هذه:

أنعم صباحاً في ظلال السَّعدِ واركبْ إلى الهَزَلِ جَوادِ الجِدِّ
ولا تبغْ عاجِلَه بنقْدِ وخلّ نعت سُنُقِرٍ وفهدِ
واستجلب الأنسَ بطرد الطَّردِ
خُذْ عن خَلاعتي (٢) الكلامَ المُعْجِبَا فلم أزلْ عُذِيقَها المُرَجَّبَا (٣)
خَلَّ الطَّيِّبَ واسألِ المُجَرَّبَا إن الخلاعاتِ طرازُ الأدبا
وإنني فيها نسيجٌ وخدي

(١) الطردية: القصيدة التي تقال في يوم الطرد، والطرد بفتح الطاء والراء: معالجة الصيد لمحاولة صيده.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم، فخر الدين أبو الفرج المعروف بابن مكّانِس القبطي، وزير مصري، حنفي المذهب أصله من القبط، وُلِّيَ نظارة الدولة بمصر ثم تولى وزارة دمشق، وعزله السلطان الظاهر بركات واستدعاه منها فتوفي عام ٧٩٤ قبل وصوله إلى القاهرة ودفن بها، وكان شاعراً رقيقاً له ديوان شعر، وديوان إنشاء إلى عدة مؤلفات أخرى. انظر الدرر الكامنة ٢/٣٣٠، حن المحاضرة ١/٣٣٠.

الخلاعة: اطراح القيود واتباع الهوى.

(٣) عُذِيقُها المُرَجَّبَا: العذيق تصغير العذق بفتح العين وهو حل النخلة من التمر، وترجيبه يكون بلفه بالسعف لكي يقوى ويصان ولا تلعب به الريح فتطيره، والعبارة تضرب مثلاً في ذي الرأي الصائب الذي لا تنال منه الأحداث. وفي ب وس: عذيقها المجربا وهي تحريف.

يا ساكن السّفع بأعلى الوادي من جَلَّقِي نادِ بذاك النادي
 قد وُرد الوردُ وكاد الكادي^(١) وبان بان الغصن الميادِ
 أفديه قادماً أمام الوردِ
 باكر إلى الربوة والروضِ التي تُخال في أفنانها كالجنسة^(٢)
 ولا تَمِلْ من وجهها^(٣) لوجهة صِف حُنها لمائها والخضرة
 وقف بواديها ولا تَعْدِي
 واجلس من الربوة في أعلاها^(٤) وصير الملمم عن ينها
 والسبعة الأنهر ما أحلاها تجلو الصدى مرجعاً صداها
 بلغتُ من رضاعها أشدي
 أفدي رباً ربوتها بنفسي وما حوت رياضها من غرس
 مرتعُ غزلاني وروض أنسي شذاهُ كالعروس ليل العرس
 فلا يُقاس^(٥) طيبه بندٌ

(١) الكادي: الماء البطيء الجريان، وكاد بمعنى قرب ودنا وهي هنا تامة لا خبر لها، أو ناقصة ويكون خبرها محذوفاً بمعنى كان أن يورد أو نحو ذلك.

(٢) الروض: جمع روضة، ولذلك جاز وصفها بالمفرد فقال: الروض التي، لأنه جمع ما لا يعقل، وفي س: تحتال بدل تحال.

(٣) في س: عن وجهها.

(٤) الربوة: موضع في دمشق في لف (أصل) جبل على فرسخ منها، كان يقال ليس في الدنيا أنزه منه لأنه في لف الجبل وتحت سماء نهر بردى، وهو مبني على نهر ثروى وفي رأسه نهر يزيد يصب منه ماء إلى مكان سقايته وإلى بركة، وثمة مسجد عال جداً قرب ثروى، في ناحية منه كهف يزعمون أن المسيح عليه السلام ولد فيه وأنه هو الوارد فيه القرآن، انظر معجم البلدان ٧٥٢/٢.

وفي س: التخوت بدل الربوة.

(٥) في س: فلا يقاسي.

بها الشقيقُ جَرَّقاني بُردَه وخالَه الأسودُ فوق خدَه
والطلُّ يحكي الدُرَّ فوق وردَه والزَّنبَقُ الزاهي^(١) زها بقدَه

لذاك تنقضُّ نجومُ الوردِ

لم أنسَ بَرَزَتِي لأرضِ بَرَزَه^(٢) في فتيةٍ أفاضلِ أعزَه
بُغْيَتُنَا رشفُ مُدامِةٍ مُزَه لا صيدُ كُرْكَيٍّ ولا إوزَه

وخفقُ مِزْهِرٍ ولغَبُ نَرْدِ

أوتارُنَا لرمينا يا صاحِ أوتارِ عيدانِ الغِنَا الفِصَاحِ
والقوسُ قوسُ حاجِبِ المِلاحِ والبُنْدُقُ المِسْكِ من التُّفَاحِ

مذاهبُ أُلْهِمْتُ^(٣) فيها رُشْدِي

أجلسُ بين الوردِ والثَّيْقِ على باطِ الزَّهْرِ الأنيقِ
في فتيةٍ يُنْقَوْنَ من رحيقِ ختامُه مك وفي التحقيقِ

ليس سوى نقطةٍ خالِ الحَدِّ

فليس من ترجوه للفلَاحِ إلّا فتى عاصٍ على النُّصَاحِ
لم يَخْلُ وقتاً سَمْعُهُ من لَاحِ^(٤) ولم يعطِّلَ راحةً من راحِ

إن عُدِمَ الصَّافي يكون دُرْدِي^(٥)

(١) في س: الزاكي.

(٢) برزة: قرية من قرى غوطة دمشق، انظر معجم البلدان.

(٣) في ب: الهمة.

(٤) اللاحي: اللاتم.

(٥) الدردى بضم الدال: ما رسب أسفل العسل والزيت ونحوهما من كل شيء مانع كالأشربة والأدهان، والدردى أيضاً: الحميرة تترك على العصير ليتخمر، وفي حديث الإمام الباقر: «أنجعلون في النبيذ الدردى؟ قيل: وما الدردى؟ قال: الروبة» أي الحميرة. أقول وهو غش، والشاعر هنا لا يبالي ما يواتيه من أنواع الشراب فكله سواء ما كان عالي القيمة أو دنيئها.

أَسْرَحُ فِي الْمَرْجِينَ تَحْتَ الشَّقَقِ وَالنَّهْرُ يَمْشِي وَالنَّجُومُ تَرْتَقِي
كَمْ لِي مِنْ قَصْرِ بِهَا وَجَوْسَقٍ ^(١) أَبْيَضُ سَامٍ قَدْرُهُ كَالْأَبْلَقِ ^(٢)
بِمَجْمُوعِ حَسَنِ يَزْدَهِي بِفَرْدٍ
وَالشَّرَفَانِ عُقْلُهُ الْمُجْتَازِ هُمَا جَنَاحَانِ لَصَدْرِ الْبَازِ
وَالنَّهْرُ خَطٌّ لَهَا مُوَازِي يَذْكُرُنِي مَنَازِلُ الْمَنَازِي
حَيْثُ الْحَصَى طُنَّ لَأَلِيٍّ عَقْدِ
كَمْ غَادَةٍ فِيهَا بِعَقْلِي وَلَعَتْ مِنْ بَدَوِيَّاتِ الْفَلَاحِ أُبَدَعْتُ
سَافِرَةً بِالْحَسَنِ قَدْ تَبَرَّقَعْتُ لَمْ أَنْسَهَا وَقَوْلَهَا إِذْ وَدَّعْتُ
كَيْفَ تَكُونُ بَعْدَنَا يَا بُعْدِي
فَقُلْتُ قَبْلَ الْبَيْنِ كَيْدِي انْفَطَرْتُ وَعَبَّرْتِي مِنْهَا الْبَرَايَا اعْتَبَرْتُ
فَانْسَكَبَتْ دُمُوعُهَا وَانْجَدَرْتُ فَخَلَّتْهُنَّ لَوْلَاؤَاتِي نُثْرْتُ
أَوْ جُلَّتَارٍ أَوْ نَدَى فِي وَرْدِ
تَقُولُ لَحَظِي مِنْ بَنِي سِنَانٍ يُنْبِيكَ عَنْ مَقَاتِلِ الْفُرْسَانِ
قَالَهُ بِهِ عَنْ مَوْقِفِ الطَّعَانِ وَإِنْ ذَكَرْتَ الْخَيْلَ فِي الْمِيدَانِ
فَاشْرَبْ كُمَيْتًا وَاعْلُ فَوْقَ نَهْدٍ ^(٣)
مِنْ قَدَّهَا وَرَيْقَهَا الشَّمُولِ أَهْـمِ بِالْعَسَالِ وَالْمَعْسُولِ

(١) الجوسق: الحصن.

(٢) الأبلق: حصن السموال بن غادباء، ويسمى الأبلق الفرد، وقد سبق الحديث عنه.

(٣) الكميت: الخمر سميت بذلك لما في لونها من سواد وحررة، كذلك يسمى الفرس بالكميت إذا كان له هذا اللون، والنهد: الثدي، ويطلق أيضاً على الفرس القوي الضخم. والشاعر يستعمل هنا ألفاظاً تحمل معنيين قريب وبعيد ويكون المقصود المعنى المناسب للمقام واللذين يعيشان فيه، لا المعنى الآخر البعيد، وهذا الأسلوب يسمى التورية.

وَلَحَظَهَا الْفَتَّاكَ فِي الذُّبُولِ وَاحْرَبَاً مِنْ سَيْفِهِ الْمَلُولِ
 جَاوَزَ فِي قَتْلِي كُلَّ حَدٍّ
 وَشَادِنٍ كَالسَّمْهَرِيِّ تُرْكِي عَذَّبَنِي مَيَّاً بِغَيْرِ شَكٍّ
 يَعْطُو أَرْجِئاً كَفْزَالِ الْمَبَكِّ آسَ عَذَابِيهِ^(١) أَبَادَ نُسْكَي
 وَجَلَّنَارُ الْخَدَّجُلِّ قَضْدِي
 جَبِينُهُ أَزْهَرُ كَالْهَلَالِ وَفَرَّقَهُ فِيهِ الْخِلَافُ الْعَالِي
 أَضْوَاءُ بَرْقٍ أَمْ سَنَا لَالِي وَلَحَظُهُ مَظْنَّةُ الْإِشْكَالِ
 هَلْ هُوَ تُرْكِيٌّ وَإِلَّا هِنْدِي
 أَسْمَرُ إِنْ عَايَنَ غُصْنَ الْبَانِ قَالَ اسْتَقِمَّ فَأَنْتَ ذُو أَلْوَانِ
 يَثْنِيكَ فِي الدَّوْحِ النِّسْمُ الْوَانِي وَلَيْسَ لِي فِي قَامَتِي مِنْ ثَانِي
 فَلَا تَقَايِسْنِي فَلَسْتُ قَدِي
 فَيَا رِشْأً يَنْسَمُهُ إِغْرِیضُ وَبَرْقُ ثَغْرِهِ لَهُ وَمِیْضُ
 وَيَا صَحِيحاً لِحَظُهُ مَرِیضُ مِنْ فَتْكَ جَفْنِيكَ أَنَا الْمَهِيضُ
 قَصَرْتَ جَفْنِي وَأَطْلَتَ سُهْدِي
 خَلِيعُ عَشْقِي فِي الْهَوَى جَدَّدْتَهُ بِسَهْمٍ لِحَظٍ رَاشِقٍ قَدْ صِدَّتَهُ
 وَخَدِّي الْمَصْفَرُّ قَدْ خَدَّدْتَهُ بِأَنْثَلِ الدَّمْعِ الَّذِي رَدَّدْتَهُ
 نَهْرًا جَرَى أَخْدُودُهُ بِجَدِّي
 أُمْلِي عَلَيْكَ يَا مَنَى آمَالِي قَوْلَ الشَّجِيِّ لَا أُمَالِي الْقَالِي^(٢)

(١) الآس: شجر دائم الخضرة أبيض الزهر أو ورديه، وثماره لينة سود تؤكل غضة، والمذار جانب اللحية.

(٢) الشجي: من أهاجت الذكرى حزنه وتألله، وكلمة القالي فيها تورية، فالقالي تطلق على =

بأنني أصبحت كالخِلَال والروحُ في جِسمي النحيلِ البالي
مثلُ الأسيرِ مُوثَقاً بالقِدْ
فإن تصلني فأنا السعيدُ أو مُتٌ فيك إنني شهيدُ
أو يطلبوا ثأري ولم يحيدوا قل أنا حرٌّ بالغُ رشيدُ
وابنُ مَكَائِسَ القَتِيلِ عَبدِي
والحرُّ لا يقتلُ بالملوكِ وأنت في حلٍّ بلا شكوكِ
يا قاتلي من دَمِي المسفوكِ ومن تلافِ جِسمي المنهوكِ
فلا تخفُ من أن تَدي وتَفدي
وعاذلٍ قد جاءني مُفَنِّداً بَلَّغني رسالةً من العدى^(١)
يبغي بها للعاشقين الرِّشداً ولستُ من يسمع عَذلاً أبداً
فقلت مَهْ واقنع بهذا الرَّدَّ
إني بعثتُ للعدي رُسُلي يخبرهم أن اللقَاء^(٢) سُولي
ما أنت والتفنيذُ يا عذولي فقال قد تُبْتُ عن الفضولِ
والحمد لله وليَّ الحمد

ولنكتف بهذا القدر من إيراد درر فرائده، وغرر فوائده، فليس
الرَّيُّ عن النشاف^(٣). ومن أحب الاطلاع على لطائف أخباره، وظرائف
أسماره، فعليه برسالتنا الموسومة، بهدايا الكرام، في أخبار محمد أبي الفتح

= الهاجر السالي عن حه، والقالي هو الإمام أبو علي القالي العالم العربي اللغوي الكبير صاحب
كتاب الأمالي، وليس هو المقصود هنا بالطبع، بل المقصود المعنى الأول.

(١) في ب: عن العدي.

(٢) في ب: أن العذار.

(٣) النشاف: الرغبة التي تملو اللب.

بن عبد السلام وتوفى بدمشق الشام، سقى الله مشواه صوب الغمام^(١) عام
خمس وسبعين وتسعمائة. ودفن بباب الفراديس ظاهر دمشق المحروسة،
ورثاه أديب دمشق محمد الرومي^(٢) بقوله^(٣):

مُدَّ عَالَمُ الدُّنْيَا قَضَى نَجْبَهُ مُنْتَقِلًا نَحْوَ جَوَارِ الْإِلَهِ
فَأَغْلَقَ الْفَضْلُ بِهِ بَابَهُ مُؤَرِّخًا مَاتَ أَبُو الْفَتْحِ آه^(٤)

★ ★ ★

وأنشدني لنفسه، قبل حلول رمله سنة ٩٧٥^(٥):

مَرْحَبًا بِالْجِئَامِ سَاعَةً يَطْرَأُ وَلَوْ ابْتَزَّ مِنْ مَدَى الْعُمَرِ شِطْرًا
حَبَّذَا الْارْتِحَالُ عَنْ^(٦) دَارِ سُوءٍ نَحْنُ فِيهَا فِي قَبْضَةِ الْأَسْرِ
وَإِذَا مَا رَحَلْتُ يَا صَاحِرٍ عَنْهَا لَا سَقَى اللَّهُ الْأَرْضَ بَعْدِي قَطْرًا^(٧)

(١) هذه الجملة لم ترد في ب.

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بماميه أو ماماي الرومي، قدم دمشق صغيراً والتحق بالجنسية، ولكنه كان يميل إلى الأدب ونظم الشعر، فترك الجنسية وتفرغ لما يهواه، وقد صحب الشيخ أبا الفتح بن عبد السلام وعليه تخرج بالأدب، وكان إليه المنتهى في الزجل والموال والموشحات، إلى جانب براعة لا نظير لها في التأريخ بالشعر، وقد جمع لنفسه ديواناً ما زال مخطوطاً حتى اليوم.

توفى في ذي الحجة عام ٩٨٧ هـ. انظر شذرات الذهب ٨/٤٦٣، ٤١٤.

(٣) البيتان التاليان في الكواكب السائرة ٢٥/٣، ووردا دون نسبة في آخر ترجمة ابن عبد السلام في شذرات الذهب ٨/٣٨٠.

(٤) قوله: مات أبو الفتح آه تاوي حروفها على حساب الجمل ٩٧٥ وهو تاريخ وفاة الشيخ أبي الفتح بن عبد السلام رحمه الله.

(٥) الأبيات التالية في تراجم الأعيان ٨٨/٢.

(٦) في ب: من

(٧) في ب: لا سقى الله بعدي الأرض قطراً.

ومما كتبه إلى الشيخ موسى السيوري

ومن ذلك ما كتبت به من دمشق الشام إلى الحجاز لأعز إخوان
الصفاء، وخِلان الوفا، الشيخ الفاضل، والسالك الكامل، شرف الدين
موسى بن الشيخ العارف شهاب الدين السيوري الحساني، وهو مجاور
مكة^(١) المشرقة عام سبع وسبعين وتسعمائة:

سَلُّوا الرُّكْبَ عَنْ صَبِّ بَأْعْتَابِكُمْ مُلْقَى	وعن مدمع فيكم مدى الدهر لا يرقأ
ولا تَسْأَلُوا غَيْرَ الْمَطَايَا فَإِنَّهَا	تُخَبِّرُكُمْ عَنْ شَرْحِ حَالِي وَمَا أَلْقَى
أَلَا فَاسْأَلُوا عَنْ مُغْرَمِ كَيْفِ حَالِهِ	حَلِيفُ ضَنْيَ يَشْكُو الصَّبَابَةَ وَالْعِشْقَا
يَحْنُ إِلَيْكُمْ كَلِمًا هَبَّتِ الصَّبَا	سُحِيرًا وَيَصْبُو كُلَّمَا صَدَحَتْ وَرَقَا
وَيَطْرَبُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ	وَعِيشٍ تَقْضِي مَعَكُمْ يَانَعَا طَلْقًا ^(٢)
مُغْنَى بَكْمَ لَوْ رَامَ إِظْهَارَ بَعْضَ مَا	يُجِنُّ مِنَ الْأَشْوَاقِ لَمْ يَسْتَطِعْ نُطْقًا
إِذَا مَا جَرَى وَالرَّيْحَ فِي حَلْبَةِ الضَّنَى	لَفَرَطٍ نُحُولٍ مَسَّهُ أَحْرَزُ السَّبْقَا
يَذُوبُ جَوَى حَتَّى إِذَا عَنْ ذِكْرِكُمْ	جَرَى دَمْعُهُ فِي خَدِّهِ يُخْجَلُ الْوُرْقَا
أَيَا نَازِلِي سَفْحِ الْمُحَصَّبِ مِنْ مَنَى	وَيَا زَائِرِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ الْأَرَفَقَا
فِي مِنْكُمْ ^(٣) دَاءٌ بِقَلْبِي أَجْنُهُ	وَسُورَةُ أَشْجَانٍ مَعِيَ أَبَدًا تَبْقَى
أَحْبَابُنَا إِنْ شَتَّتْنَا يَدَ النُّوَى	وَأَبَدَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ فُرْقَتَنَا حَقًّا
فَإِنِّي عَلَى مَا تَعْهَدُونَ وَحَقِّكُمْ	وَلَمْ أَبْغِ يَوْمًا مِنْ وَلَائِكُمْ عِتْقًا

(١) في ب: مجاور مكة.

(٢) في ب: وعيش تقضي منكم.

(٣) في ب: فلي منكم.

سقى الله أكنافَ الحجاز وأهلَه
وخصَّ كرام الناس في كلِّ بلدة
إِلَه الورى إني دعوتُك ضارعاً
تُجمَعُنَا عما قريبٍ فإنَّنَا
عليكم سلام الله ما هام عاشقٌ
وشام معنى الخوف من نحوكم برّقا
وحياً الحياً عني سويقةً والفلقاً^(١)
لقد صرتُ في حكم الغرام لهم رِقاً
بخير الورى المختارِ أفصحهم نطقاً
أضرَّ بنا طولُ البعاد وما نلقى
وإلى ابن منصور الشافعي

وإلى ابن منصور الشافعي

ومن ذلك ما كتبت به إلى الشيخ الفاضل غلاء الملة والدين المشهور
نسبه العالي بـابن منصور الشافعي، علامة ثغر طرابلس الشام وقد دعاني
لرؤية البلد المذكور، داعية غرام فأشرت في ذلك إلى ما ذكره الكشاف
في سورة القصص في تفسير قوله تعالى ﴿ما علمتُ لكم من إله غيري﴾^(٢) أراد
أن نفي العلم يستلزم نفي المعلوم، فما حار جواباً، ولا نطق صواباً، وذلك
عام ثمانين وتسعمائة:

(١) سويقة: اسم يطلق على عدة مواضع ببلاد العرب، فهناك سويقة: موضع قرب المدينة
كان يسكنه آل علي رضي الله عنه ومن جملة صدقاته.

وسويقة هضبة طويلة بالحصى حى ضربة ببطن الريان في بلاد بني جعفر بنجد.

وسويقة جبل بين ينبع والمدينة. الخ انظر معجم البلدان ١٩٩/٣.

والفلقا (بفتح الفاء واللام) قرية من قرى عثر من ناحية اليمن، (وبكر الفاء واسكان

اللام) من نواحي اليمامة، معجم البلدان ٩١٥/٣.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٧، والسؤال الذي وجهه المؤلف إلى ابن منصور الشافعي هو عن
تفسير الزمخشري للآية الكريمة من قوله: إن نفي العلم يستلزم نفي المعلوم، وقد رد عليه بأن
نفي العلم لا يستلزم نفي المعلوم إلا بالنسبة للخالق جل وعلا، أما بالنسبة للمخلوقين فقول
أحدهم مثلاً: لا أعلم أحداً سبقني إلى هذا، لا يستلزم ألا يكون أحد سبقه إلى هذا فعلاً بل
يجوز أن يكون مسبوقاً ولكنه علمه لم يصل إليه، انظر تفسير الزمخشري ٤٧٦/٢.

سماع يا أيُّ هذا الفاضل^(١) النَّطِيسُ
ومن غدا في بنيتها الزُّهر منذ سما
ومن هو الغيثُ في يوم النوال بل الـ
ومن إذا خفقت رايات فكرته في
ومن به جاءت الأيام طَوْدَ عَلَاً
ذا عزيمة كفرار السيف ماضيه
أغرَّ طلق المحيّا زانه خلُق
مهذباً لو دعي قسّ فصاحتَه
من معشر^(٢) كسيوف الهند ماضية
من كل أزهر حرّ الوجه غُرَّتْهُ
يَهْمِي سحابُ الندى من صوب راحته
قوم لهم في سماء المجد منزلةٌ
ومن هو الحكمُ التُّرَضَى^(٣) حُكُومَتُهُ
وافتك كالروض يُزْهِى غِبّاً سارية
في طرفها صَيِّدٌ في جيدها جَيِّدٌ

ومن تسامت بُعلياه طرابلسُ
سما فضلٍ وهُم من حوله حَرَسُ
بَحْر الزُّلال بها في الجود ينبجسُ
البحث شاهدت ليث الغاب يفترسُ
رِعَانُهُ^(٤) من خطوب الدهر مُحْتَرَسُ
وهمة منزل الجوزاء تكتنس
حوى اعتدالاً فلا لين ولا شرسُ
عراه عند تناهي نطقه خرَسُ
نَمَتْهُمْ للمعالي سادة نُطُسُ
كأنها في دياجي ظلمة قَبَسُ
كما هَمِي واكفُ الأنداء يرتجسُ
زُهر الكواكب منها النور تقتبسُ
ومن يدين بعالي فضله الأُنْسُ
أو غادة يَزْدهي أعطافها المَيْسُ
في قَدْها مَيِّدٌ في ثغرها لَعَسُ^(٥)

(١) في ب: الفضل.

(٢) الرعان: أنف الجبل الذاهب طولاً.

(٣) في ب: في معشر بدل من معشر.

(٤) الألف واللام في كلمة الترضى اسم موصول بمعنى الذي أي الذي ترضى حكومته، وقد ورد ذلك في شعر للفرزدق في قوله:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذو الرأي والنسب

(٥) الصيد بفتح الصاد والياء: الكبر، والجيد طول العنق وحسنه، والميد: الثني والتبخر، واللّمس: سواد محبب في الشفة.

من نازح الدار قد شطَّت بجيرته
 لم يبق منه على نأي الديار سوى
 يكي المنازل أقوت من أجبته
 وافتك من جلق الفيحاء لابرحت
 تسعى ميممة عليك راجية
 في طيها بعد نشر الود غامضة
 ما جاء في الذكر مما قال في ملأ
 وفيه قد قيل نفي العلم كُن فطناً
 وكونه في بني ذا النوع تبطله
 إذا فتجوزيه في الفرد ممتنع
 أثناء مطوية الكشحين ناظرة
 لا زلت عالم هذا القطر سيده
 ما ضاع في منتداه الفضل منتشراً
 وغردت بأعالي روضة سحراً
 نوى شطونٌ ودهرٌ جائر نيس
 رسم متى صح بالتذكاري ينتكس
 بدمع في نواحي خده يطس
 على معالمها الأنواء تنبجس
 جدواك فضلاً وحب الود تلتمس
 إلا على فهمك النقدا^(٧) ياندس
 من نفي رب سواه المسرف الدنس
 مستلزم نفي معلوم كذا درسوا
 أدلة من كلام القوم تقتبس
 فاشرح لنا كنهه يا أيها النطس
 عن طرف أوظف لب المرء تحتلس
 تحيا بصوب حياك الأربع الدرس
 ما بين أرجائه والضد منتكس
 ولاح ورق صباح وانجلي غلس

وكتب إليه داود بن عبيد خليفة

ومن ذلك ما كتب به إلى الأخ الفاضل رئيس الأفاضل، داود بن
 عبيد خليفة نزيل دمشق لما قدم الشام منفصلاً عن بعض مدارس الروم
 في لفظ مشترك (الغرب)، طالباً مني أن أنسج على منوالها، وأحنو
 مثالها، وذلك سنة ٩٧٩:

(١) في ب: الوقاد.

لقد ضاء وجه الكون وانسلَّ غَرْبُهُ
وسائلُ وصلٍ منه لما رأى الجفَّا
يمرَّ عليه الحتفُ في كلِّ ساعةٍ
تدلِّي إليه عندما لاح فقده
ولولا بروقُ الرِّقْمَتَيْنِ وكاظمٍ
فلم يدر أئماً شرقه ثمَّ غَرْبُهُ
بما قد جرى من بُعده سال غَرْبُهُ
ولكنَّ بِحَجَبِ السُّقْمِ يمنع غَرْبُهُ
بشعر شنيبٍ قد روى الغُلَّ غَرْبُهُ
لظَلَّ بنيه عندما زاد غَرْبُهُ

فكتبتُ إليه هذه الأبيات العربية التي هي لا شرقية ولا غربية^(١):

أمن رسم دارٍ كاد يُشجيك غَرْبُهُ (مالها)^(٢) نزحت زكيَّ الدمع إذ فاض غَرْبُهُ عِرْق العين
عفا آيَه نُسْجُ الجنوب مع الصِّبا وكلُّ هزيمِ الوَدَقِ قد سال غَرْبُهُ الدلو العظيم^(٣)
به النوءُ عَفَى شِطْره فكأنه هلالٌ خلال الدار يجُلوه غَرْبُهُ محل غروبه
وقفتُ به صَحْبي أسأيلُ رسمُهُ على مِثْلِها والجَفْنُ يَذرفُ غَرْبُهُ دمه
على طللٍ يحكي رقوماً^(٤) برسمه بحاجة صبَّتْ طال بالدار غَرْبُهُ التادي
أقول وقد أُرْسَى الفنا^(٥) بعراصه وأنزف أهليه البعادُ وغَرْبُهُ النوى

(١) وردت القصيدة التالية في ريجانة الألبا ٤١٣/٢ - ٤١٥، ويذكر الحفاجي في صفحة ٤٠٩ أن الحريري لو سمع قول شامة الشام (يعني الطالوي) فيما أتى به في الغرب من الجناس التام ما حوّل واسترجع، لأن الحريري ذكر الغرب في عدد من الأبيات في إحدى مقاماته، فأتى الطالوي في قصيدته بما أرى عليه كثيراً. هذا والشرح الذي يرد عقيب كل بيت وارد في نسخة ب فقط، ولم يرد في نسخة المؤلف.

(٢) مالها: تفسير لكلمة الغرب، فالغرب من معاينة كثرة المال، ويقال: أغرب الرجل أي كثر ماله.

(٣) في الريجانة: الشائل والصبا، وفيها: إذ فاض غربه، وفيها: ذهابه وبجيشه بدل الدلو العظيم.

(٤) في ب: رقوقاً، والرقوم: الآثار، والعلامات.

(٥) في ب: العنا.

سقى ربّك المعهودَ ريعانُ عارضٍ
وليلِ كيومِ البينِ مُلقِي رواقه
أراعي به زُهرَ النجومِ سَواجاً
يراقب طرفي السائراتِ كأنما
كأنَّ جناحي نسه حصّ منها
ذكرت به لقيا الحبيبِ وبيننا
فهاج لي التذكارُ نارَ صبايةٍ
إلى أن نضا، كفَّ الصباحُ حسامه
وولّت نجومُ الليلِ صرعى كأنها
وأقبل جيشُ الصبحِ^(٢) يغمد سيفه
وزمزمَ فوق الأيكِ قمرئٍ بانهٍ
فهبَ يدير الراح بدرّ يزينه
من الريمِ خوطيُ القوامِ بثغره
بجدّ أسيلٍ يجرح اللبَّ خده
يُريك شبيه الدُرّ منه منضداً

يسحُّ على سُحْمِ الأثافي غرْبُه الراوية^(١)
عليّ وقد جَلَى الكواكب غرْبُه أول الشيء
بيحر من الظلماء قد جاشَ غرْبُه أعالي الماء
لطول دوامِ نيط بالشهب غرْبُه مقدم العين
قوادم^(٢) حتى ما يزايل غرْبُه التنحي
أهاضيبُ أعلامِ الحجازِ وغرْبُه شجر الحجاز
لها الجفنُ أضحى يَقْذِفُ الدَّمَغ غرْبُه ميل الدع
وأغمِد من سيفِ المجرّة غرْبُه حد السيف
أريق عليها من فمِ الكأس غرْبُه الفيضة من الخمر
ينخر الدجى والليل يركض غرْبُه الفرس الكثير الجري
بروضٍ كفاه من ندى السُحْب غرْبُه يوم السقي
إذا قام يجلوها على الشرب غرْبُه النشاط^(٣)
سلاسلُ راحٍ ييرىء السُّقْم غرْبُه سيلان الريق^(٤)
وطرف كحيلٍ ينفثُ السحر غرْبُه مؤخر الطرف
كمنطقي داود إذا صال غرْبُه الحد^(٥)

(١) في الرميحة: درره.

(٢) حص منها: سقط وتناثر والقوادم: الريشات العشر الكبار في مقدم الجناح، وفي ب:

خص منها... حتى...

(٣) في الرميحة: جيش الليل، وما هنا أصح.

(٤) في الرميحة: ساقه.

(٥) في الرميحة: من الروم، وفيها: سلافة الريق.

(٦) في الرميحة: الزبور.

فتى قد كساه الفضل ثوب مهابة لها خَصَّمه قد نَشَّ^(١) بالفم غربُه الريق
إليك أَتَتْ تغلي الفلا بدويَّة ولم يُنْضِها طولُ المسير وغَرْبُه البعد
فيا من رقي هام المعالي وفكره

لدى البحث أمضى من شبا الليث غربُه [حده] (٢)
أرق من الصهباء فاعجب بِسَيِّها وأعذبُ من ثغرٍ حوى الشَّهد غَرْبُه منقطع الريق
إذا ما جرت في حلبة الشعر لم يك السكيت يدانيها وإن زاد غربُه حدة الجري
ولو عرضت يوماً لغيلان (٣) لم يكن بأطلال ميّ يفرق الجفن غربُه انبهاال الدمع
فدونكها لا زالت تسمو إلى العلا مدى الدهر ما صب سقي الدار غربُه الفيضة من الدمع
وما غردت ورق الحائم بالضُّحى وأشرق وجه الكون وانجاب غربُه المغرب

مطارحة بينه وبين يوسف العلمي

ومن ذلك ما كتب به إلى الأخ الفاضل الألعى الكامل المكمل (٤)

(١٣) في الريحانة: بهائه، ونش: أي جف، وفي ب والريحانة: شن.

(١٣) لم يرد في الريحانة.

(١٤) يعني بغيلان غيلان بن عفة المصري، والملقب بذي الرمة، شاعر أموي، كان شديد القصر يضرب لونه إلى السواد، عشق مية أو مي المنقرية واشتهر بها، وكان يقيم بالبادية ويحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً ليلتقي بزملائه من الشعراء، توفي بأصبهان عام ١٧٧ هـ، وله ديوان شعر طبع عدة طبعات، انظر الموشح ١٧٠ - ١٨٥، الفهرست ١١٧/١.

(١) لم ترد هذه الكلمة في ب.

اللوزعي^(١) حِمال الدين يوسف العلّومي^(٢) مُلغِزاً في ارقم^(٣)، عام سبع
سبعين وتسعمائة^(٤):

عذاب المعنى فيك يجلو ويغذبُ	وقلبي على نار الجحيم يُقَلَّبُ
وكلُّ مغرام فيك ^(٥) بردٌ وشقوةٌ	نعمٌ ومكروهٌ لذيدٌ وطيبٌ
وكلُّ عناء فهو للقلب راحةٌ	وكلُّ سِقام فهو بالقرب يذهبُ
فما اخترته للصَّبِّ قصدٌ ومنية	ومها تراه ذاك سُؤلٌ ومطلبٌ
فأنت حياة للفؤاد ومنتهى	إرادة عبد خاضع لك ينسب
يهمُّ بكم وجداً ومن أجل بُعْدكم	بأحشائه وَقَدْ تَلَّاهُ تَلَهَّبُ
وأدمعه فوق الغمام إذا همتُ	على الحَدِّ كالغُدران إذ هي تُسْكَبُ
ومن عجبٍ ضِدَّانٍ عندي تَجَمَّعا	تَلَهَّبُ نارٍ فوقها الدمع صَيَّبُ
عسى رحمة منكم لصَبٍّ متيمٍ	مؤمِّلُهُ في الدَّهر منكم تقَرَّبُ
فيا دهر لو جادت عطاياك بالمنى	كما جاد لي بالسُّؤلِ مولى مهذبُ
لصُفْتُ مديحي فيك مثل مديح من	أياديه في الإِطاء بابٌ مجرَّبُ

(١) اللوزعي: الخفيف الذكي الطريف، والحديد الفؤاد والنفس، واللن الفصح كأنه يلذع
بالنار من ذكائه.

(٢) يوسف بن أحد العلّومي، دمشقي، كثير النظم، أكثر شعره ليس فيه إلا الوزن والقافية،
وكان يعرض قصائده على الناس ويطلب تقريرها، ثم يجعلها أحد أصحابه مع التقاريط كتباً،
من ذلك مثلاً قصيدة مدح بها قاضياً يدعى «فيض الله» فسميت مع التقاريط: «الفوائح
المسكية في المدائح الفيضية»، وفيها يلي قصيدة أخرى ملية من هذا النوع.

انظر الأعلام ٢٨٦/٩ نقلاً عن كتاب لطف السر للغزي، وانظر خلاصة الأثر ٥٠٠/٤.

(٣) الأرقم: ذكر الحيات أو أخبثها.

(٤) في ب: سنة ٩٧٧.

(٥) في ب: غرام بدل ضرام.

ويخفضُ للرّاجي جناح نجاهه
وذاك ابن طألو من تطاول في العلا
له رتبة في المجد عالٍ سنامها
ففي بطنه قُصًا وسحبان قد حكى
حلّى منه للرّائين شكلٌ ومنظرٌ
وعندي سؤال ليس يدرك كنهه
هو اسمُ ربّاعيٍ ويمنع صرفة
سمّاه ذو روح عظيم إذا مشى
له هبةٌ ولت لها الأسدُ خيفةً
فذاك مُضِرٌّ كونه هو قاتل
فأول حرف الحمد أول حرفه
وقد رقّ ثانية وثالثه معاً
ولي أرقّ قد صار مع حذفٍ آخر
وذا اسم بقطع الرأس بيدٍ ولحاسب
ومبدأً ثانية فمرّ مصحفاً
وإن شئت قل ما رق بالقلب جمعه
وقل قمرًا إن شئت مع حذفٍ أولٍ
تأمل معانٍ فيه قد قلت ملفزاً
فمثلك من نرجوه في حلٍّ مشكل
ويوسف نجل العلمي بمدحه
تمتّع ودم واسلم وعش في مسرةٍ
بجاء رسول الله طه وآله

ويسمح للّاجي كذا قبله الأب
علاه وعنه انخطّ في الأفق كوكبُ
ورتبته في العلم للشمس تصحبُ
وفي نظمه من ذا يضاويه يتعبُ
والفاظه أشهى وأحلى وأعذب
سواه وقصدي حلّه حيثُ يصعبُ
دواماً وأحياناً يضافُ ويعرب
على الأرض تخشاه الأنامُ فتهربُ
ففي البرموجود وفي البحر فاعجبوا
وذاك لنفع بعضهم فيه يرغبُ
وآخره بدءاً اسم قولي مُرتّبُ
وآخره مع أولٍ ما فيطلبُ
جليّاً وللأفهام ذلك يقربُ
ورخمه يبقى اسماً إذا أنت تحسبُ
مع القلب قد وافى وليس يحجبُ
وكم فيه يأتي للمولى مذهب
بقلب فيبقى اسماً مع اسم يقلّبُ
ورّد جواباً أنت لي فيه مطلبُ
وكم غالب في فنه أنت تغلبُ
أتاك فكن تَمَن له المدح يجلبُ
مع الأمن بما أنت تخشى وترهبُ
وأصحابه ما دام شرق ومغربُ

فكتبت له الجواب عن سؤاله، لا برج الأدب مَقِيل ظلاله:

أشمس بهاء بالهلال تَنَقَّبُ أم البدرُ في لألائه ليس يُخَجَّبُ
 أم الأنجم الزُّهر المنيرة بالدجى | جَلَّاهَا بِكَرْسِيٍّ المجرَّة غِيهَبُ
 أَعَرَفْتُ ذِكِّيَّ من عَرَارٍ وفي بِهِ نَسِمْ الصَّبَا أم مِنْكَ دَارِينَ يَخُجَّبُ
 أَسْلَالُ رَاحٍ أم سَلَّالٍ عَنجَدٍ أَسْنَطُ لَالٍ أم جُحَانٍ يُثَقَّبُ
 أَرَوْضُ أَرِيضُ بِالْأَقَاحِي مَنْوَرُ به المَزْنُ تَهْمِي والغَمَائِمُ تُسَكَّبُ
 أم الزُّهْرُ يَبْدُو من خِلَالِ خَمَائِلٍ بها السُّحْبُ أَذْيَالُ المَطَارِفِ تَسْحَبُ
 أم الطَّيْفُ من أَسْمَاءٍ وهو مُحَبَّبُ سَرَى مَوْهِنًا وَالدَارَتْنَى وَتَقْرُبُ^(١)
 ذَكَرْتُ بِهِ شَرْخَ التَّصَابِي وَجِيرَةٍ نَأَوَا وَالحَشَا من بَيْنِهِمْ^(٢) يَتَلَهَّبُ
 أَقُولُ وَقَدْ عَايَنْتُ شَيْبًا يَمْفَرِقِي غَدَاةً افْتَرَقْنَا وَالمَدَامُ تُسَكَّبُ
 سَقَى الله رِيْعَانَ الشَّيْبَةِ وَالهَوَى وَجَادَ الصَّبَا هَامٌ من المَزْنِ صَيَّبُ
 فَمَكْ غَادَةٍ لِي فِيهِ نَازَعَتْهَا ضُحَى حَدِيثَ الهَوَى كَالرَّاحِ بَلْ هُوَ أَعْذَبُ
 رَدَّاحٍ تَهَادَى من شَبَابٍ وَنَعْمَةٍ

كما يَتَهَادَى الرُّوضُ وَالرُّوضُ مُعْشَبُ^(٣)
 بِرَهْرَهَةٍ^(٤) تَرْنُو بِطَرْفٍ كَمَا رَنَا إِلَى سَرْبِهِ وَسَطِ الحُمَيْلَةِ رَبَّرَبُ
 مِنَ الرُّودِ أَمَا الحَخْصَرُ مِنْهَا فَمُجْدِبُ نَحِيلُ وَأَمَّا الرِّدْفُ مِنْهَا فَمُخْصِبُ

(١) الموهن: نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه، وفي المخطوطة ب: تغرب بدل تقرب.

(٢) من بينهم: أي من فراقهم وبعدهم.

(٣) في ب: وراح تهادى... والروض يعشب، والرداح: السينة الردف والأوراق.

(٤) البرهرة: السينة البيضاء.

(٥) الرود: التمهلة في سيرها.

فلم أنس إذ جاءت تهزّ معاطفاً
تسائل عن معنى خفيّ إذا بدا
هو اسم رباعي إذا رمت عكسه
بدا اسم لروض^(١) بالشّام كجنّة
فأول حرف منه مع آخر يرى
وأول حرف منه إن صار ثانياً
وإن أنت لم تعكسه يوماً فإنه
فثانيه مع تاليه ما دام صبّكم
وثالثه مع رابع^(٢) إذا ما قرنته
فما بعده مرأى يروق لناظر
تراني وقد أبصرته متهللاً
فيا فاضلاً شاد القريض بفكره
ومن فاق أبناء الزمان ومن غدا
تأمل جواباً قد جلا غيب الدجى
وخذها كروض جاده سبل الحيا
فلا زلت في أمن وعزّ ورفعة
مدى الدهر ما غنت بأيك حمامة

عليها من الديباج وشي مذهب
أراني زفّرات الحسان ترحب
وسهلت منه همزة حين تقلّب
إلى مثله يصبو الفؤاد ويرغب
أداة لتعريف بها النطق يعذب
فذاك اسم طير بالرياض يشبّ
يلوح لدى الأفهام طوراً ويغزّب
عليه مدى الأيام يلهو ويلعب
بثانيه يبدو وجه حبّي المحجّب
أبعد سلمي في الصباة مطلب
أغالب فيه الشوق والشوق أغلب
له في مجال البحث رأي مصوب
له همة هام السامكين تصحب
يخبّر عن معنى حباب ويغرب^(٣)
وأضحت أغصانها الورق تخطّب^(٤)
تجيد قوافي الشعر والصد تغطّب
ودار على أعلى المجرة كوكب

★ ★ ★

(١) في ب: روض.

(٢) في ب: مع رابعه.

(٣) الحباب: هو الغاية فيما نريد.

(٤) ساقط من ب.

وما كتبه إليّ مع ظبي كالرّيم، مستحثاً بخلص حقه من غريم.

لمجد ابن طالو في الوري غاية قصوى	وفي العلم عنه كل مسألة تُروى
لقد فاق في آدابه كلّ عالم	إمام وفي إنعامه أكرم المثوى
وفي فضله الأحكام أمضى إذا قضى	من الصارم الهنديّ فهو كما يُروى
فذي شامناً أضحت به وبحكمه	تتبعه على الدنيا برونقه الأضوى
وإنّي مشغولٌ بتجديدٍ محمل	وحاملها وكلّته يفعل الدعوى
فيا سيداً أضحي عزيزاً مكرماً	وحصل أنواع الكمال كما يهوى
بحقّك كن عوناً لمن غرماًؤه	بتقصيرهم يُلجونه يُظهر الشكوى
تفضلّ على مثلي بتخليص حقه	وخلصه إذا الفضل من مُعظم البلوى
فإنّ حقوقي عند بعض جماعة	وقد أكلوها مثل ما تُؤكل الحلوى
سئمت من الأخصام كلّ يصدني	بوعدي ولم أقدر عليه ولا أقوى
وأنت ظهيري في القضاة ومنصفي	وحاشا يخيب الظنّ فيك من الرجوى
فلا زلت ترقى في الأنام منازلأ	بسعدٍ وإقبال إلى الغاية القصوى
بجاء رسول الله طه وآله	نبيّ هو الحمودُ في السرّ والنجوى

تخميس بيتين للسلامي

أنشدني أعلم الأدباء وأفضل العلماء، من نطقه السحر الحلال،
ومنطقه الصفو الزلال، الشيخ محمد بن هلال^(١)، بيتين للسلامي^(٢)

(١) هو محمد بن هلال الحنفي، فقيه أصولي، له رسالة في علم الأصول في المكتبة التيمورية بالقاهرة، انظر فهرسها ٤ / ١٦٤، توفي سنة ١٠١٢ هـ.

(٢) هو محمد بن عبد الله الخزومي القرشي أبو الحسن السلامي، نسبة إلى بغداد (دار السلام)

معرضاً لتخميسها ، فامتثلت إشارته فيها ، وقلت :

تالله لم يكُ عنك الدهر قط سلا
مُضنى لأحشائه حر الغرام سلا
بل منذ أرشفته من فيك كأس طلا
ما ضنَّ عنك بوجود ولا بخلا أعزَّ ما عندة النفس التي بذلا^(١)
لما رأوه بهم مغرى أسير هوى
زموا المطي وأموا منزلا بطوى
وغادروه بنضو الدار نضو هوى
يحكي المطايا حيناً والهجير جوى والمزن دمعاً وأطلال الديار بلى^(٢)

ومن هذا الباب قولي بسؤال بعض الأصحاب :

سفينة الحبِّ في بحر الغرام رستُ وسيُرُّها بريح الحبِّ مرتينُ
فإن تهبَّ بما لا تشتهي فلقد تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

★ ★ ★

ومن هذا الباب أيضاً :

أحبَّتْنا مهلاً بصَبِّ ملكتُمُ ورفقاً بقلب لُبِّه قد أذبتُمُ

= من أشعر أهل العراق في عصره ، اتصل بالصاحب بن عباد في أصبهان فرفع منزلته وجعله من خاصته ، ثم قصد عهد الدولة في شيراز فحظي عنده وناداه وكان يقول عنه : إذا رأيت اللامي ظننت أن عطارده قد نزل من الفلك إلي ، وقد أقام عند عهد الدولة حتى وفاته ، وبعدها رقت حاله ورجع إلى بغداد حتى توفي عام ٣٩٣ هـ ، وله ديوان شعر جمع حديثاً .
انظر يتيمة الدهر ٣/٣٦٥ ، وتاريخ بغداد ٢/١٥٧ .

(١) البيتان في ديوانه ٨٨ .

وحسبكم هذا الصدود فإننا نرى عظما بالصدّ والبين أعظم

★ ★ ★

وقلت في مدرس من أهل دمشق، وهو العلم في الفسق، يدعى بقاضي
كمّون على لسان المدرسة مسؤولاً في ذلك:

شكتُ صفحة المحراب لما أتيتُ وأبدتُ زواياه مقالةً محزونٍ
بليت بعمرٍ جاهل بدراسة مواعيدُه بالدّين لي وعدُّ كمّون
إشارةً وتلميحٌ لقول القائل:

لا تجعلوني ككمّون بزرعةٍ إن فاته الماء أغنته المواعيد

★ ★ ★

وما قلته على لسان خزانة كتب هيئها دقت، وعظمت أبصارها^(١)
وجلّت:

ضئيلةً جسم إن أكن فلقد ثوتُ بصدري لإخوان الصفاء رسائلُ
ولا غرو أن طلتُ المجرَّ فإننا بملك رقيّ الطالوي أطاولُ

★ ★ ★

وما قلته في وصف ليلة سامرتُ فيها بعض أقمار دياجيتها من ريم
الكيناس، في أدباء أكياس، وسط غرفة مطلة، على رَقراق كنهر الأبلّة:

(١) الأبصار جمع بُصر بضم الباء وهو السمك والارتفاع.

يا ليلة أذكرتني	قَدَمًا لِيَا لِيَا وَصَلِي
أَيَّامَ عَصْرِ التَّصَايِي	بِالْفَيْدِ تَجْمَعُ شَمْلِي
فِي قَتِيصَةٍ كَنُجُومِ	أَضْحَتْ لَطِيفَةً شَكْلِي
بِغَرْفَةٍ فِي بِنَاهَا	تَسْمُو النُّجُومَ بِفَضْلِي
غَرَاءَ بِلَاحَاتِ نَدِيمِي	حَتَّى الصَّبَاحِ وَيُفْلِي
بِهَا عَلَيَّ حَدِيثَا	عَنِ الْمَدَامَةِ يُبْلِي
ظَنِّي إِذَا مَا تَبَدَّى	سَبَا الْبَرَايَا بِدَلِّي
يَفْتَرُّ عَنْ ذِي غُرُوبٍ ^(١)	عَزَبَ عَنِ الرَّاحِ يُجْلِي
وَيَنْشُرُنِي بِقَوَامِ	كَخُوطِ بَانَةِ رُمْلِي
مَنْ لِي بِرَشْفٍ لِمَاهِ	مَنْ لِي بِذُلِّكَ مَنْ لِي
ذُو مَقْلَةٍ الرَّيِّمِ وَسَنَى	بِلَحْظِهَا رَامَ قَتْلِي
مَا زِلْتُ أَنْقُلُ عَنْهُ	سَحَرُ الْعَيُونِ وَتَمْلِي
حَتَّى إِذَا النُّجُومُ أَهْوَى	لِغَرْبِهِ فِي تَدْلِي
وَأَقْبَلَ الصَّبَحَ لِمَا	مَرَّ الدَّجَى فِي تَوَلِي ^(١)
غَدَا بِنَارِ غَرَامِ	بَيْنَ الْجَوَانِحِ مُصْلِي

وقال في تضمين بيت للباخرزي

ضميني وعين الأدباء، وزين الفضلاء، العلامة شمس الدين محمد بن هلال، رب الفضل والإفضال، بمجلس العلامة شيخ الإسلام المولى ابن

(١) الغروب: كثرة الرقيق في النعم.

المعيد^(١)، مفتي دمشق، فدخل الشيخ باقان، فثقل المجلس علينا فانشدني للباخرزي قوله:

إلى متى تُتعبُ البرايا يا نَسْرُ لُقْمان كم تعيش

وسألني أن أضمنه وألحّ في السؤال، فقلت في الحال وذلك سنة ٩٨٢:

باقان باقان لا ألت	بك السّواري لها طشيش ^(٢)
ألا ترى كيف حتى	فارقك الراشئ الحريش ^(٣)
فدبّ نحو الشام يسقى	على ارتهاش له قشيش ^(٤)
ألم تكن جلبهاك ضمت	ماءً وعشبا منه ينوش ^(٥)
فينضوي ^(٦) في جماك يرعى	حيث انضوت حولك الوحوش
لقد شكت جلقّ عناها	من رعش مالـه بطيش ^(٧)
شيخ قديم يروي حديثاً	عن شيخ ساسان ما يميش ^(٨)

(١) ابن المفتي: محمد بن المولى أبي السعود، تولى قضاء دمشق أوائل سنة ٩٦٥ هـ فحسنت سيرته، وكان عالماً فاضلاً كريماً جواداً، مدحه شعراء العصر مثل أبي الفتح المالكي ومامي الرومي وغيرها، ثم أضيف إليه قضاء حلب، توفي عام ٩٧٢ هـ.

(٢) السواري: جمع سارية وهي الحابة التي تمطر ليلاً، والطشيش: صوت المطر الضعيف.

(٣) الراشئ: الطفيلي، والمقم بفتح الميم وفتح القاف وهو الذي يأكل كل ما على الخوان من الأطعمة، والحريش الذي يبيع الحيوان ليصيده.

(٤) الارتهاش: الضعف واصطكاك الأرجل منه، والقشيش: الصحة بعد الوهن.

(٥) جلبهاك: أي ما تجلبه، والجلب: الكسب، وينوش: ينال منه.

(٦) في ب: فينغوي.

(٧) الرعش: المرتعش أو الجبان، ما له بطيش: ما له تبحر في العلم.

(٨) شيخ ساسان أي شيخ المكدين، والمكدي هو الذي أرهقه الدهر وأجأه إلى طلب العون من الناس بأسلوب طريف يجعلهم يسرعون إلى معاونته وإعطائه ما تجوده به أنفسهم وما يميش: أي الذي يميش، ويميش: يخلط الجد بالهزل أو الصدق بالكذب.

هَرْدَبَةُ كَنْدَشُ الْجَرِشِيِّ	خَرَاءُ فَقِي مَضْفَه جَرِشٌ ^(١)
يَخَالُوهُ الْغِرُّ فِي اَزْدِرَادِ	سَعَلَى رَمَاهَا خَبْتُ خَمِشٌ ^(٢)
هَنْتَه، قَوْسُ الْكَرَاتِ قَوْسًا	وَهُوَ سَهَامُ الْمَنَا يَرِيشُ ^(٣)
يَرْقُبُ لَيْلًا بَنَاتِ نَعَشٍ	حَتَّى تُخَلَّى لَهُ النُّعُوشُ ^(٤)
فَيَنْتَحِيهَا عَلَى عَصَاةٍ	ضَمَّتْ لَكَرْشٍ فِيهَا خَدُوشُ ^(٥)
بِهَا يَجُوبُ الْفَلَاةُ دَوْمًا	يَبْنِي مَعَاشًا بِهِ يَعِيشُ ^(٦)
قَالَ خَلِيلِي لَمَّا رَأَاهُ	وَقَدْ تَلَّاهُ فَرَعُ نَوُوشُ ^(٧)
يَنْسَابُ مِنْ خَلْفِهِ كَأَيْمٍ	يَنْسَابُ ذِعْرًا لَهُ كَشِيشٌ ^(٨)
سَدَّ لَطْفَمٍ أَحَدًا نَابًا	مِنَ السَّبْنَدَى مَتَى يَجِيشُ ^(٩)
أَوْعَى لَنَجْوٍ شَيْخٍ سَرُوجٍ	مِنْ ابْنِهِ حِينَ يَسْتَجِيشُ ^(١٠)

- (١) المردبة: الجبان الضخم القليل العقل، والكندش: العمق، وهو طائر من نوع الغربان والعرب تشاءم به، والجريشي: النفس، ومضغه جريش: أي قوي نافذ.
- (٢) السعلَى: الغول، الخبت: الأمر الرديء المكروه، والخميش: ذو الخموش وهي الجروح التي تصيب الجلد.
- (٣) في أ: هنية، وهنته أي شيؤه الغريب الذي يلعب به، ويريش السهم: يركب عليه الريش ليرفع في النفوذ.
- (٤) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبهت بحملة النمش، الواحد ابن نعش.
- (٥) الكرش لكل مجتر بمنزلة المعدة للإنسان، وهي مؤنثة فيقال كرش كبيرة أو نحو ذلك.
- (٦) كلمة الفلاة ساقطة من ب، وفيها: بها يعيش بدل به.
- (٧) النُّوش: القوي ذو الغلبة.
- (٨) الأيم: الحية الذكر، والكشيش: صوت جلدتها إذا احتك بمعضه ببعض.
- (٩) السبندى: النمر، ويجيش: يهزل من الجوع.
- (١٠) النجو: النجوى، وهي الحديث الخامس بين اثنين أو أكثر، وشيخ سروج هو أبو زيد الروجي بطل مقامات الحريري، ويستجيش: تثور نفسه من الجوع.

إن كاد يُليك صرف دهر سهام مرماه لا تطيش
 فابن يبي زيد كبشُ ساسا ن بعد أبيه حَزَقُ كَمِيشُ^(١)
 وأنت يا شيخُ كم تعاني سورة دهر لها كَشِيشُ^(٢)
 خلّفت تسعين خلف ظهر حَكَّتْهُ في شكلها الرهيشُ^(٣)
 وعشّس الهامُ فوق هام منك وصرف الرّدى ينوشُ^(٤)
 إلى متى تُتعب البرايا يا نسر لقمان كم تعيش

وقال في استخلاص علوفة مدرسة

ومما كتبت به إلى مولانا أقضى قضاة الإسلام عبد الغني أفندي
 القاضي بدمشق الشام^(٥)، سائلاً فضله في استخلاص علوفة^(٦) مدرسة
 الخاتونية، إحدى مدارس دمشق المحمية، من ناظرها شرف الدين
 الأعرج بن الحكيم^(٧)، لا برج بطبّه الدهر سقيم، قوله:

(١) الحزق: البخيل المسك، والكميش: الجاد في الأمر، المشر له إزاره.

(٢) السورة: الغضب، والكشيش من معانيه: الهدير.

(٣) الرهيش: الضعيف الدقيق القليل اللحم.

(٤) الهام: طائر صغير من طير الليل يألف المقابر، أو البومة، وينوش: يناله ويأخذه.

(٥) عبد الغني أفندي بن ميرشاه الحنفي قاضي القضاة، قدم دمشق أواخر سنة ثلاث وثمانين
 وتسعمائة، وباشر الأحكام بها، وكان ديناً خيراً عفيفاً نزهاً حنّ الأخلاق تولاهم مدة ثم
 انفصل عنها وتولاهم ثانية عام ثلاث وتسعين وتسعمائة نحو ستة أشهر، ثم أعطى قضاء مصر.
 انظر قضاة دمشق ٣٣٢، ٣٣٤.

(٦) العلوفة: المرتب المخصص للمدرسة.

(٧) هو شرف الدين محمود بن يونس، الخطيب الطبيب الحنفي، ولي خطابة الجامع الأموي،
 ودرس بالخاتونية والجفمية من مدارس دمشق، ولكنه لم يكن محمود البيرة ولا مقبول
 الطريقة من معاصريه من العلماء فأفاضوا في ذمه، ومن ذلك ما يمكن أن تراه في نفحة الريحانة
 ٣٣١/١ - ٣٣٥، وخلاصة الأثر ٣٢٤/٤.

مولاي يا قاضي القضاة ومن
 وسيداً باب جوده حَرَمَ
 قد^(١) شاع في الشام عدله وغنا
 قصدته راجياً على ثقة
 فهو بشرع النبي يفصل ما
 من ناظر فيه للبصير عَمَى
 يروم أكلاً معلوم مدرسة
 من درس معلومها ومعلمها الـ
 هو النظامي منذ حل بها
 فلم يدع من رسمها سوى أثر
 ومعلم كاد أن يبيد بما
 هلاً نظرتم في حالها كرمأ
 أضحى فقيراً إلى الغني وهل
 يحاول السير نحو أذنية
 لا زلت في رفعة وفي دعة
 ما سار في الأفق كوكب وسرى

بالعلم والحلم طاب مَحْتِدُهُ
 أمن جيع الأنام تقصيده
 كمثل ما ذاع فيه سؤدده
 نجاح قصد إليه مسنده
 راح ألد الخصوم يجحده
 أضله الله كيف تُرْشده
 تشكو إلى الله ما تكابده^(٢)
 قديم ما به يجده
 عدي على شملها يبدده
 تعرفه العين ثم تجحده
 من جهله قد غدا يهدده
 وحال عبد قد طال موعده
 فقيراً يرى والغني سيده
 يخشى بكمث يفوت مقصده
 وحفظ عيش يطيب مورده
 نسم روض شدا مفرده

* * *

وما كتبه مولانا وسيدنا شيخ الإسلام، علامة علماء مصر والشام،

(١) في ب: مذ بدل قد.

(٢) ساقط في ب.

كشاف حقائق التنزيل، العالم بأسرار دقائق التأويل، بدر الملة والدين^(١)، ابن العلامة رضي الدين الغزي العامري، أسبغ الله ظلاله على العالمين، في طلب نسخة الارتشاف^(٢)، فتفضل بها وأنعم:

يا شيخ الإسلام الذي	إليه أقصى طلبي
يا خير خير عالم	أراؤه كالثَّهْبِ
ومن ذُرامٍ معقُـل	من حادثـات النُوبِ
ومن حماه حرم	أمن لأهل الطلب
تهوى لـه أفـدة	من عجمها والعرب
فتثنى عنه وقد	نالت قُصارى الأرب
عن روضة مطلولة	ذات جناب مُخْصِبِ
جيدت رباها وانتحت	فيها عزالي ^(٣) السَّحْبِ
حتى اكتست أغصانها	واعتمَّ هام القُضْبِ
وابتم النوارُ عن	ثغر الأقاحي الشُّنْبِ
إلا فـتى بابكم	بيكي بدمع سرب
بـه ظمأ مـبرح	إلى ارتشاف الضرب
يكمل منه نسخة	رئت بمرّ الحَقْبِ
ونقصها كراسة	يكتبها عن كُتُبِ

(١) انظر ترجمة بدر الدين الغزي فيما سبق.

(٢) ارتشاف الضرب من لسان العرب، كتاب في النحو لأثير الدين أبي حيان النحوي الفرناطي الأندلسي المتوفى سنة ١١٠٠، وكتابه هذا حقق منذ فترة قريبة لنيل درجة الدكتوراه بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

(٣) الغزالي: المطر المنهر، وفي ب: غزال وهو تحريف.

وتثنيني مُثْنِيَةً على إمام الأدب
القائل الفصل إذا^(١) احتككت ظهور الركب
والطاعن القرن إذا اشتككت متون العرب^(٢)
لا زال يرقى صاعداً بالعلم أسنى الرتب
ما غرّدت مفتنة ورقاً بأعلى قُضْب
وأشرق البدر المنير طالعاً في غيب
وسار نجم في الدجى ينحو مدار القطب

كتب إليّ أسد بن معين الدين التبريزي الشافعي^(٣) أحدُ مدرسي
دمشق مستنهضاً في أمر فأجبتُه لذلك بقولي:

مولاي أنجز ما وعدت لمخلص . باقٍ على الودّ القديم بلا مرا
صرف الدراهم في الضرورة جائز في الشعر والمملوك أصبح شاعراً
لا زلت في عز منيع بانيا بيت الفضائل والمكارم في الذراً

★ ★ ★

(١) في ب: الفائق الفضل.

(٢) اشك الشئ: شكه أو ضم أجزاءه، والمتون: ظهور الخيل.

(٣) المنلا أسد الدين بن معين الدين الشافعي نزيل دمشق، الإمام العلامة المحقق، نسبته في الكواكب والشنذرات: الشيرازي وهي نسبة تضاف إلى ما هنا، وقد قرأ على الشيخ علاء الدين بن عماد الدين (سبقت ترجمته) وأكثر الانتفاع به، كما قرأ على معظم علماء وقته ما يجيدونه من فنون.

تولى التدريس بالناصرية البرانية ثم بالثامية من مدارس دمشق ثم جمع له بينها، ثم تولى الافتاء، وأخذ عنه معظم فضلاء الوقت، وله شعر رائق بليغ رغم أعجميته، انظره في تراجم الأعيان ٣٤/١ - ٤٨. والشنذرات ٤٣٨/٨، توفي عام ٩٩٨ هـ.

ومما كتب به إلى الشيخ الفاضل العلامة، الكامل العمدة الفهامة،
إسماعيل النابلسي^(١) وقد استنهضته في أمر فتاخر، قولي:

مولاي يا ربَّ الـيرا عة والبراعة والفصاحة
فيك العوارف والمعا رف واللطافة والرجاحة
وبك المكارم والكرام ثم والعزائم والساحه
عهدي بهمتك العلية إن تأبى جامع راضت جماعه^(٢)
فعلى م آخر مطلبي^(٣) بل سيدي أرجو نجاحه

★ ★ ★

ومما كتبت به إلى إسماعيل العجمي^(٤)، في طلب علوفة الجامع
الأموي، في يوم ثلج:

أمولاي إسماعيلُ غيباً تحية تزوع كأزهار الربى إثر تهطال
لقد خلّيت من فضة الخرج ساحتي كما عُمرت من فضة الثلج أطلالي
فجد عاجلاً لا عاجلتك يدُ النوى بنأي على الدّاعي بعلوم شوّال

★ ★ ★

(١) الشيخ إسماعيل بن أحمد بن الحاج إبراهيم النابلسي الشافعي، شيخ الإسلام، ومفتي الأناضول ومفرد الوقت، تصدر للإفتاء والتدريس، وصار إليه المربع بعد شيخ الإسلام والده.
مولده سنة ٩٣٧ هـ، واشتغل على جماعة من أهل العلم، ودرس في كثير من مدارس دمشق، وكانت دروسه حافلة لصفاء ذهنه وطلاقة لسانه وحسن تقريره.

توفي عام ٩٩٣ هـ. انظر شذرات الذهب ٨/

(٢) في ب: عهدي بهمتك العلية إن تأبى جامعة جماعه.

(٣) في ب: مطلب.

(٤) أوردنا ترجمته فيما سبق.

دعاني سيدي عبد الرحمن بن القاضي تاج الدين^(١) خطيب السلمانية،
بدمشق المحمية، لوليمة بعض ولده فبعت إليه شيئاً من الخزير، معتذراً
بهذه القطعة من التقصير، سنة ٩٨٤:

لبنى التاج ركنٌ مجدٍ خطير	قد رسا في العلا رؤو ثبير
كلُّهم في السمو ^(٢) بدرُ سلك	يهرُ العين بالضياء المنير
سيما الأروغُ الخطيبُ الذي فا	ق بنثر الكلام نظمَ جرير
من رقا منبر العلاء مُمخراً	دون عليائه منباط البدور
فمقاماته لذا قد تعالت	عن شبه كما اعتلت عن نظير
هاك مني وشين وشيُ حرير	وقريض مثل الرياض النضير
راق في العين ^(٣) منها حُسنُ مرأى	أي مرأى يروق طرف البصير
غير أن القريض أحسن عندي	في معانيه من نسيج الحرير
فاحتكم فيها كما شئت ملكاً	كاحتكام الأمير في الأمور
والفتى ذو الغنى يقوم لديه	في مقام التقصير عذر الفقير
لا برحت الزمان بين نعيمي	فرح دائم وطيب سرور
مثل ما تشتهيهِ في ظلِّ أمن	وبنيك الكرام عينُ الصدور

(١) هو عبد الرحمن بن تاج الدين بن محمد بن أبي بكر التاجي، الحنفي البعلبي. نبة إلى بعلبك التي ولد فيها سنة ست وأربعين وألف.
اشتغل بالتدريس والخطابة، وكانت له معرفة بالموسيقى والشعر، مع ثروة وجاه، ولكنه
أضرب عن الموسيقى والشعر وتفرغ للعلم. توفي سنة ١١١٦ هـ ببعلبك وهو في طريقه إلى
دمشق.

انظر نفحة الرجانة ٤٤٨/١، وسلك الدرر ٢٨٥/٢.

(٢) في ب: العلو.

(٣) في ب: للعين.

ما زقى منبر الأراك خطيباً طائر السعد في ظلال الحُبور

★ ★ ★

أنشدني المولى محمد بن هلال^(١) بيتين هما السحر الحلال طالباً تخميسهما
فبادرت إلى الامتثال ونظمت في الحال:

عليَّ مَهَا اللّوَى في الحُكْم جارتُ وقلبي من نواها ما أجازت
أُنْسِيتِ المودَّةَ حيث زارتُ^(٢) ولي ولها إذا الكاساتُ دارتُ
محادثُــــةٌ تحل حُبِّي الهموم

أما طت إذ خلوتُ بها اللثاما وقالتُ ها فمي فارشف مُداما
ودونك فاستمعُ مني كلاماً منادمةً أَلَذَّ من الندامى
وبثَّ جوى أرقَّ من النسيم

★ ★ ★

كتب إليَّ أديبُ دمشق محمد الرومي مستدعيّاً لقطعة يحملها لشافع
بحكمة الكبرى، هو ابن أيوب وكان يلقَّب بالدُّب، قوله:

قل لربِّ الشعر كالسَّحر الحلال	أو كصفو الراح بالعذب الزُّلال
أو رياضٍ باكرتها سَحْراً	بشداً دارين أنفاسُ الشمال
يتفضلُ بقريضٍ صاغه	يُجْجِلُ الدُّرَّ ويزري باللال
ويبينُ فيه رقص الدبِّ إذ	دبَّ دبَّ الجهل في الكبرى وجال

(١) سبقت ترجمته.

(٢) في ب: حيث دارت.

أَعْلَى ايقاعه في رقصه كان أم رقصٌ على غير مثال
لا برختَ الدهر تَنُمُو أبداً هامة الشَّعْرى بشعرٍ لا يُنال
ما وشى صفحة طِرسٍ قلمٌ ورأى للقول والوصف مجال

★ ★ ★

الطالوي في القسطنطينية

ولما وردتُ قسطنطينية السنية، ودار الخلافة البهيّة، عام أربع وثمانين
وتسعمائة، كتبتُ لجناب شمس باشا المصاحب، صاحب المفاخر والمناقب،
وقد وردتُ باحةً كرمه، وتشرفتُ باحة حرمه، بإسكدار، خيردار:

بـدرُ السماء أقرّ بالأمس	أن الضياء له من الشمس
وكذا بدورُ الأرض أن سنا	أنوارها قبستهُ من شمس
مولى سليل علّا أرومته	تعرّى لخالدٍ سيّد الأوس
نجلُ الوليد الشهم زيد سناً	وزكي جنى من ذلك الغرس
صحب النبيّ وفي الهدى أود	حتى استقام به على أسّ
من أجل ذاك اختار صحبته	واختصّه لمجالس الأنس
ظِلُّ الإله مرادٌ من خشيّت	منه ملوكُ الروم والفرس
لا زال ربُّ العرش يكلّأوه	بالنور والفرقان والشمس
وكذاك ظل الله والده	أعني سَلِيم الطبع والنفس
صبّ الإله على ثراه حياً	وسقاه كوثرَ جنة القدس
وأتم نعمته عليك بما	أعطاكه ذو العرش والكرسي

يا من دقيق صفات مدحته
قد حج بابك وهو كعبته
لفظته أقطار البلاد إلى
لا زلت في نعيم مُخلّدة
بمحمد خير البرية من
ما حنّ للوطن الغريب وما
جلّت عن الأفكار والحدس
درويش فضلك راجياً أمس
رحب المباءة ليس بالنكس
تغدو وتصبح مثل ما تُسمي
نطق الصواب وآله الجُنس^(١)
غنى حمام طيّب الجرس

★ ★ ★

ومن ذلك ما كتبتُ به للحضرة السنية، والدوحة البستانية^(٢)، أسبغ
الله ظلالها، وضاعف إجلالها عند قدومي الروم وقد تشرف به قضاء
إسلامبول سنة ٩٨٤هـ^(٣):

كفى به جائراً في الحكم^(٤) ما عدلا
أو راح يضمّر سلواناً بخاطره
بل كيف يصحو غراماً أو يُفيق هوى
فما الهوى غير أجفان مُهّدة
ولا الغرام سوى وجدي نكايده
لو كان يسمع في أحبابه عدلاً
عن مائات قدود تُخجل الأسلا^(٥)
من بات بالأخو العينين مُشتغلا
تَهْمِي وقلبُ بنيران الأسي سُعلا
إلى الحمى يا سقى الله الحمى نهلاً

(١) الحمس: الأشداء في دينهم.

(٢) هو محمد جلبي بن مصطفى بن بستان قاضي قضاة دمشق، وقد سبق التعريف به.

(٣) ترد بعض أبيات القصيدة التالية في ربحانة الألبا ٥٩/١، ٦٠.

(٤) في ب: في الحلم.

(٥) الأسل: نبات ذو أغصان كثيرة دقاق بلا أوراق، وتسمى به الرماح على التشبيه به، وكذلك النبال.

حَمَى دُمُثْقِي سَقَاها غَيْرَ مَفِيدِهَا
 حَتَّى تَظَلَّ بِهَا الْأَرْجَاءُ بَاسَةً
 وَخَصَّ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مَنْزِلَةً
 مَغْنَى الْهُوَى وَمَغْنَى اللُّهُو حَيْثُ بِهِ
 تِلْكَ الْمَنَازِلُ لَا شَرْقِيَّ كَاطِمَةٍ
 دِيَارُ كُلِّ مَهَاةٍ كَمْ أَقُولُ لَهَا
 بِمَا بَعِينِيكَ مِنْ سِحْرِ صِلِي دَنْفًا^(٢)
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهَا
 مَا كُنْتُ لَوْلَا طِلَابُ الْمَجْدِ أَهْجُرُهَا
 وَلَا تَخَيَّرْتُ أَرْضَ الرُّومِ لِي سَكْنًا
 وَلَا امْتَطَيْتُ عِتَاقَ الْخَيْلِ رَامِيَةً
 مِنْ كُلِّ طَرَفٍ تَفُوقُ الطَّرْفَ سُرْعَتُهُ
 إِذَا تَطَلَّعَ مِنْ لُجِّ السَّرَابِ يُرَى
 مِمَّا اعْتَسَفَتْ بِهِ أَقْطَارَ طَامِسَةٍ
 يَجْتَابُهَا كَالرِّيَّاحِ الْهُوجِ عَاصِفَةً
 هَذَا وَكَمْ مَنَهَلٍ عَذَبَ مَوَارِدُهُ

صَوَّبُ الْغَمَامِ وَرَوَّى أَرْضَهَا عَلَلًا
 وَيُضْحِكُ النَّوْرُ فِي أَكْثَامِهِ جَذَلًا
 لَيْسَتْ فِيهَا الشَّبَابُ الرَّوْقُ مُقْتَبِلًا^(١)
 مَهَا إِذَا طَلَعْتُ بَدْرُ السَّمَاءِ أَفَلًا
 وَلَا الْعَقِيقُ وَلَا شِعْبُ الْغُوَيْرِ وَلَا
 وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جَسْمِي كَمَا نَحَلَا
 يَهْوَى الْحَيَاةَ وَأَمَّا إِنْ صَدَدَتْ فَلَا
 فَارَقْتُ شَرْخَ الصَّبَا وَاللَّهُو وَالْفَرَلَا
 هَجَرَ أَمْرِي مَغْرَمَ بِالرَّاحِ كَاسٍ طِلَا
 وَلَا تَعَوَّضْتُ عَنْهَا بِالصَّبَا بَدَلًا^(٣)
 بِي الْمَوَامِي تَجُوبُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا
 وَسَابِحِ مِثْلَ سَيِّدِ الرَّمْلِ مَا عَسَلَا^(٤)
 بَدْرًا غَدَا يَهْلَالُ الْأَفْقَ مُنْتَعِلَا
 لِلْجَنِّ تَسْمَعُ فِي أَرْجَائِهَا زَجَلَا^(٥)
 وَيَنْشَبِي وَخَضَابُ اللَّيْلِ مَا نَصَلَا
 وَرَدَّتْهُ وَالْقَطَا الْكُدْرِيَّ مَا نَهَلَا^(٦)

(١) الروق: أول الشيء، ومقبله.

(٢) الدنف: المريض الذي لازمه المرض وأشفه، وفي الرجمانة: بما بعينيك.

(٣) في ب: بالصباية لا، وهي تحريف.

(٤) الطرف: بكر الطاء: الكريم من الناس والخيول ونحوها، وفي ب: تفوت بدل تفوق، والسيد بكر السين: الأسد أو الذئب، وعل: اضطرب في حدوده وهز رأسه.

(٥) هذا البيت وبعده ستة أبيات لم ترد في الرجمانة.

(٦) الكدري: نوع من القطا غير الألوان.

والليل ملق على المومات كلـكـله
والنجم ملقى على الآفاق تحسبه
كلفته طامياً زرق الحمام به (١)
ومر الكوكب الدرّي جرّده
حتى أتى به أرض الروم منتجعاً
وقال: بشراك روض الفضل قلت له
هو الجواد الذي سارت مواهبه
والبحر لو فاض يوماً فضل نائله
والبدر أشرقت الدنيا بطلعته
والدهر حصن أمان من نوائبه
تجده طود علوم لو يوازنه
لا تزدهيه من الدنيا مطامعها
من سادة ورثوا العلياء واقتسموا
أغرّ طلق الحيا زانه خلّق
ذو منطق لو دعى قس فصاحته
وفكرة ما سرت في ليل غامضة

كأنه راهب في منحه اشتـمـلا
حيران مثل السرى لا يهندي سبلا
فصد مستنفراً عنه صدود قلّى
غيم تقشع عنه بعدما هطّلا
روضاً أريضاً وماءً بارداً وكلاً
روض ابن بستان ومولا نافقال: بلى (٢)
تدعو العفاة إلى نعمائها الجفلى (٣)
على جميع البرايا عنهم فضلاً
في طالع حسن بالسعد قد كملاً
فلذ باعتابه ما حادث نزلاً
هضاب سلمى لحفت عنه إذ ثقلاً
ولا يرى بسوى إعطائها جدلاً
مآثر المجدي منها سؤدداً وعلاً
كالروض أزهر أخوى يانعا خضلاً
ما قام وسط عكاظ قط مرتجلاً
إلا تجلّت لأفهام الورى بجلاً (٤)

(١) زرق الحمام: ألقي ما في جوفه، والمراد أنه حل حصانه على أن يشرب من هذا الماء الكدر فلم يقبل إباء وترفعاً عن ماء سبقته إليه صغار الطيور، وهو يعني بهذا نفسه التي قصدت الوالي العظيم ولم تقبل عطاء من غيره - وإن كثّر - من أيدي الصغار. وفي ب: كلفت لطامياً.

(٢) في الريحانة: ابن بستان مولانا.

(٣) الدعوة الجفلى: الدعوة العامة.

(٤) في ب: مجلها.

وشيمة عذبة لو مازجت كرمًا
لما أتيتُ حياهِ الرحبِ أنزلني
ومدّ نحوي يداً بيضاء ذاتَ ندَى
فراح يغبطني كلُّ الأنام على
والحمدُ لله هذا الغيثُ أوله
وهاكها من بناتِ الفكر غانيةٌ
غريبةٌ في بلاد الروم ليس لها
فغيرُ حرٍّ كما قد قيل من مَطلًا
لا زلتَ في نعمتي عيدٍ وعائدةٍ
ما شام بالروم برقُ الشامِ ذو شجنٍ

خُلِقَ الزمانُ المُجافي لان واعتدلا
منه وأكرمني في ظله نُزلا
لا تعرف المَطلَ والإعصارَ والبَحْلا
مُنَى بلغتُ بها من دَهْرِي الأَملا
قطرٌ وآخره تلقاه منهملا
شامية الأصل مها سائلٌ سالا
كفوًا سواك فأنفذ مهرها عَجلا
يا مَنْ إذا وهب الدنيا فقد بَخلا
كما تشأ وبَنوكَ السادةِ الفضلا
يصبو إلى وطنٍ ما عنه قطَّ سَلا

★ ★ ★

ومما كتبتُ به لجنابه، متردداً عتبة بابهِ، متعرضاً لخدمة دار الغنم
بالمحروسة المزبورة سنة ٩٨٥ قولي:

خطباءُ تهتَف في علَم	هاجتُك ورقاءُ النغم
سِرَّ الغرام المكتَم	عجباءُ يعربُ لحنُها
عن فيضٍ دمع عن سَقَم	تروي أحاديثَ الهوى
والكفُّ خُصَّب بالغنم	عجباءُ لها تشكو النوى ^(١)
سُقِيَ الحِمَى عهدَ الدَّيم ^(٢)	ذكرتُ عهداً بالجِمَى

(١) في ب: الهوى.

(٢) في ب: عنى الحمى، والعهد: مطر أول السنة.

يَخْطُرْنَ فِي حُلَلِ النِّعَمِ	عهداً لسانحة المها
فربيعهما الأخوى الأجم ^(١)	بدمشق بين ربوعها
ففناء جامعها الخضم	وبرادها فبريدها
م فصحنه دار الحكم	فرواقفه دار العلو
فحياضها تُبري القم	فرياضها فغياضها
فزألهما العذب الأجم	فهواؤها فمياها
فظلال هاتيك السلم	فمقيّل هاتيك الربا
بطحاء واد محترم	فمسيّل باناس ^(٢) إلى
بّة أرضيه منك يُشم	حضبـاؤه درّ وتُر
لا كالنـازل من إضم ^(٣)	تلك المنازل بالجمي
فالرقتين ^(٤) فذي سلم ^(٥)	فصفا العقيق ^(٦) فلعلع

- (١) النبات الأخوى: السود من كثرته، والأجم: الناهض على سوقه المنتشر.
- (٢) باناس: أحد فروع نهر بردى بدمشق، وهو يدخل إلى وسط المدينة فيكون منه، بعض مياه قنواتها، وينفصل باقيه فيسقي زروعها من جهة الباب الصغير والشرقي. انظر معجم البلدان ٥٥٧/١.
- (٣) إضم: يطلق على عدة أماكن بالجزيرة العربية، ومن بين هذه الأماكن أنه واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، وأعلى إضم: القناة التي تمر دوين المدينة. انظر معجم البلدان ٣٠٥/١.
- (٤) العقيق: اسم تطلقه العرب على كل ميل ماء شقه السيل في الأرض فأنهره ووسعه، ويوجد ذلك في عدة نواح في بلاد العرب، والصفاء: الحجارة الملأء على جانبي الماء وفي مجراه.
- (٥) لعلع: ماء في البادية، أو منزل بين البصرة والكوفة. معجم البلدان.
- (٦) الرقتان تشية رقة، وتطلق على مجتمع الماء في الوادي، كما تطلق على الروضة، والرقمتين: قربتان بين البصرة والنباج بعد ماوية تلقاء البصرة، وهما منزل مالك ابن الربيع المازني، وقد ذكرهما في شعره، معجم البلدان ٨٠١/٢.
- (٧) ذو سلم: واد بالحجاز، ويطلق أيضاً على طريق ينحدر على الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة، وسلم الريان باليلامة على طريق الهجرة، معجم البلدان ١٣٣/٣.

فالمُنْحَنِي فَرَبِي أُمِّ (٣)	فطلال رامة (١) فالنقا (٢)
فاعجب ولم يرعوا ذم	بلد حبيب أهله
عرف الصَّبَا منها نَم	أصبو إليه كَلَا
تُراهِبُهَا يَشْفِي الأَلَم	هي جنة الدنيا وشم
في بعض آثارِ إِدَم	يكفيك حناً أنها
وهجرتُها لا عن سأم	فارتُها لا عن رضى
مِ الحَشْرِ فِيهِ لَمْ أَنْم	هذا وليلٍ مثل يَوْ
فكر المعيشة في ألم	أُمني به حيران من
دار الغرامة حِلَف غَم	برُبوع إسلامبول في
ذَها وقد ملئت نَعَم (٤)	لا أطمعُ الخبز السَّم

(١) رامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة ومنه إلى إمرة وهي آخر بلاد بني تميم، وقيل: هي جبل لبني دارم، وقد أوردتها كل من جرير وبشر بن أبي خازم في شعرها، معجم ٧٣٨/١.

(٢) النقا: الكثيب من الرمل.

(٣) أُمِّ جمع أكمة، وأكمة تطلق على عدة مواضع في بلاد الحجاز منها ما يسمى بأكمة المشرق بعد الحاجر بيلين كان عندها البريد السادس والثلاثون لحاج بغداد، انظر معجم البلدان ٣٤٤/١.

هذا ويلاحظ أن هذه الأماكن قد أكثر الشعراء من إيرادها في شعرهم وبخاصة في شعر الحنين إلى أوطانهم والأماكن التي شهدت مراتع صباهم ومجالي لهوهم وشبابهم. ثم استعملها من بعدهم الشعراء الذين كانوا يمرون على تلك الأماكن، وهم في طريقهم لتأدية فريضة الحج، وذلك تشوقاً إلى الأراضي الحجازية المشرفة وتمني العود إلى زيارتها، كما يظهر استعمالها بوضوح عند شعراء الصوفية الذين كانوا يرمزون بتلك الأماكن إلى منازل القرب من الله ومحبه، على حين يستعملونها هم في شعر غزلي يذكرون فيه ليلي أو سلمى أو غيرها من أسماء.

(٤) السمد: نوع من الخبز يصنع من لباب الدقيق.

كـلا ولا اللحم القدي (١)
 بل أشتهي كدانة (٢)
 من بعد أن لم يبق لي
 إلا بقايا مهجة
 مولى حياه كعبة
 فلذاك أضحى ركنه
 وجنابه لشفاء اف
 تمنى إلى أبوابه
 فتقال من إحسانه
 إلا عبيد جنابكم
 هـ لا نظرتُم نحوه

كـرمـاً ولو دارُ القنم
 ما ذاق لحماً منذ كم
 فضل الحباب إذا انسجم
 بـ بعزة جم الكرم
 لبني الرجا تولى الكرم
 في أيكها ورق النغم

ورحتموه بخدمة
 فوحق نعمتكم قسم
 يا من سائب فضله
 لا زلت محروس الجنا
 في دولة محسودة
 ما غردت مفتنة

★ ★ ★

(١) القديد: الجفف.

(٢) الدانة: اللحم أو الدم.

وما كتبته أيضاً بالديار الرومية في العام المزبور لفخر قضاة الإسلام،
شرف ولاية الأنام، المؤيد باللطف الرباني، صالح بن محمد الكوراني^(١)،
وقد ولاه السلطان قضاء صفد وأرض كنعان، مؤرخاً ذلك:

وَصُنْتَ مَعْنَاهُ بِيضِ الصَّفَاخِ	شَرَعْتَ دُونَ الشَّرْعِ سُمْرَ الرَّمَاخِ
فَنَلْتَهَا عِذْرَاءَ صُغْرٍ الْوِشَاخِ	وَسُقْتَ لِلْعِلْيَاءِ مَهْرَ التَّقَى
وَهِيَ عَلَى مَنْ يَمْتَطِيهَا جَاهِ	وَطَالَمَا ذَلَّلْتَ أَفْرَاسَهَا
حُكْمَ سَلْيَانَ نَبِيِّ الرِّيَاخِ	يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي حَكَمَهُ
عِلْمًا وَحِلْمًا وَنَدَى وَاسْتِجَاخِ	سُدْتَ قِضَاةَ الْعَصْرِ بَلْ فُقَّتْهُمْ
عُدَّتْ قِضَايَاكَ وَرَبُّ النِّجَاخِ	فَمَا إِيَّاسٌ بِذِكْرِي إِذَا
لَدَيْكَ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الصَّبَاخِ	وَلَا شُرَيْحٌ بِالْقِضَا عَارِفًا
بِعِزِّ نَفْسٍ وَعُلا وَارْتِيَاخِ	نَالَ فَخَارًا مَنْصِبًا نَلْتَهُ
مَرَادٌ ظَلُّ اللَّهِ رَبُّ السَّمَاخِ	وَلَاكِهِ السُّلْطَانُ أَعْنِي بِهِ
خَمْسُونَ كُلُّ نَحْوِهِ قَدْ أَلَاخِ	مَنْ بَعْدَ مَا كَانَ ^(٢) لَهُ طَالِبًا
لَهُ فَوَلَّاكَ بِنَصِّ صُرَاخِ	رَاكٍ مِنْ بَيْنِهِمْ صَالِحًا

(١) انفرد المصنف هنا بتسميته صالح بن محمد وهو في سائر المراجع صلاح الدين، فلعل ما

ذكره المؤلف هو اسمه وما ذكروه هم لقبه.

كما ذكر المؤلف أيضاً أن السلطان ولاه قضاء صفد وأرض كنعان، وهذه إضافة على ما

ذكره المؤرخون له، فقد ذكروا أنه تولى القضاء دون تحديد المكان الذي تولى فيه.

وكان الكوراني من مشاهير الأدباء، له شعر طيب ونظم حسن، وكانت له مؤلفات في

مواضيع شتى تدل عناوينها على أنها لم تكن ذات بال.

توفي بحلب سنة ١٠٤٩ هـ.

انظر رجحانة الألبا ٢٨١/١، خلاصة الأثر ٢٥٣/٢، وانظر معجم المؤلفين ٢٣/٥.

(٢) في ب: من بعد من كان.

فرحت محسوداً بِعِرْضِ امرئ
تسحب بالروم ذبول المراح
يا صدف العلياء بُشْرَاك قد
بعد صلاح الدين شيخ الورى
ومنذ أصفاك دياراً له
قلت لمن يسأل تاريخه
عَارٍ من العار ومن لَخِيٍّ لآخ
وتزدري^(١) الأقران شاكي السلاح
حَلَّ مغانيك الرّحَابَ الفِصَاحُ
صالحُ مولى ربِّ جُودٍ مُباح
ولاح في ربعك منه فلاح
وليت دَمَ صالح دار الصلاح^(٢)

وعما كتبتُ له^(٣) صدر مكتوب من دمشق الشام إلى صدف وهو قاضٍ
بها عام خمس ثمانين وتسعمائة^(٤) مضمناً شطر مطلع لأبي الطيب:

جوانحنا شوقاً إليكم جوانحُ
ومغناكم مَغْنَى الهوى يا سَقَى الهوى
وخصَّ الصَّبَا حيثُ الشَّيْبَةُ أَيْكَةُ
وحيثُ الحمى روضُ أَطَارِحُ أَهْلُهُ
معاهدُ أَحْبَابِي ومربى مَآرِي
وإذ أنا من حُسَانَةِ الجيد ناعماً
وَأَلْبَابُنَا تصبو لكم والجوارحُ
وَأَيَامُهُ غَادٍ مِنَ الْمَزْنِ رَائِحُ
بَأَغْصَانِهَا وَرُزْقُ الْأَمَانِي صَوَادِحُ
أَحَادِيثُ أَشْجَانِي بِهِمْ وَتَطَارِحُ
وَأَوْطَانُ أَوْطَارِي إِذِ الْعَيْشُ صَالِحُ
أَغَادِي الصَّبَا فَرَطَ الْهَوَى وَأُرَاوِحُ^(٥)

(١) في ب: وتذري.

(٢) ومجموع هذه الشطرة بحسب الجمل: ٩٨٤ وهي السنة المقصودة.

(٣) في ب: كتبت به.

(٤) في ب: عام ثمانين وتسعمائة.

(٥) الرواية في ب لهذه الشطرة:

أغادي الهوى فرط الصبا وأرواح

متى ابتسمت عن ذي لِمَى قَلْتُ مُنْشِداً بأدنى ابتسام منك تَحْيَا القرائحُ^(١)

★ ★ ★

ومما كتبتُ به وأنا بالديار^(٢) الرومية سنة ٩٨٤ لمولانا نصوح المشهور
في الموالي بنوالي المدرس بإحدى الثانية مستدعياً لتفسير العلامة أبي
السعود، سقى الله مثواه صَيِّبَ العهود، قولي:

شَهِدْتُ وَقَدْ شَاهَدْتُ مَغْنَى جِوَالِهِ	مُحَيَّا يُبَاهِي الْبَدْرَ عِنْدَ كَمَالِهِ
وَعِلْمًا رَسِي كَالطُّودِ يُعَزَّى لِمَنْطِقِي	يَفُوقُ الزُّلَالَ الْعَذْبَ عَذْبُ زُلَالِهِ
وَفَضْلًا مَوَالِي الرُّومِ عَمَّ نَوَالِهِ	وَبَيِّنِي إِقْرَارَهُمُ بِنَوَالِهِ
سَمَا فِيهِمْ كَالْبَدْرِ لَيْلَةٌ تَمُّهُ	جَلَالًا يَرِدُّ الطَّرْفَ نَوْرَ جَلَالِهِ
وَفَاتَهُمْ عِلْمًا وَحِلْمًا وَسُودَدًا	وَرَأْيًا سَدِيدًا فِي جَمِيعِ فَعَالِهِ
فِيَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي جُودُ كَفُّهُ	يَفُوقُ السَّحَابَ الْجُودَ وَقْتَ انْهَالِهِ
بِبَابِكَ دَمْعُ الْعَيْنِ أَصْبَحَ سَائِلًا	نَدَاكَ فَلَا تَنْهَرْ بَرْدَ سُؤَالِهِ
وَمَنْ بَتَفْسِيرِ الْإِمَامِ الَّذِي رَقَى	عَلَى مِثَرِ التَّحْقِيقِ عِنْدَ مَقَالِهِ
وَأَعْنِي بِهِ شَيْخَ الْفَتَاوَى أَبُو النَّ	عُودِ ^(٣) سَقَاهُ اللَّهُ مُرْفِدَ آلِهِ ^(٤)
وَأَسْكَنَهُ الْفَرْدُوسَ يُسْقَى رَحِيقَهَا	خِتَامًا بِحُتْمِ الْأَنْبِيَاءِ وَآلِهِ

(١) صدر بيت لأبي الطيب التتبي، عجزه:

وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح

ديوانه ٢٩٩ .

(٢) في ب: ومما كتبت به إلى الديار... الخ.

(٣) هو شيخ الإسلام محمد بن محمد بن مصطفى الهادي، الاسكيني، أبو السعود، مفتي السلطنة
وصاحب التفسير الشهير المعروف باسمه.

وسوف ترد ترجمته في موضعها.

(٤) في ب: سقاه الله الخلق مرقد آله.

فنظم إليّ إثره بنثر^(١) أبدع فيه غاية الإبداع، وبمثلته تشنّف الآذان
وتسرّ الأسماع:

وكنّا نرتجي تشریف وصل وقد فزنا بأقصاء المرام
اتاني بعد ذا منكم كتاب عديم المثل في حن النظام
كتاب فيه للأرواح رَوْحٌ كلامٌ فيه نفعٌ للكلام

★ ★ ★

فعطفتُ عنان القلم نحو بابهِ، وكتبتُ ثانياً إلى سامي أعتابه:

نوالك فيه يا أقصى المرام غنى يسليه عن كلّ الأنام
وعن وطن يحنّ إليه شوقاً كما حنّ المتيمّ ذو الغرام
وربعٍ في ديار الشام سامٍ سقاه الله ريعان الغمام
يزاحمُ منكب الجوزاء قدراً ويسمو رونقاً دار السلام
فكيف وقد بعثتَ إليّ نظماً يحاكي الدرّ في سلك النظام
ونثراً يعجزُ النظمُ عنه إذا جاره في نظم الكلام
فما عقد الثريا في انتظام ولا الشهبُ المنيرة بالظلام
ولا الروض الأريض كسته شيئاً يدُ الأنواء واكفة السّجام^(٢)
شداً بغصونه قمريُّ بانٍ يجاوب شجوه صدح الحمام
بأحسن رونقاً منه وأحلى على قلب الحبّ المُستهام
قدّم بين الموالى ذا نوال تجرُّ به ذيولَ الفخر سامٍ

(١) في ب: بشيء .

(٢) في ب: به الأنواء، والأنواء: الأغصير والرياح القوية، وواكفة السّجام: منهلة المطر.

جَنَابُكَ قِبْلَةٌ وَحَاكَ رَكْنٌ وَبَابُكَ كَعْبَةٌ فِيهَا مُقَامِي
مَدَى الْأَيَّامِ مَا حَنَّ اشْتِيَاقًا فَتَى بِالرُّومِ يَصُبُّو لِلشَّامِ

★ ★ ★

وَمَا كَتَبْتُ بِهِ وَأَنَا بِمَحْكَمَةِ^(١) دَاوُدَ بَاشَا لَجْنَابِ الْمَوْلَى مُحَمَّدٍ أَفَنْدِي بْنِ
بِسْتَانٍ^(٢) وَهُوَ بِقِضَاءِ اسْلَامْبُولِ مُعْتَذِرًا وَقَدْ وُشِّيَ بِي إِلَيْهِ:

يَا مَنْ عَلَا شَرَفًا عَلَى كِيَوَانٍ	وَرَقَى مَحَلًّا دُونَهُ الْقَمَرَانِ ^(٣)
وَقَضَى بِحَقِّ فِي الرِّعِيَةِ سَالِكَا	بِهِمْ طَرِيقًا سَنَهَا ^(٤) الْعُمَرَانِ
شَيْمُ الْكِرَامِ كَمَا عَلِمْتُ إِذَا جَنَى	عَبْدَ لَهُمُ الْأَخْذُ بِالْغُفْرَانِ
كُلُّ يَهُونَ سَوَى شِمَاتِهِ حُسْدِي	لَمَّا فَلَانٌ يَلْتَقِي بِفُلَانِ
هَمْ سَوَّدُوا حَسَدًا بِيَاضَ صَحِيفَتِي	بِزَخَارِفِ الْأَقْوَالِ وَالْبُهْتَانِ
هَلَّا كَفَيْتَنِي الْعِدَا مَتَذَكَّرًا	قَوْلَ الْأَدِيبِ عَصَابَةِ الْمَرْجَانِ
وَنَقَضْتُ مِنِّي بِنَيْتِي وَبَنَيْتَنِي	بِيَدِيكَ أَحْسَنَ بِنْيَةِ الْبُنْيَانِ
فَعَلَيْكَ تَقْوِيمِي إِذَا مَا مَالَ بِي	أَوْدٌ لِأَنَّكَ أَنْتَ كُنْتَ الْبَانِي

وَمَا كَتَبَ بِهِ إِلَى تَقِي الدِّينِ الرَّاصِدِ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبْتُ بِهِ إِلَى حَضْرَةِ الْأَسَازِ الْمَاجِدِ، مَوْلَانَا تَقِي الدِّينِ

(١) فِي ب: بِمَحَلَّة.

(٢) سَبَقَتْ تَرْجَمَتُهُ.

(٣) فِي ب: يَا مَنْ عَلَا... وَرَقَى مَحَلًّا

(٤) فِي ب: سَنَهَا.

الراصد^(١)، ذا كراً صفة^(٢) ليلة مضت بنا بمنزله الشريف، وعمله السامي
المنيف، بطوب خانة من محلة الرصد السلطاني، القويم المباني، المسمى
بوادي البلبل:

سلام كنش الروض باكره العهد	وأمت ذوات الطوق في أيكته تشدو
على معهد سامي الذرا واسع الدرا ^(٣)	إليه تناهى الفخر والفضل والمجد
له شرف لو حلت الشمس برجه	لما كفت يوماً ولا راعها ضد
ومنزلة تسمو المنازل قد رنا	إليها على سامي منازل السعد
سقاها وحياتها الإله منازل	لكانها وسط الحشا أبداً وجد
فلله ليل في حياها قطعت	بحسن حديث دون لذته الشهد ^(٤)
حديث لو أن الميت يدعى بمثله	أجاب ولبي بعد ما ضمه لحد

الراصد يستدعيه إلى داره

ومن يلود بجناحه وينتمي لعبه بابه، أديب زمانه، وفاضل عصره
وأوانه، الشيخ عبد المعين البلخي الحنفي^(٥)، عامله الله بلطفه الجلي

(١) سبقت ترجمته.

(٢) في أ: ذا صفة.

(٣) الدرا: أي الدراية والعلم.

(٤) في ب: بحسن حديث دونه لذتي الشهد.

(٥) هو عبد المعين بن أحمد بن أبي الفتح البلخي الحنفي المعروف بابن البكا، أديب فاضل،
من آثاره: غواني الأشواق في مغاني العشاق، والطاراز الأسى على كنز المعنى، أتمه سنة
٩٩٣ هـ. انظر معجم المؤلفين ١٧٨/٦ والمراجع في هامشه.

الخفي، أمره أن يكتب إليّ في يوم دَجْنٍ^(١) طَبَّقَ الأُكْنافَ، في مثله يحسن ارتشاف أحاديث السُّلاف، بوادي البلبل حيث غنى بروضة غناً فكتب:

الدهرُ أربعة أيامه انحصرت	صحوٌ وغيمٌ وريحٌ ثم أمطارُ
فالصحوُ ظَرْفٌ لإصلاح المآربِ إذْ	تُقْضَى من الصيد يوم الغيمِ أو طارُ
ويومُ ريحٍ لنومٍ لا مثيلَ له	ويوم هَطلٍ السّما للكَاسِ أسرارُ
واليوم قد نثرتُ دُرّاً سحائبه	على بساطِ رَبِّي تكسوه أزهارُ
فبادر الكأس يا بدرَ الزمانِ فَمِنْ	ضياءٍ وجهك لا في الأفقِ أقمارُ
هيا لرشفِ رضابٍ قال عاشقُه	من ريقك العذب لا في الخمرِ إسكارُ

فلما وصلت إليّ الرقعة ، كتبت بسرعة :

لمن يرى منطق للعقل سَحَارُ	ما فاه إلا وحارت فيه أفكارُ
وإني إليّ كتابٌ منه ذكّرني	شرح الصبا حيث دارُ اللهولي دارُ
أيام غصنُ المنى يُزهى بنضرتِه	والدهر طلقُ الحياء والهوى جارُ
لا بل كزهر الرُّبى باتت تفتّحه	يدُ الصِّبا وكسته الوشي أمطارُ
أو الشَّمول أدارتها شمائلُ من	في ريقه العذب لا في الخمرِ إسكارُ
في طيِّه بعد نشر الشوقِ أسرارُ	للنفس فيها مُنى تُقْضَى وأوطارُ
منها ارتشافٌ في ثَغَرِ الكاسِ وَسَطِ رَبِّي	شدتُ على دَرَحِهِ المُخْضَلُّ أطيّارُ
في فتية كالنجوم الزُّهرِ سار بها	بدرٌ له في سماء المجد أنوارُ
لا سيما يوم نثر الطَّلُّ لؤلؤُه	على بساطِ رَبِّي تكسوه أزهارُ
في روضة سَحَرًا غنّت بلبلها	وكل أوقاتِها للصِّبِّ أسحارُ

(١) يوم الدجن: اليوم المظلم المطير، وكانوا يتحنون قضاء مثل هذا اليوم في المسامرة واللهو.

والجؤ مضطرباً والغيث منسكبٌ
فقم نجدد عهود الكأس يا أملي
ولح لنا عند شمس الراح بدرُ علأ
واسلم ودم ماسرى نجم وما طلعت
ممجد المجد (٢) مغبوط المقام كما
والصب مرتقب والكأس مدرار (١)
فلي إلى الكأس تخنأ وتذكأر
هالآته أنجم مبأ وأقمار
شمس الضحى وبدا في الأفق سيار
تشاء تجري بما تختأر أقدأر

فعطف عنان اليراعة ثانياً، وكتب إلى مع الرسول ثانياً:

أدر عَقْدِ بدا تكسوه أنوار
أم السلافة إن أنشأ لنا طرباً
وسيمأ ذكر معول المأشف من
ظبي أغن غضيض الطرف معتدل ال
عذار نُكِيّ فيه قد خلعت وما
لله أيام وصل قد قطعت به
في روضة ضحكت أزهارها فبكت
والكأس مذقلت يا بدر الزمان لنا
معطل السعي مشتاق الطواف فجذ
فالراح دونك لا تصفو لشارها
فأرق ودم وتهن العيش في دعة
نظم المكمل أم روض وأزهار
لكان في كل بيت منه خمار
في ريقه العذب لا في الخمر إسكار
قوام فيه ذوو الألباب قد حاروا
على محب كئيب في الهوى عأر
والكأس لي صاحب والعود لي جار
عيون أنهارها والجو مطأر
إليك شوق وتحنأ وتذكأر
وانعم لتقضى لبانات وأوطأر
وصفو عبدك إن سوفت أقدأر
ما مأس غصن وغنت فيه أطيأر

(١) في ب: مدار.

(٢) في ب: محمد الفضل.

فأوقفت الرسول وكتبت إليه ثالث مرة، لا أغبت رياض أدبه سحب
المسرة، بما يُخجل مخايل^(١) السحر ويزري بجوائل الشحر:

زُهر تَغازلها باللَّحْظِ أَزهارُ	وسَط الرَبى أَم نَسيمُ الرِوضِ مِعطارُ
أَم سلسلِ الرَاحِ بالماءِ القُراحِ لها	أشعَّةٌ في يدِ الساقِي وأنوارُ
أَم اللَّائِيءُ في سلكِ النظامِ زهتُ	قد نَظَمَتها على اللَّباتِ أبكارُ
أَم نظمٍ من بهرتِ آياتِ منطقهِ	لِلناظرينِ فحارتِ فيه أبصارُ
الفاضلُ الأُلَمي ^(٢) الفهم لا يرحتُ	له الشَّيبَةُ دارُ والهوى جارُ
ولا تَعطَّلُ سَنيُّ الكاسِ من يده	ولا الطَوافُ لَتَقضى فيه أعمارُ
فمنذُ مزمٍ في ذاكِ المقامِ صفاءُ	رَآووقٍ وزالتِ وقد لبيتَ أُكدارُ
في روضةٍ جرحتُ خدَ الشَّقِيقِ بها	عيونُ نَرَجِسها والشَّربِ نَظار ^(٣)
والزهرِ مبتسمِ والطلُّ منسجمِ	والريحِ منتسمِ والراحِ مدرار ^(٤)
من كف ساقِ كبدِ التَّمِ طَلعتُهُ	إذا بدتُ تحتَفي في الأفقِ أَقمارُ
عذبُ المَقبَلِ معسولُ الرضابِ لنا	في ريقهِ العذبِ لا في الخمرِ إسكارُ
بِظِلِّ أَفيحِ راقَتِ فيه أَزهارُ	وغرَدَتِ في رُبا مغناه أَطيَّارُ
علا مقاماً على نهرِ الأُبلَّةِ إذْ	جربُ خِلالِ رُباهِ الفِيحِ أنهارُ
وهاكها غادَةً لا عيبَ نِيطَ بها	كما ترى غيرَ أَنَّ الطرفَ سَحَّارُ ^(٥)

(١) في ب: بما يحمل محابر السحر.

(٢) في ب: تفاضل الأُلَمي.

(٣) في ب: والشرب نظار.

(٤) في ب: والراح مدار.

(٥) أي طرف الجارية، وهذا من المدح الذي يشبه الذم.

لو أن مهيار جاراها النَّسِيبَ لما فاق الألى بنسيبِ الشعر مهيارُ
قدُمُ مُعَانًا مُعِينِ الدينِ ذا لَسَنِ عَذَبَ المقال لا خانتك أفكارُ

الراصد يريد توصيله بمعلم السلطان مراد

ومن ذلك ما كتبت به وأنا بالروم عام أربع وثمانين وتسعمائة إلى
جناب سعد الملة والدين^(١)، أفضل العالمين في العالمين مُلقِّن ظِلِّ الله
السلطان مراد، مدَّ الله ظلال رأفته على العباد، في البلاد، بإشارة مولانا
تقي الدين الراصد^(٢)، لا برج كعبة القاصد، موجهاً لصناعة أرباب
التعليم، وأصحاب التنجيم، قولي:

مطالعُ سعدٍ للسُّعودِ مطالعُ	وشهب العلاء من أفقهن طوالعُ
وأنجم إقبال بأفلاك دولةٍ	بدت من بروج السَّعد والسَّعدُ طالعُ
وأقمارُ عزٍّ في منازل رفعةٍ	لها باقترانات السُّعود تجامعُ
لها شرفٌ فوق الثوابت ثابتٌ	ونورٌ علاه في البسيطة واقعُ
يُرى لارتفاع المجد تحت مدارها	شعاعٌ بأقطار العوالم لامعُ
لدى سُدَّةِ الأجيال سُدَّةُ عالمٍ	إمامٍ لدى أعتابه الفخرُ خاضعُ
ملك النّهى ماضٍ على الحزم أمره	وليس له نحو المعالي مُضارعُ
وليث موالٍ ^(٣) العصر دانت لمجده	وحَبُّكَ مجدٌ لا يدانيه طامعُ

(١) سبقت ترجمته.

(٢) هو المولى سعد الدين بن حسن جان التبريزي، ملقن أي معلم السلطان مراد، وكان يشغل منصب مفتي السلطنة وشيخ الإسلام، وله الكلمة النافذة في الدولة، وستأتي ترجمته.

(٣) في ب: رئيس موالٍ.

إِمَامٌ تُقَى لَا تَزْدَهِيهِ الْمَطَامِعُ
 لَهُ النَّسَبُ الْوَضَّاحُ فِي جَوْهَرِ الْعُلَا
 وَخُلُقٌ يُرَى مَا الرُّوضُ غِيبٌ سَمَائِهِ
 هُمَامٌ تَظْنِيهِ طَلِيعَةُ رَأْيِهِ
 أَفَادَ عُلُومَ الْأَوَّلِينَ مَقَرَّرًا
 حَكِيمٌ إِذَا يَوْمًا دَقَائِقُ فِكْرِهِ
 وَفَاضَتْ عَلَيْهَا مِنْ مَبَادِي عُلُومِهِ
 أَفَاضَتْ عَلَى^(١) السَّيَارَةِ السَّبْعَ سَرْمَا
 فَشَرَّفَ كِيَوَانًا بِرَفْعَةِ شَأْنِهِ
 وَأَعْطَى^(٢) سَنَا الْمَرِيخِ شُعْلَةَ نَارِهِ
 وَخَصَّ بِأَنْوَاعِ السَّحَابِ عُطَارِدًا
 وَأَكْسَبَ جِرْمَ الْبَذْرِ نُورًا مَقْدَرًا
 وَأَلْقَى عَلَى الشَّمْسِ الضِّيَاءَ مُحِبِّبًا
 فَقُلْ لِفَتَى مَا زَالَ تُرْشِقُ جِسْمَهُ
 أَخِي السَّيْرُ فِي الْآفَاقِ هَيَاةً شَكْلَهُ
 لَهُ هِمَّةٌ فِي الْأَوْجِ لَكِنَّ حَظَّهُ
 تَرَى الزَّمْنَ الْقَطَاعَ أَلْفَ جَفْنِهِ^(٣)
 إِلَى كَمْ تَنْصُ^(٤) الْعَيْسَ فِي طَلَبِ السُّرَى

(١) فِي ب: أَفَاضَ عَلَى.

(٢) فِي ب: وَأَضْحَى.

(٣) فِي ب: يَجُولُ.

(٤) فِي ب: جِسْمِهِ.

(٥) نَصَ الْعَيْسَ: اسْتَحْتَهَا شَدِيدًا، وَفِي ب: تَنْصُ بَدَلَ تَنْصُ.

وَطَوْدُ حِجَى لَمْ تَسْتَمْلِهِ الزَّعَازِعُ
 نَمَا الْفَخْرُ مِنْهُ وَهُوَ كَهْلٌ وَيَافِعُ
 بَأَنْضَرَ مِنْهُ وَهُوَ أَزْهَرُ يَانِعُ
 كَأَنَّهَا مَا فِي الْغُيُوبِ يَطَالِعُ
 لَهَا طَبَقٌ مَا جَاءَتْ بِهِنَّ الشَّرَائِعُ
 رَقَتْ دَرَجَ الْأَفْلَاقِ فِيهَا الْمَطَالِعُ
 بِحِكْمَةِ إِشْرَاقِ سَنَاهُنَّ سَاطِعُ
 بِهِ تَقْبَلُ التَّكْوِينَ عَنْهَا الطَّبَائِعُ
 وَأَجْزَلَ فَيْضِ الْمُشْتَرِي وَهُوَ رَاجِعُ
 يَجُودُ^(١) بِهَا فِي أَفْقِهِ وَيَمَانِعُ
 فَهَا هُوَ فِي حُسْنِ الْكِتَابَةِ بَارِعُ
 مَنَازِلِهِ كَيْ تَسْتَعِدَّ طِبَائِعُ
 إِلَى الزُّهْرَةِ الْأَلْحَانِ فِيهَا تُرَاجِعُ
 سَهَامُ النَّوَى عَنْ قَوْسِهَا وَتَدَافِعُ
 تَرَاهَا اِضْمَحَلَتْ مِنْهُ وَالْجِسْمُ ظَالِعُ
 حَضِيضُ الثَّرَى مِنْ دُونِهِ مَتَرَاغُ
 بَطُولُ سُهَادٍ وَالدَّمُوعُ هَوَامِعُ
 لَنِيلِ الْعُلَا تَسْعَى لَهُ وَتَسَارِعُ

وتصبحُ في أرضٍ وتُسمي بغيرها
تعاين انقلابَ الدهرِ عنك وميلهُ
يريشُ له نسرَ الأمانِ طائراً
وتهجرُ داراً بالشَّامِ حبيبةً
ألجَ ببسيط الظلِّ من عرش مجده
ففيها يرى القطبُ الجنوبي مُنزو
ولا تَرَّ مَيْلاً عن معدّلِ بابهِ
فما مركز الآمالِ إلا جنابهُ
إقامةُ أرباب الكمالِ ببابهِ
كان على هاماتها الطيرُ هيبةً
فيا أيها المولى الذي سار ذكره
ومن أجمعت آراء كلِّ بآنه
وصدر لهذا العُصرو الفاضل الذي (١)
ومن بابِ مأوى العُفاةِ وركنهُ
لسدّته العُليا رفعتُ ظلامهُ
يبيحُ المنى أهل الجَهالة مثل ما
وأعلمُ ذنبي عنده وهو جاهلٌ
عسى نظرة مولاي نحوي فإنني
فعبدُك هذا الدهرُ أصبحَ عاملاً

حليفَ السُّرى كدّاً وعمرَك ضائعُ
لكل جهول في الجَهالة راتعُ
ونسُرك في وكر المذلّةِ واقعُ
سقاها الحَيَا والهاطلاتُ الهوامعُ
وميل لزوايا سطحه فهو واسعُ
وفي جانب منها الثماليُّ طالعُ
تصلُ للمنى فالميلُ فيه تقاطعُ
ويكفيك برهانٌ على ذلك قاطعُ
على قدم الإجلال وهي خواضعُ
ولا قول إلا ما تشير الأصابعُ (١)
مسير الصِّبا حيث البلادُ شواسعُ
وحيدٌ لأشتاتِ الفضائلِ جامعُ
بآرائه تُهدى النجوم الطوالعُ
لدى حادثاتِ الدهرِ ركنٌ مدافعُ
عليّ جنّاهَا صَرْفُهُ المتتابعُ
يبيحُ المنايا دون ما أنا طامعُ
بأن مديحي بابكم لي شافعُ
محلٌّ لما تُندي وأنك صانعُ
لخفزي ومالي غير فعلك رافعُ

(١) كرر هذا البيت في النسخة ب.

(٢) في ب: والعالم الذي.

بقيت بقاء الفرقدين بنعمة جنابك مأمولٌ وفضلك واسعٌ
مدى الدهر ماحنَّ الغريبُ وما شدتْ على منبر الأغصان وُرقٌ سواجُ

يستحث إخراج ثلث مال ابن النشائجي

ومن ذلك ما كتبت به وأنا قسام عسكرية دمشق الشام، لقاضيه
حسين أفندي الشهير بقراجلي زاده^(١)، كثر الله الفضل والتقى زاده،
مستحثاً له على إخراج ثلث مال ابن النشائجي^(٢) أحد أفندي قاضي
مصر سابقاً، وقد توفي بدمشق سنة ٩٨٦:

نهج حق سلكتم أي نهج وحججتكم مكانكم أي حج
ونفيتم عنكم ظنون أناسٍ صيرتكم ما بين هرج ومرج
إذ قضيتم بالحق في ثلث مالٍ لم يكن مغيياً عن ابن النشائجي
من وصي قد اقتدى بأبيه حين^(٣) أخفى ثلث النشائجي بدرج

(١)

(٢) نولى قضاء دمشق أوائل سنة أربع وثمانين وتسع مئة، وكان عالماً زاهداً ورعاً مهاباً يميل
إلى أهل الدين والصلاح. انظر قضاة دمشق ٣٣٢.

(٣) هو أحمد بن محمد نشائجي زاده، مفسر، عالم بالعربية تولى قضاء مصر، وله من المؤلفات:
إعراب القرآن، وشرح الحزب المنسوب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعلق حواش
على مواضع من تفسير البيضاوي، والهداية، وشرح المواقيف، والفتاح، توفي عام ٩٨٦ هـ كما
ذكر المؤلف.

انظر شذرات الذهب ٨ / ٤٠٩، معجم المؤلفين ٢ / ١٦٥.

(٤) في ب: حيث.

حَسِبَ الْمَالُ مُخْلِدًا لِحَيَاةٍ أَوْ مِنَ النَّارِ (١) فِي الْقِيَامَةِ يُنْجِي
كَدَّ فِيهِ أَبٌ وَتَابِعَهُ ابْنٌ وَغَدَا الْآنَ بَيْنَ عُرْجٍ وَفُلْجٍ
كَادَ لَوْلَا عَنَابَةُ مِنْكَ يُلْقَى بَيْنَ شِدْقِي فَمِ دَرِيسٍ (٢) وَفَرْجٍ
فَأَخْرَجُوهُ لَتَخْرُجُوهُ وَيَأْتِي لَكُمْ شُكْرُ ذَاكَ مِنْ كُلِّ فِجٍ
ثُمَّ خُصُّوا قَاضِيَ الْعَاكِرِ مِنْهُ ثُمَّ عُمُّوا الْفَقِيرَ مِنْهُ بِخَرْجٍ
لَا بَرَحَتُمْ فِي دَوْلَةٍ وَسَمُوْ مِنْهَا الْفَضْلُ كُلِّ حِينٍ يُرْجَى

يطلب تنفيذ وعد بعض من مطله

وعدني بعض الإخوان، بإرسال ديوان شيخ معرة النعمان، ومطل في
إرساله فكتبت إليه غِبَّ مَطَالَهُ سنة ٩٨٦ :

ديوانَ شَيْخِ الْمَعْرَةِ نَبْنِي عَدَّتْكَ الْمَعْرَةُ
يَا مَنْ يَجْرُ ذِيولُ الـ فَخَرَّارُ فَوْقَ الْمَجْرَةِ
وَقَدْ تَكَرَّرَ مِنْكُمْ إِرْسَالُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ
وَالْوَعْدُ حُلُوٌّ وَلَكِنْ مِطَاطُلُهُ مَا أَمْرُهُ
لَا زِلْتُمْ فِي نَعْمٍ مَخْلَلًا فِي مَسَرَّةٍ

★ ★ ★

ومما كتبه وأنا بالديار الرومية سنة ٩٨٧ (٣) لجناب المولى سعد الملة

(١) في ب: ومن النار .

(٢) الدريس: الذي يأكل شديداً .

(٣) في ب: سنة ٩٨٩ .

والدين، ملقن ظل الله في العالمين، السلطان مراد، أسبغ الله ظلال رافته
على العباد والبلاد^(١) إلى يوم التناد، قولي:

وَمَرَاتِجَ الظُّبْيِ الْأَغْنِ	ذَكَرَ الْمَعَاهِدَ وَالذَّمْنَ
دَ بَعِيدَ عَهْدٍ بِالْوَطَنِ	وَشَجَاهَ مَسْجُورٍ ^(٢) الْفُؤَا
وَرَقَاءَ تَهْتَفُ فِي فَنَنْ	بِالرُّومِ نَوْحُ حَامِيَةٍ
سَرَّ الْغَرَامِ الْمَكْتَمِ	عَجَاءَ يُعْرَبُ لِحْنُهَا
كِ فَنُونَ أَنْوَاعِ الشَّجَنِ	تُبْدِي عَلَى فَنَنِ الْأَرَا
هِيَ لِحْنُهَا إِلَّا لَحْنُ	مَا رَامَ مَعْبَدُ أَنْ يَضَا
دَرْسُهُ مِنْ طُرُقِ الْحَزَنِ	أَمَلْتُ مِنَ الْأَوْرَاقِ مَا
بَصِيحٍ مُسْنَدُهَا الْحَسَنِ	وَرَوَتْ أَحَادِيثُ الْهَوَى
تَهْمِي وَجَمِ مُمْتَهَنِ	عَنْ عَابِرَةٍ مَهْرَاقِيَةٍ
عَنْ مَقْلَةٍ قَرْحَى وَعَنْ	عَنْ لَوْعَةٍ عَنْ زَفَرَةٍ
فِي شَجْوَاهَا تَدْرِي بَيْنَ	تُذْرِي الدَّمْعَ وَلَيْتَهَا
سَقَى الْحَمَى غَيْثُ هَتَنِ	طَارَحْتُهَا ذَكَرَ الْحَمَى
بِدَمْشَقٍ جَنَّةُ مَنْ قَطَنُ	حَيْثُ الدِّيَارُ فَيَحِيَّةُ
فَفَنَاءُ جَامِعِهَا الْحَسَنِ	فَبِرَادُهَا فَبِرِيدُهَا
ضُ تَقَامُ فِيهِ مَعَ السُّنَنِ	فِرَوَاقُهُ حَيْثُ الْفُرُ
مِنْ سَلْسِيلِ مَا أَجَنُ ^(٣)	فَفَصْفَاءُ كَوْثَرِ مَائِهَا

(١) في ب: لم ترد كلمة: والبلاد.

(٢) شجاه: هيج حزنه وشوقه، والمسجور: المتقد.

(٣) أجن الماء: تغير لونه وطعمه ورائحته.

فمقيل هاتيك الربى
فمسيل باناس^(١) إلى
شوقي إلى زماني بها
حيث الشبيبة منزل
من كل مُخْطَفة الحشا
هيفاء صَبَّ بعِطْفُها
لم أنسها يوم الوداع
والدمع ينثر لؤلؤاً
يا محنتي أودى البعا
هلاً رجعت فإن لي
فأجبتُها لا والذي
أو تركني لظلال من
الفائض الأنوار عن
والمستفيض من مبا
مَجلى الوجود ومُظهر الأ
بل نقطة الذات الحي
أعني به سعد المكا
سرّ الخليفة والخلي
فالجأ إلى أبوابه

فظلال هاتيك الفنن
بطحاء في روض أغن
سُقَي الغوادي من زمن
والغانيات له سكن
رود كما الرشا الأغن^(٢)
ماء الصبا شرح الزمن
وقولها عند الظنن
من نرجس يسقي الدمن
دُ بعاشقي بك ممتحن
قلباً بحبك مرتين
سري لذيده كالعنن
ظل الإله له ركن
سر إلهي علن
دىء علمه أهل الفطن
سَاء عن فيض كمن
طبة والعريّة عن زمن
رم والمراحم والمنن
قّة والظهور وما بطن
تأمن من الدهر الفتنة

(١) باناس:

(٢) مخطفة الحشا: ضامرة البطن، والرود: اللينة الأعطاف.

والثم ترى أعتابه
واعرفه حقاً قبل أن
فهو الإمام ولا كنا
وهو الذي أضحى على
أو ما ترى الروح الأمية
يجري به في العذل من
ولقد عطف لبابه
وظننت خيراً ذاكراً
فهو البذي يهب النسي
مد إليه ظلاله
وبنيه أقمار المنا
الجامعي طرف السعا
صرف الزمان خطوبه
بمحمد وبآله

فهي الأمان من المحن
تحتل أجزاء البدن
ية في الخطاب لمن فطن
سير الخلاف مؤتمن
ن بره كيف استكن
شن النبي على سنن
أولي وقد ضاق^(١) العطن
أنا عند عبدي حيث ظن
من راحتيه وليس من
في العالمين مدى الزمن
زل حيث يحويهم سكن^(٢)
دة والسيادة في قرن
وصروفه عنهم وعن^(٣)
أهل الفصاحة واللسن

ومن ذلك ما كتبت به وأنا بالديار الرومية، دار الخلافة السنية،
سنة ٩٩٢ لقاضي العساكر المنصورة بولاية روم إيلي المولى عبد الكريم
بن قطب الدين^(٤)، بقية السلف الصالحين، أو أن ملازمتي له لمنصب

(١) في ب: طاف وهي تحريف، وضاق العطن أي ضاق الصدر ونفذ الصبر.

(٢) ساقط من ب.

(٣) سقط هذا العجز وصدر البيت الذي يليه من النسخة ب.

(٤) هو عبد الكريم أفندي قاضي القضاة بن قطب الدين، ذكره شرف الدين بن موسى في
تذكرته في قضاة دمشق الملحق بكتاب ابن طولون عنهم، فذكر أنه تولى قضاء دمشق في سنة =

الدرس ، بعد أن مضى حرس^(١):

مولاي يا قاضي العساكر
يا عالماً جلّ عن شبيهه
وفائض الجود من اياد
مفتنة الفيض كلّ وقت
الله راضٍ على أناس
فالدّينُ أمسى قريرَ عين
قد سرتَ فيه بهذي شيخ
ورحمتَ في بُردتي ثقة
يحمي حى الشرع منك غضب
ما البحر زاخرٌ والبدر باهر
إذا تفاخرَ إذا تسامر
مولاي يا قبلة الأمان
ومن له المجدُ لا يُسامى
والمنظر الطلق راق حُسنًا
والمنطق العذب رقّ لفظاً

= ثمانين وتسعمائة واستمر بها مدة، وباشر الأحكام الشرعية بها، وكان لا بأس به. انظر صفحة ٣٣١ من قضاة دمشق لابن طولون.

(١) مضى حرس أي مضى دهر، وفي المخطوطتين ب، ج: خرس بالخاء المعجمة.

(٢) الحادِر: الأسد في عرينه، وفي ب: حاذِر.

(۳) في ب: تناظر.

(۴) فی ب: وراق.

والنسبُ الطهر قلَّدنَّه
ورثتِ قَدَمًا عَلَا جُدودِ
شادُوا المعالي سَادُوا الموالي
من كلِّ قَرَمٍ ومن كلِّ شَهْمٍ
أَدْنَاهُمْ مِنْكَ وهو غَالِ
حَبَاهُ رَبِّي جَنَانِ خُلْدِ
بِحَقِّهِ عَالَمًا تَقِيًّا
إِلَّا تَعَطَّفَتْ نَحْوَ صَبٍّ
فَارَقَ بِالشَّامِ خَيْرَ دَارِ
مَاجِنَةُ الخُلْدِ تَصْطَفِيهَا
وليس ذَاتُ العَمَادِ إِلَّا
غَدَتْ عَلَيْهَا حَوَامِلُ الْمَرْ
ولا خِلا المَهْدُ من رُبَاهَا
تَحْنُو عَلَيْهِ بَنَاتُ فَخْرِ
فَكَمْ مَقِيلٍ بِهَا ظَلِيلُ
وَكَمْ مَغَانٍ فِيهَا غَوَانِ
فَارَقَتْهُمَا والفِرَاقُ مَرٌّ
قَالَتْ وَقَدْ زُمَّتِ المَطَايَا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي العُلَا فَبَاذِرِ
فَرَحْتُ أَنْضِي الرِّكَابَ نَضًّا

عُقُودُهَا الأَنْجُمُ الزَّوَاهِرُ
حَدِيثُهُمْ جَاءَ فِي الدَّفَاتِرِ
بِالسُّمْرِ طَغْنَاءً وَبِالبَّوَاتِرِ
أَغْرَ زَاهِي الْجَبِينِ زَاهِرِ
قُطِبُ الْأَوَائِلِ غَوِثُ الْأَوَاخِرِ (١)
يُنْقِي بِهَا السَّلِيلَ طَاهِرِ
وَسِرُّ نَجْوَاهُ فِيكَ ظَاهِرِ
يَصْبُ غَيْثُ الدَّمُوعِ مَاطِرِ
وَخَيْرَ جَارٍ وَالرَّبْعُ عَامِرِ
سَوَى رِيَاضٍ بِهَا نَوَاضِرِ
مَغْنَى حِيَاهَا إِنْ كُنْتَ خَابِرِ
نِ فِي ثَرَاهَا يَضَعْنَ بَاكِرِ
فِيهِ جَنِينُ النَّبَاتِ صَاغِرِ
تُرْضِعُهُ كِي يَشُبُّ سَافِرِ
وَكَمْ خَلِيلٍ تَرَكْتُ هَاجِرِ
مِنْ كُلِّ رُودٍ قَيْدِ النَّوَاطِرِ
كَمْ شَقٌّ لِلصَّبِّ مِنْ مَرَّائِرِ
وَالدَّمْعُ هَامٍ فِي الْخَدِّ هَامِرِ
حِمَى جَوَادٍ عَطَاهُ وَافِرِ
لَا أَعْرِفُ الْغَمَضَ فِي الدِّيَاجِرِ

(١) في ب: قطب الأواخر.

أَجُوبُ عَرَضَ الْفَلَاةِ جَوْباً
يَمُورُ مَوْرَ الظِّلِمِ لِيَلَا
يَجْرِي مَعَ الرِّيحِ ثُمَّ تَكْبُو
جَبِينُهُ الْبَدْرُ مِنْهُ يَبْدُو
فَمَا هَلْ لَـلْسَمَاءِ إِلَّا
وَلَا الدَّرَارِي سِوَى عَقُودِ
وَلَا نِطَاقِ الْجُوزَاءِ إِلَّا
مَا زَالِ يَرْمِي بِهِ الْمَرَامِي
حَتَّى أَتَى بِهِ جِمَى كَرِيمِ
صَدَرَ الْأَهَالِي بَدْرَ الْمَعَالِي
مَوْلَايَ عَطْفَاً عَلَى غَرِيبِ
أَخْنَتَ عَلَيْهِ صُرُوفُ دَهْرٍ
وَفَرَّقَتَ مِنْهُ شَمْلَ دَرَسِ
عَطْفَاً عَلَيْهِ فَإِنْ فِيهِ
وَأَحْبَنِي مِنْهُ دُرُوسَ عِلْمِ
سَمَاعُ يَا مَنْ لِسَانُ كُلِّ
فِي يَمِّ إِحْسَانِكَ الْمَرْجَى
وَلَسْتُ أَخْشَى عَلَيْهِ غَرْقَاً
فَمَرَّ كَالرِّيحِ فِي هُبُوبِ
وَعَادَ مَشْحُونٌ سَيْبِكَ الْغَمِ

بِكُلِّ نَهْدٍ أَقْبَبَ ضَامِرٍ
يَخُوضُ^(١) بَحْرَ السَّرَابِ غَامِرٍ
حَسْرَى وَيَمْضِي لِلْغَايِ حَاسِرٍ
وَالنَّجْمُ مِنْ غُرَّتَيْهِ غَائِرٍ
نَعْلًا رَمَتْهُ مِنْهُ الْخَوَافِرُ
أَمْسَى لَهَا مِنْ حُلَاهِ نَاقِرٍ
مَا قَلَّدَ الْجَيِّدُ مِنْهُ فَاقِرٍ
وَيَهْجُرُ الْوَرْدَ فِي الْهَوَاجِرِ
بِحُورٍ نَعْمَائِهِ زَوَاقِرٍ
ذُخْرُ الْمَوَالِي فَخْرُ الْمَفَاقِرِ
بِالرُّومِ أَمْسَى وَلَيْسَ زَائِرٍ
وُقِيَّتَ ظُلْمًا عَلَيْهِ جَائِرٍ
كَانَ عَلَيْهِ قَدِمًا يَثَائِرٍ
مَحَلٌّ صَنَعَ وَأَنْتَ قَادِرٍ
بِرَاحَةِ كَالْحِيَاءِ هَامِرٍ
بِكُلِّ مَدْحٍ ثَنَاهُ نَائِرٍ
أَجْرِيَتْ فَلَكَ الرَّجَاءُ سَائِرٍ
وَرَأَى سَقْدِي لَهُ مُسَامِرٍ
يَشْتَقُّ بَحْرَ النُّجَاةِ مَاقِرٍ
رِ بِاللَّيْلِ وَبِالْجَوَاهِرِ

(١) فِي أ: يَخُوبُ.

بعثتُ منها إليك عِقدًا وسوف أهدِي إليك أخرى
حتى يقول الأنام طُرًّا وهاك يكزاً تهيجُ ذكرى
شامية النشأ من كرام لو أن مهيَّارَ شام برقاً
والحاجري الأديب صَبَا خُذْهَا تُجَلِّي كالبدر تُجَلِّي
رُود رداحِ غَرثَى وشاحِ وأنت كفؤُ لها كريم
هذا ووعدُ الكريم دينٌ واغنم دعاءً وارددْ ثناء
واسلم مدى الدهر في سُور ما لاح برقٌ وناح طائر



ولما طالت ملازمتي لبابه، وترددي لأعتابه، كتبت إلى جناب المولى
العلامة، والعالم الفهامة، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، في جميع الآفاق،

(١) بصرى: هي قصبة كورة حوران من أعمال دمشق، معجم البلدان ٦٥٤/١.
(٢) الشعب: الطريق في الجبل، وشعب عامر ويسمى أيضاً شعب جبلة، هو الموضع الذي
حدث فيه يوم من أيام العرب بين بني عامر وأكثر قبائل العرب، وكان النصر فيه لبني عامر،
انظر معجم البلدان ٣٤/٢، ٢٩٥/٣.

بالاستحقاق، الشهير نسبة الخطير، بجوي زاده^(١)، ضاعف الله من الفضائل زاده وزاده، متشبهاً بذيل كرمه العميم، بشفاعه لقاضي^(٢) العسكر عبد الكريم، وقد سبق منه وعد كريم وذلك في سنة ٩٩٢، قولي^(٣):

ما قول^(٤) شيخ الوري علامة الأمم مفتي الفريقين من عرب وعجم
فخر الزمان إمام العصر أفضل من أمت حاه مطايا العزم من أمم
الباهر الفضل والآراء والنعم والطاهر الأصل والآباء والشيم
والقائل الفصل لو شاءت رويته نجم النجوم الدراري موضع الكلم
المرشد الخلق^(٥) سبل الحق حيث غدا

إمام حق لهم فافطن إلى كليبي
فهو الإمام الذي نرجوه منتظراً لقتل دجال جهلي قد أباح دمي
أمدّه الله بالزلفى ومدّ له ظلاً على مفرق الإسلام والأمم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها يراعهُ الصّارم الفراج للغمم
في مُدَنَفٍ لعبت^(٦) أيدي البعاد به وفرقت منه ظلماً شمل ملتئم

(١) هو محي الدين محمد بن محمد بن الياس، المعروف بجوي زاده الحنفي، الإمام العلامة، أحسن قصة الدولة العثمانية وأعظمهم وأصلحهم سيرة، ولي قضاء دمشق سنة سبع وسبعين وتسعمائة، ثم صرف عنه بقضاء مصر، ثم صار قاضياً للعسكر، وفي آخر أمره صار مفتياً للتحكّم السلطاني.

وكان عالماً بارعاً، فاضلاً عفيفاً، خفض كثيراً من الرسوم القضائية في عهده، وتوفى وهو مفتي السلطنة عام ٩٩٥ هـ. انظر الكواكب السائرة، شذرات الذهب ٤٣٦/٨.

(٢) في أ: بشفاعه من قاضي.

(٣) ساقطة من ب.

(٤) في ب: ما قال.

(٥) في ب: المرشد الحق.

(٦) في ب: ولعت.

ففارقَ الشام والأوطان جادَها
 يروم بالروم دار العدلِ مدرسةً
 مما يَعُدُّوه شرطاً في ملازمة
 وحقِّه كان يعطاها يداً بيدٍ
 فكيف صاعَ لمولانا وسيدنا
 هل حلَّ ذلك في الشرع القويم له
 ابن لنا عنه واكشف ظلمة سترت
 فقد حثَّنا ركاب العزم من بلدٍ
 لولاه لم أرضَ الروم منزلةً
 فهل سمعت بذى لبٍّ يعيش به
 لكنَّ من حلَّ مغناك الرفيع يرى
 مولاي نصرة (٣) عانٍ قلَّ ناصره
 أصمَّ لم يصغ للشكوى (٤) وأبكم لم
 وهذه نفثة المصدور (٥) قد صدرت
 عسى أياديك تشفيه من الألم
 واسلم ودم ما سرى نجم وما طلعت

كسُخبٍ جفني (١) هطَّال من الدَّيمِ
 ولم يَحِذْ عن طريق القوم في القَدَمِ
 ومُدَّةً من سنين أربع قُدَمِ
 كما تقرر في قانون عرْفِهِمِ
 قاضي العاكر منعٌ وهو ذو كرم
 أم ذاك قانونٌ مَعلومٌ بلا سَقَمِ
 وجُوه آمالنا يا كاشف الظُّلَمِ
 ناءُ إليك رجا إحسانك العمَمِ
 عن الشام سقاها غيثٌ مُنْجِمِ
 يسيرُ قط لأرض الروم عن إرَمِ (٢)
 بأنه حلَّ بين الرُّكنِ والحَرَمِ
 من جَوْر قاضٍ قضى بالعدل مَتَمِ
 يَحْرُ جواباً وعن حال الفقير عَمِي
 من صدر عبدٍ لصدر الناس كلَّهم
 لازلت في نعم موصولة النعم
 غزالة الصُّبح تربعى النَجْمِ في الظُّلَمِ

★ ★ ★

(١) في ب: دمي.

(٢) ارم ذات العباد: هي دمشق، وقيل إنها الاسكندرية.

(٣) العاني: الذليل، والأسير.

(٤) في ب: لم يسمع الشكوى.

(٥) في ب: للصدر.

ومن ذلك ما كتبت به أيضاً لجَناب^(١) الحضرة الخواجكية السعدية لا زالت أعتابها قبلة الآمال، وكعبة الأمثال^(٢)، وقد كثرت من قاضي العساكر المذكورة، مواعيد عرقوبية، فأثَّرت في الخاطر حتى نطق بلا روية^(٣)، أواخر شعبان سنة ٩٩٢:

أَلا هَلْ لَظَلِمَ لَا يُطَاقُ دِفَاعُ	وَدَعَوَى عَلَى الْخَصْمِ الْأَلَدِّ سَمَاعُ
فَلَمْ يَبْقَ فِي قَوْسِ التَّبَصُّرِ مَنَزَعُ	وَقَدْ طَالَ مِنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ نِزَاعُ
رَمَتِهِ سَهَامُ الْحَادِثَاتِ وَأَقْصَدْتُ	حِمَاةَ الْمَنَايَا صَارِمٌ وَيَرَاعُ
تَمَرَّقَ مِنْهُ الْعَمَرُ كُلُّ مَمَرَّقٍ	وَيَنْتَاشُهُ مِنْهَا يَدٌ وَذِرَاعُ
كَدَّابٌ دِيَارٍ قَدْ عَفَّتْهَا يَدُ الْبَلَى	وَقَدْ بَانَ مِنْهَا أَرْسَمٌ ^(٤) وَشِرَاعُ
إِذَا هُوَ لَمْ يُنْجِزْ عَلَى الْقُرْبِ مَوْعِدًا	بِمَنْصِبٍ دَرَسَ لَيْسَ عَنْهُ دِفَاعُ
وَلَمْ أَرْجُ مِنْهُ مَنْصِبًا قَطُّ إِنَّمَا	رَجَوْتُ نَدَى سَعْدٍ نَدَاهُ طِبَاعُ
فَتَى كَفَّهْ مَخْلُوقَةً لثَلَاثَةِ	سَمَاحٍ وَعَضْبٌ صَارِمٌ وَيَرَاعُ
أُمُولَايَ قَدْ شَاعَتْ لِبَابِكَ نَسْبَتِي	وَمَقْسُومٌ مَدْحِي فِي عُلَاكَ مُشَاعُ
وَقَدْ صَدَرْتُ مِنِّي إِلَيْكَ قَصَائِدُ	وَرَقْعَةٌ وَجْهَ لَمْ تُهَنْ وَرِقَاعُ
وَلِي مِنْكَ وَعْدٌ قَدْ تَرَاحَى نِجَازُهُ	فَمَنْ بِيَعَادٍ خَطَاهُ سِرَاعُ
فَأُنْجِزُهُ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ فَهَذِهِ	أَوْامِرُكُمْ فِي الْخَافَقِينَ تُطَاعُ

★ ★ ★

(١) ساقطة من ب.

(٢) في ب: الآمال.

(٣) في ب: نطق اللسان بدل بلا روية.

(٤) في ب: أسهم.

ومن ذلك ما كتبت به أيضاً للأعتاب السنية السعدية، والأبواب
 السامية الخواجكية، أسبغ الله ^(١) ظلها في مقر الخلافة، وحمى جلالها
 واجلالها عن كل آفة، لاجئاً من ظلم قاضي العساكر بجرمه، معتمداً في
 عفو ما أفوه به، لطفه وكرمه، قولي:

جَادَتْ عَزَالِي ^(٢) النَّوْبِ	لرُبِّ عَمَلٍ مَثَلًا جَلِي
بِعَارِضٍ ذِي بَارِقٍ	يُمِطُّ غِيَمَ النَّوْبِ
شَيْخُ عَنَادٍ ظَالِمٌ	مَبْلَدُ الطَّبَعِ غَيِّ
بَلْ لَا عَدَتْ أَطْلَالُهُ	سُخْبُ الْمَنَايَا الصُّخْبِ
بِثْلَهَا قَدْ أَهْلَكَتْ	عَادَ بَرُّ الْحَقِّبِ
تَرْسُلَهَا الرِّيحُ الْعَقِيمُ	مِنْ سَمَاءِ الْفَضْبِ
وَكَاغَفَةٌ ذَرَّافَةٌ	جَرَّافَةٌ بِالْمَيْدَبِ ^(٣)
تَتَّبِعُهَا صَوَاعِقُ	فِيهَا دَوَاهِي الْكُرْبِ
تَوْمُهَا بَوَاعِقُ	تَصْمُ سَمْعَ الْعَوْطِبِ ^(٤)
فِي إِثْرِهَا بَوَارِقُ	تَرْمِي شِرَارَ اللَّهْبِ

(١) في ب: أثبت الله.

(٢) عزالي جمع عزلاء وهي مصب الماء من القرية، ويقال: أرسلت السماء عزاليها: انهمرت بالمطر.

(٣) وكافة: صيغة مبالغة من وكف، وكف المطر: سال قليلاً قليلاً، والذرافة: الريح، والجرافة: التي تجرف في طريقها كل شيء، والهيدب: الحاب المتدلي الذي يدنو من الأرض ويرى كأنه خيوط عند انصبابه.

(٤) البواعق جمع باعق، وهو المطر المفاجئ، بوابل واليل الدفاع، والعوطب: لجة البحر، أو المطنن بين الموجتين.

يعقبها بَوَائِقُ	فيها دَوَاعِي الوَصْبِ ^(١)
مَرْدَفَةٌ بِعَوَظِ ^(٢)	تُسَلِّمُهُ لِلْعَطَبِ
يَشْفَعُهَا عَلَى وَجْهِ	فَرَسَانُ طَعْنِ ذَرْبِ ^(٣)
إِذَا دَعَتْهَا غَارَةٌ	خَبَّتْ لَهَا فِي خَبِّ ^(٤)
كَالْهُوجِ لَا لِأَيِّ بَهْـ	تَقُودُ قَوْدَ الشُّدْبِ ^(٥)
خَيْلَ الْمَنَـيَا ضُمْرًا	مَرْوَجَةً كَالشُّهْبِ
مِنْ أَشْفَرِ وَأَحْمَرِ	وَأَذْهَمِ وَأَشْهَبِ
وَأَزْرَقِ وَأَبْلَقِ	وَأَخْرَجِ وَأَصْهَبِ ^(٦)
يَحْمِلْنَ كَسَلًا بَاسِلَ	لَيْثٍ عَرِينِ أَغْلَبِ ^(٧)
مُسْتَلْتَمًا صُفْحَ الْحَدِيدِ	مِنْ صَفِيحِ الْيَلْبِ ^(٨)
مُتَّشِحًا بِيَضِ الظُّبَا	نَوَازِعًا لِلْسَّلْبِ

(١) البوائق: جمع بائقة وهي الداهية، والوصب: الوجع والمرض، أو التعب أو القصور في البدن.

(٢) العوطب هنا: الداهية.

(٣) وجأه: دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق، ويقال: وجأه باليد والسكين: ضربه، والطعن الذرب: الحديد الماضي.

(٤) خبت لها: أسرعت، والخبيب: العدو. وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف خب ثلاثاً.

(٥) اللأي: الإبطاء، والشذب: جمع شاذب وهو النعبد عن وطنه، أو المدافع عن غيره.

(٦) الفرس الأبلق: ما كان فيه بياض وسواد، والأخرج: ما كان ذا لونين، والأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.

(٧) الأغلب: ذو العنق الغليظ.

(٨) المستلم: الجندي حين يلبس لأمنه، وهي أداة الحرب كلها من رمح وخوذة وسيف ودرع، واليلب: الفولاذ من الحديد.

معتقلاً سُر القَنَا الـ
لبوسُها لبوسُها
مضاء عفُ الرَّد له
تجلُّو ظلام النَّقْع عن
بيضُ على هاماتها
تَفْنَى بهامها سَرَتْ
تلك التي إِنْ غَالِبَتْ
أَوْ حَارِبَتْ جيش القضا
أَوْ صَادَمَتْ رَضَى غدا^(٣)
فِي سَدِّ ياجُوجَ لها
دَعْتُهُمْ ثُمَّ انْشَبَتْ
فَأَقْبَلَتْ صَخَابَةً
وَصَبَّحَتْ دِيَارَهُ
بَصِيحَةً تَقْلَعُهَا
فَتَجْعَلُنَّ عَالِيَهَا
لِلْعَيْنِ قَاعاً صَفْصَفاً
عِرَاضٍ فَوْقَ الْمَنَكِبِ
صَنْعَةُ دَاوُدَ النَّبِيِّ
مِثْلُ عَيُونِ الْجُنْدَبِ^(١)
تِلْكَ الْوُجُوهُ الشُّحْبِ
يِرَاقُ لَمْعَ الْكُوكَبِ
غَائِرَةٌ. عَنِ كُوكَبِ^(٢)
جَنَدِ الْمَنُونِ تَغْلِبِ
مَا اثْنَتُ عَنْ رَهَبِ
سَقَطاً مَهِيلَ الْجَنْبِ
قَرَابَةً مِنْ نَسَبِ
وَاللَّيْلِ مُرْخِي الطُّنْبِ
تَفْرِي أَدِيمَ الْفِيهِبِ
مَعَ الصَّبَاحِ الْأَشْهَبِ
قَلْعَ أَصُولِ الْكَرْبِ^(٤)
سَافِلَهَا حَتَّى تَبِي^(٥)
أَوْ مِثْلَ قَفَرٍ سَبَبِ

(١) الرد: حلقات الدرع المنوجة، وهي تنج بشك طرفي كل حلقتين وتسيرها في بعضها البعض، والجندب يفتح الدال وضما: نوع من الجراد يصر ويقفز ويطير.

(٢) الكوكب: الحديد يرق وتوقد.

(٣) رضى: جبل بالمدينة، وفي ب: غدت بدل غدا.

(٤) الكرب: الأصل العريض للنف إذا يس.

(٥) تبى أي تبين وحذف النون لتتق معه القافية.

خَاوِيَةً عُرُوشُهَا	عَلَى فَنَاءٍ خَرِبَ
وَلَا تَدْعُ فِي سَاحِهَا	مِنْ هَامِهَا وَالْخَرِبِ (١)
سَوَى شَخِصٍ شَاخِصٍ	مِنْ مُسْنَدَاتِ الْحُشْبِ
مَنْطَلِقِي مِنْ ظِلِّهَا	إِلَى ثَلَاثِ شُعَبِ
غَيْرِ ظَلِيلٍ لَا وَلَا	فِيهِ غَنَى مِنْ لَهَبِ
تَبَّأَ لَهُ مِنْ خَادِعٍ	عَنْ خَتْلِيهِ غَيْرِ أَبِي
فَهُوَ الَّذِي يَصُدُّنِي	مِنْ جَهْلِهِ عَنْ مَطْلَبِي
وَكَلِمَا سَأَلْتُهُ	مَدْرَسَةَ بَرَحٍ بِي
يَحْبُبُنِي مِنْ حُمَقِهِ	حَاوَلْتُ عُنُقًا مُغْرِبِ
وَمَا دَرَى بِأَنْنِي	عَبْدٌ لِسَامِي الرُّتَبِ
سَعْدُ الْبِرَايَا عَالَمٌ	آرَاؤُهُ كَالشُّهُبِ
الْقَائِلُ الْفَصْلَ إِذَا اخُ	تَكَّتْ ظُهُورُ الرُّكَبِ
وَالطَّاعِنُ الْقِرْنَ مَتَى	اشْتَكَّتْ مَتُونُ الْعَرَبِ
مَوْلَى حِمَاهُ حَرَمٌ	أَمِنْ لِأَهْلِ الطَّلَبِ
تَهْوَى لَهُ أَفْتَدَةٌ	مِنْ عُجْمِهَا وَالْعَرَبِ

★ ★ ★

(١) الهام: الرؤوس أو الأعالي، والخرِب: جمع خربة وهي العورة ويعني بها الأسافل أو ما يقابل الهام.

مَا قَالَ فِي الْمَعْمِيَاتِ

قلت معمى في اسم بهرام

لم أنه إذ رمى عن قوس حاجبه سهم اللواظ يَصْمِي كل من رَمَقَا
يا ليت قلبي لمرماه غدا هدفاً رام عليه بهاء سهمه رَشَقَا

وباسم فهمي

لام عَلَى لامٍ عَارِضِيهِ^(١) فَمُدَّ رَأَاهُ زَالَ الْمَلَامُ
وهام في ثغره عَزُولِي وقد حَا قَلْبَهُ الْهُيَامُ

وباسم فريدون

خَفِيَ اللَّهُ مَالِي وَحُبُّ الْكَوَاعِبِ فَلِلنَّاسِ فِي الْعَشَقِ قَالُوا مَذَاهِبُ
متى حاز بدرٌ جَمِيعَ الْمَسَاكِينِ فَحُبِّي فَرِيدٌ بَصَدَغٍ وَحَاجِبُ

وباسم مِيرَك

أَقْبَلَ كَالْبَدْرِ طَلْعَةً وَسَنَا بِقَامَةٍ كَالْقَضِيبِ مَيَّاسِ
يَسْقِي حَبِيبَهُ خَمَرَ رِيقَتِهِ سَاقِي كَرِيمٍ يَدُورُ بِالْكَاسِ

وباسم أَكْمَل

نَظَرْتُ إِلَى مُكَّاءَ وَسَطِ حَدِيقَةٍ عَلَى عَذَبٍ يَرْنُو لِأَعْدَبٍ سَلْسِلِ^(٢)
فَبِينَا تَرَاهُ رَائِدًا فِي رِيَاضِهَا إِذَا هُوَ مَصْرُوعٌ بِمُخْلِبٍ أَجْدَلِ^(٣)

وباسم صَافِي^(٤)

(١) في ب: عارضه.

(٢) المكاء: طائر صغير يصفر صغيراً حناً، والعذب: طرف الأغصان.

(٣) الأجدل: الصقر.

(٤) في أ، ب: صادف.

كثرتُ تَقْيِيْلَ ثَغْرِ فما شفا لي غَلَّة
وراح قلبي ظَمَام منه بأول قبله

وباسم حمام

رعى الله أياماً على أجرع الحمى لصبّ مضت والعيش في ظلها حلُم
حشاه على أيام وصل تصرمت أوائلها أضحى وليس له رسم

وباسم صددري

بدا في سماء الحسن خالٌ بوجهه يلوح بأفق الخد كالكوكب الدُري
أضاءت عليه طُرَّةُ الصبح فاخفى بها الكوكبُ الوضاحُ في غُرَّةِ الفجرِ

وباسم بهرام أيضاً

لم أنسه لَمّا تبدى مُقبلاً نشوان يُخجلُ قدّه الأغصانا
قاسِ أَرانا منه لطفَ شمائلِ بهر الأنام بحسنهنّ ولانا

وباسم ذو الفقار

عاذلي في الغرامِ دغني فقلبي ليس فيه عن الغرامِ اصطبارُ
حين يبدو في حسنه وعليه - ذو قوام يَنِي العقول - وقارُ

وباسم سلمان

في وجهه وثره لمن يرى صيّدُ الطباء في الهوى سَوانِحا
محاسنُ فيها لمن يرومه طَرَفُ الحبِّ ناظراً ولاحِحا

وباسم عبيد النلي

لما بدا بعارضٍ عليه تاجٌ من ذهب علا على البدرِ سناً
فانحطّ عنه برُتب وما كتبت إلى بعض الإخوان معتذراً، لا بَرَحَ على نظام القريض
مقتدراً:

وَجَحَرَ عِلْمَ رِمَانِهِ بِالذَّرَرِ
 أَهْبَى مِنَ الزُّهْرِ بِلِأْزْهِى مِنَ الزُّهْرِ
 بِحُسْنِهِ لَا بِحُسْنِ الدَّلِّ وَالْحَوَرِ
 وَصَفَ الدِّيَارَ بِهَا حَسَانَةُ النَّظَرِ
 إِلَيْكَ شَوْقٌ مَحَبٌّ عَابِقُ الْوَطَرِ
 عَلَى مَرُورِ اللَّيَالِي حَادِثُ الْغَيْرِ
 عَلَى مَلَالٍ وَلَا سُلُوكٍ مِنْ وَطَرِي
 عَنْ حَمْلِ أَدْنَاهُ مِنِّْي طَاقَةُ الْبَشْرِ
 أَبُو الْعَلَاءِ سَقَاهُ غَيْثُ مِنْهَمِرِ
 وَالْعَذْبُ يَهْجُرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي الْحَصَرِ (١)

أَبْشِرُوا حَظُّنَا نَهْضُ
وَسَنَّا بَارِقُ النُّنَى
وَرِنَّا طَرْفُ دَهْرِنَا
وَأَزَالَتِ شُمُوسُهُ

بعد ما كان قد رَمَضَ^(٢)
بعد طول الجفا وَمَضَ
نَحُونَا بعد طول غَضَّ
ظِلْمَةَ الْجَهْلِ فَاَنْعَمَضَ^(٣)

(۳) انقضض: نامت عیناه.

وأَتَى الحَقُّ بعدما	زهق الباطل المَهْضُ ^(١)
والبليد الطباع من	عنصر ما به حيض ^(٢)
عامل القوم بالجفا	ولطُرُقِ ^(٣) الوفا رفض
جَهْل النحْو والذِي	قرر القوم قد نَقَضَ
فلهُـذا وشبهه	ولأمر هو الغرض
رفعوه بجره	بدل النَّصَبِ فانخفض
عَوْضُونَا ^(٤) مكانه	عوضاً يا له عوض
خير قاضي عاكر الدَّ	ينِ بالحَقِّ قد نهض
أعدلُ الخلقِ إن قضى	أكرمُ الناسِ إن عَرَضَ
أعلمُ القوم بالذِي	شرع الحقَّ وافترض
وبه قام مثلما	قام بالجوهر العَرَضُ
فلذا قال هاتِفٌ	في خطاب له وحض
أنت ذاك الذِي علا	ما به جاء وانتفض
قم وخذ مؤرَّخاً	جدد الدين يا عوض ^(٥)

★ ★ ★

ومن ذلك ما كتبت به وأنا مدرس في دار السلطنة السنية، في دولة

(١) المهْض: الكسير العليل.

(٢) الحيض: الدم.

(٣) في ب: وطريق.

(٤) في ب: وعوضنا.

(٥) هذه الشطرة تاوي حروفها بحباب الجمل ٩٩٣، وهي النة التي يعنيها.

المراد خانية، إلى المقام الأسمى، والجانب الأسمى، مُلَقَّن ظل الله في العالمين، جناب سعد الملة والدنيا والدين، بعيد الفطر مهنيًا، وبالحنين إلى الديار الشامية موريا، وقد لمع من نحوها بارق، منه أصبح القلب خافق، سنة ٩٩٣ قولي:

شام برق الشام ^(١) بالروم جزوعا	فانبثرت أجفانه تُذري الدموعا
هَبَّ مِنْ عَلِيًّا دَمَشْقِي مَوْهِنًا ^(٢)	هَبَّةَ المصباح في الليل ذريعا
جزع الآفاق في هَبَّتِهِ	وأتى الروم سُرَى الأئيمِ جزوعا
خَفَقَتْ رَايَاتُهُ فِي أَفْقِهِ	خَفَقَانِ القلب قد أَسَى مَرُوعا
وَقَعَتْ شُعْلَتُهُ وَسَطَ الحِشَا	وَسَنَاهُ طَال فِي الجَوِّ رَفِيعَا
ليس يدري وقعها غيرُ شَجِرٍ	فَارَقَ الأوطان مثلي والرُّبُوعَا
أَوْ مُعَنَّى بِهِوَى تَيَّمَهُ	من غزالٍ راح للوصل مَنُوعَا
يُخْجَلُ الشَّمْسَ سَنَاءً وَسَنَا	وَمَهَاةَ الرَّمْلِ جِيدًا وَتَلِيعَا
أَسْهَرَ الجفنَ خَلِيلًا عَنْ كَرَى	مُقْلَةً لَمْ تَطْعَمْ النُّومَ هُجُوعَا
كَيْفَ يَكْرَى نَاطِرٌ فَارَقَهُ	نَاطِرُ العيشِ من الليل هَزِيعَا
وَشَبَابٍ شَرَّخَهُ مَقْتَبِلٌ	كَانَ فِي الصَّدِّ لَدَى الْعَبْدِ شَفِيعَا
لَمْ يَكُنْ إِلَّا كُحْلِمٍ وَانْقَضَى	أَوْ خِيَالٍ فِي الكَرَى مَرَّ سَرِيعَا
أَزْمَعْتُ حَرَّتَهُ لَا تَنْقُضِي	آه مَا أَعْجَلَ مَا وَلَّى زَمِيعَا ^(٣)
لَسْتُ أَرْضَى مِنْهُ السُّقْيَا لَهُ	وَسَحَابُ الجفنِ يَسْقِيهِ الرِّبِيعَا ^(٤)

(١) شام البرق: تطلع إليه مبرقًا.

(٢) الموهن: نحو من نصف الليل، أو بعد ساعة منه.

(٣) زَمِيعَا: سريعًا.

(٤) في ب: منته بدل منه وتسقيه بدل يسقيه.

والذي هاج الجوى قمرية
كلما ناحت على أفنانها
وإذا غنت له غنت له
يا سقى الله حماها وابلا
حيث ربع، اللهم منها أهل
كل رويد ألبست شرح الصبا
لم يرعها غير ريعان الصبا
كم لنا فيهن من بهانة (٢)
لست أنسى ساعة التوديع إذ
وهي تُذري لؤلؤاً من نرجس
علقت ذيلي وخانتها القوى
وأفاقت وبها رسّ الجوى
لا رعى الله المعالي مطلباً
كنت لي بدرأ منيراً فاخفى
وشباباً لاح بدرأ عندما
أيها الظاعن والقلب على
لا تكن للعهد بعدي ناسيا

بالضحى تهتف بالأليك سُجوعا
هاجت الصبب غراماً وولوعا
ذكرة للشام زادتة نزوعا (١)
مُسيل الطرف من الغيث هموعا
والمغاني (٢) في مغانيها جميعا
وكساها الحسن ديباجاً بديعا
وهوى إن تدعه لبى مُطيعا
ولع القلب بها خوداً سموعا (٣)
وقفت في موقف البين خضوعا
فوق ورد كاد طيباً أن يضوعا
فانثنت من وقعة البين صريعاً (٤)
ثم قالت وشكت دهرأ خدوعا
كم ترى مغرى بها صبأ ولوعا
في سِرارٍ بعد ما سرّ طلوعا
أشعل الرأس سنأ راح مريعا
إثره مذ سار ما زال هُلوعا
يا حياتي واعطفن نحوي رُجوعا

(١) في ب: ذكر الشام فزادته.

(٢) في ب: والغواني، والمغاني جمع مغنى: وهو المنزل الذي غنى به أهله ورضوا.

(٣) البهانة: الخفيفة المرحية في هدوء ولين.

(٤) الخود: الشابة الناعمة الحنة الخلق؛ والسموع: الحادة السمع فهي صيغة مبالغة من سمع.

(٥) في ب: صروعاً.

وإذا لم تَرَ عَهْدِي فَادْكُرْ
 كيف تنسى زِيناً أو أختها
 لها منك وإن طال المدى
 وشفيعُ الدمع يجري دُرّاً
 قلت هيهاتَ شفيع أو أرى
 سعد دين الله مجلى سرّه
 مظهرُ الألفاظِ فياضُ الندى
 عالمٌ عذبُ السجايا ناسكٌ
 قانتٌ لله فيه خشيةٌ
 طاهرُ الشيمة عَفُ الذيلِ لا
 مستنيرُ الرأي مرهوبُ الحجى
 قد حمى الإسلام منه صارمٌ
 ويراعِ ينظّمُ الشُّهْبَ وإن
 ما مشى في الطُّرسِ إلّا خلّته
 ينفثُ الأَرْيَى لراجي ودّه
 مُذْ رسا^(٢) للملك طوداً لم يزل
 يحتبي الحلم بحقوقه إذا
 أيها السالك من نهج الهدى
 واستبق سدة سعد نورها

عَهْدَ من خَلَفَتَ والطفلَ الرضيعا
 كلما قالت أبي أذرت دُموعا
 ذِمَّةٌ تُرعى وعهدٌ^(١) لن يضيعا
 مثل دُرٍّ وقعهُ يحكي الصقيعا
 فضل سعد الدين فيهنّ شفيعا
 في ظهور بلغ السقف الرفيعا
 عن أيادٍ تُخجلُ الغيثَ الرّيعا
 كلما ازداد تُقَى زاد خُشوعا
 يقطعُ الليل قياماً وركوعا
 يَزدهيه جانباً^(٢) الدُّنيا مُريعا
 أريحى الجود كم أولى صنيعا
 قلّ عنا حادثُ الخطبِ شنيعا
 نثر الدُرَّ كسا الروض وشيعا
 أرقماً ينسابُ في الروض ضليعا
 ولباغي ضِدّه السَّمّ النقيعا
 رُكنه من حادث الدهر مَنيعا
 زعزعت عاصفُ ريح الطيش ريعا
 طرق الحق دع المشي هيوعا
 قد بدا من أفق الحق صديعا

(١) في ب: وعهداً.

(٢) في ب: جانب.

(٣) رسا: ثبت وقد رست بالياء في ب وصحتها كما أثبتنا.

الإمام المُجتبى سعدُ الورى
صاحب الخيرة والنور الذي
هو ظِلُّ الظلِّ والظلُّ كما
ليس تخفي ذاته إلا على
رُتَبٍ تسقطُ حَـرَى دونها
لم تُنلْ بالسعي كلاً إنما
أيها المولى الذي أعتابه
وأقام السعدُ في أكنافها
ركنه ركنٌ لنا مُلتَزَمٌ
فبنو الآمال طافت حوله
وبنو الآداب في ساحاته
وملوكُ النظم والنثر بها
يا لها أكنافُ سعدٍ أصبحتُ
فابنُ عبادٍ^(١) لو اجتاز بها
ودرى أن المعالي لم تكن
فلعمري إن مَـغْناها لنا
أبتغي فيها مُقامي مثل ما

فهو من ينتظرُ القوم تبعاً
ملأ الآفاق والكون شيعاً
قيل عينُ الشمس إن كنت سميعاً
أكمه لا يعرفُ الصبح الصديعاً
مستطيلاتُ الأماني وقوعاً
هو فضلُ الله فيه قد أذيعاً
لأولي العلم غدت ربعا وسيعاً
بيتَ فضلٍ حجَّه الناس ربيعاً
وحياهُ حرم يُلغى منيعاً^(٢)
تبتغي من فضله الفضلُ نجوعاً
قد أقامت تُنشئُ الوشي البديعاً
هيبَةً من نطقه تُبدي الخُضوعاً
يذكرُ الفضل حماها والربيعاً
لرأى فضلاً ينسِيه البديعاً
تحت حَصْرِ العصر بل فضلُ أشيعاً
جَنَّةٌ أنهارها تجري نُبوعاً
يبتغي فضلك في الدنيا الشيوعاً

(١) في ب: مريباً.

(٢) يعني به صاحب بن عباد وزير البويهيين الشهير، والذي كان كاتباً مترسلاً تستهويه أنواع
البدع وبخاصة الجناس في كتابته، حتى لقد قيل إن ابن عباد لو عرضت له سجة تحل بها
عري الملك ما بالى بذلك ولأقى بها في نثره، توفي صاحب سنة ٣٠٣ هـ، انظر.

يَنْثُرُ الإِحْسَانَ^(١) فِي الْأَرْضِ مَشِيعَا مَنْزِلًا فَارَقَهُ الْجِسْمَ جُزُوعَا مِنْذُ عَامِينَ وَحَسْبِي أَنْ أُضِيعَا ثُمَّ هَذَا الْعَبْدُ فَأَرْسَلَهُ سَرِيعَا عَنْ أَيْدِي تَخْجَلِ السَّحْبِ صَنِيعَا بِأَمَانٍ فِي زَمَانٍ مَا أُرِيعَا فِي الْوَرَى طَابُوا أَصُولًا وَفُرُوعَا نَازِحُ الدَّارِ وَاشْتَاقَ رُبُوعَا	وَلَسَانِي عَنْكَ يَهْوِي السَّرَّ كِي بَيْنَ أَقْطَارِ دِمَشْقٍ وَيَرَى مَا شَرَبْنَا الْمَاءَ كَلًّا وَالْكَلَّا مِمَّا لَمْ تُثْمِ سِوَى مَوْلَاهُمْ لَا بِرِخْتِ الدَّهْرِ رَدَّافِ الْعَطَا بَيْنَ إِقْبَالِ وَعِيدِ عَايِدِ وَبَنُوكَ الْغُرِّ سَادَاتُ الْوَرَى مَا صَبَا صَبًّا إِلَى أَوْطَانِهِ
---	--

ومما كتبت به أيضاً لسدته السامية، وعتبته العالية، سائلاً منه فيضه الكامل، وفضله الشامل^(٢)، ترقية المدرسة مع الانفصال، دام في النعم الجسيمة مع الاتصال، قولي:

أَنَا مِنْ بَعْضِ الْمَوَالِي سَائِلًا قَبْلَ سُؤَالِي نَعَمْ مِنْهُ تَوَالِي وَانْفَصَالِي عَنْ عِيَالِي بِاتِّرَقٍّ وَانْفِصَالِ كُلِّ حِينٍ فِي تَوَالِي لَاكَ فَيَّاسُ النَّوَالِ	فِي ذُرَى مَوْلَى الْمَوَالِي جَاءَنِي الْإِحْسَانُ مِنْهُ بَسَطْتَ كَفًّا رَجَائِي كَيْفَ لَا يَزُنِّي لِحَالِي كَيْفَ لَا يَنْخُو لِعَبْدِي كَيْفَ لَا وَالْفَضْلُ مِنْهُ فَهُوَ سَعْدُ الْمَلِكِ وَالْأَمَدِ
--	--

(١) في ب: ينثر الإحسان.

(٢) في ب: سائلاً من فضله الكامل وفيضه الشامل.

والسـذي شَرَفَ كَيَونَا	نَ ^(١) بحَظٍّ مِنْهُ عَالِ
وأَعـَارَ المُشْتَرِي حِذْ	بِمَا حَوَى حُسْنَ الخِصَالِ
وانتَضَى المَرِيخُ سِيفَا	زَانَهُ حُسْنَ الصُّقَالِ
وكَا الشَّمْسُ رَدَاءَ	مُسْتَنِيرَا غَيْرِ بَالِي
وَحَبَا الزُّهْرَةُ أُخْلَا	قَا لَهَا ^(٢) لِيْنِ اعْتِدَالِ
ثُمَّ خَصَّ الكَاتِبُ الحَبْ	رَ بِأَنْوَاعِ الكِمَالِ ^(٣)
وَأَقَامَ القَمَرُ الفَرْ	دَ مِنْـِيرَا فِي اللِّيَالِ
كُلُّهَا تُثْنِي عَلَيْهِ	بِمَقَالِ وَبِحِجَالِ
دَامَ سَعْدَا لِلْبِرَايَا	فِي نَعِيمِ بَاتِصَالِ
مَا وَشَى طَرَسَا أَدِيبٌ	بِنَظَامِ كَاللَّيَالِ

* * *

ومما كتبتُ به أيضاً لرفيع جنابه، ومنيع بابه، في المعنى وقد شِمتُ
من بارق وعده مَخِيلَةَ القَبُولِ، ولحظتُ منه خَمِيلَةَ رَوْضِ مَطْلُولِ^(١) :

أَيُّهَا السَّعْدُ الَّذِي أَضْ	فَاكَ رَبِّي وَاصْطَفَاكَ
لُمُرَادِ اللَّهِ يَجْرِي	أَمْرُهُ طَوْعَ رِضَاكَ

(١) كيوان: هو كوكب زحل، وهو أعظم الكواكب الباردة وأبعدُها في النظام الشمسي.

(٢) في ب: بها.

(٣) من هنا حتى نهاية القصيدة التالية ساقط من ب.

(٤) المَطْلُول: الذي أصابه الطل (الندى).

دُورٌ قد صاراً يلاكاً ^(١)	وليه المقـدار والمقـد
نَ بحِظٍّ من عُلّاكـا	بالـذي شَرَّفَ كيـوا
حَـك يُجْريه اهتـداكـا	وأعـارَ المُشْـتَـري حِـدْ
غَمْدُهُ هَـامُ عِـداكـا	وانتَضَى المَرِيـخَ سَـيْفاً
مستـنيراً من ضياكـا	وكـا الشـمس رداً
نشره حُسن ثَنّاكـا	وحبـا الزُهْرَةَ خَلَقاً
لـاك سَهْماً من ذَكاكـا	ثم أعطى كاتِبَ الأَفْ
سَيِّـدي طال بَقّاكـا	أنجز الوعد لعبـد
مَـالَهُ إلّا رَجّاكـا	عَبـدُ رَقٍّ لَتَرَقَّ

ومما كتبت به أيضاً إلى الدوحة السعدية، والشجرة الطيبة الزكية،
وقد فرع^(٢) غصنها الشمسي سماء كيوان، حين تقلّد تدريس مدرسة أسما
خان^(٣)، وقد سَمَت به مدارس الروم وطالت، وزهرت^(٤) على شهب
النجوم واستنارت، مشيراً إلى تاريخ اتصاله بها، وقد كساها فضله^(٥)
ثوب البها:

شرفاً حَـمَاه السعدُ حارسُ	قد نلتِ يا خيرَ المدارس
من سنـاه الكون قَابِسُ	وأضاء في أرجاك نورُ
دمه معالِمك الدّوَارس	بمدرس أخيا بمقد

(١) ملاكا: أي تابعان له.

(٢) فرعه: طاله وعلاه.

(٣) مدرسة اسمها خان.

(٤) في ب: وزهت، ومعنى زهرت أي ابيض لونها وصفا وأشرق.

(٥) زيادة في ب.

بمحمّد شمس العلّو م وبدرها الزّاكي المقرّين
سَبَّاقُ غَايَاتِ الْعُلَا حَلَّالُ مُشْكَلَةِ الْهَوَاجِسِ
مِنْ دَوْحَةِ سَعْدِيَّةِ طُوبَى لَهُمَا فَرَعٌ بِجَانِسِ
دَرَسَ الْعُلُومَ مَعْقِبًا فِيهَا عَلَى السَّلَفِ الْأَحَامِسِ
فَلَكُمْ عَلَى السَّعْدَيْنِ أَوْ رَدَّ مِنْ مَبَاحِثِهِ النَّفَائِسِ
وَعَلَى الثَّرِيفِ مِنَ الْمَا خِذِ مِثْلَ أَبْكَارِ الْعَرَائِسِ
فَبِمِثْلِهَا وَبِمِثْلِهِ (١) شَرَفُ الْحَافِلِ وَالْمَجَالِسِ
مَوْلَى أَقَرَّ بِفَضْلِهِ كُلُّ فَمَا فِي الْقَوْمِ نَابِسِ
وَبِهِ لِأَسْمَا خَانَ فَخْذُ رُ فِي الْمَدْرَسِ وَالْمَدَارِسِ
فَالْمَوْلُويَّةِ خَلْعَةً وَعَلَيْهِ مِنْ أَسْنَى الْمَلَابِسِ
لِمَا أَفَادَ مُقَرَّرًا عِلْمَ الثَّرَائِعِ وَالنَّوَامِسِ
وَأَفَادَ فِيهَا مِنْ عُلُو م الدِّينِ مَا قَدْ كَانَ دَارِسِ
قَلَّتْ أَزْدَهِي بِقُدُومِهِ فَوَحَقَّ مِنْ أَحْيَى الرُّوَامِسِ
هَذَا الَّذِي تَارِيخُهُ مَلَأَ بِهِ شَرَفَ الْمَدَارِسِ (٢)

★ ★ ★

ومن ذلك أيضاً ما كتبت به إلى منيع حمّاه، صانها الله عن نوائب
الدهر وحمّاه (٣)، غرة ربيع الثاني سنة أربع وتسعين أو تسعمائة (٤) مهنئاً

(١) في ب: في مثله.

(٢) أي سنة ٩٩٤ على طريقة حباب الجمل.

(٣) في ب: وسماه.

(٤) في ب: سنة ٩٩٣ هكذا بالأرقام والاختلاف في السنة.

بالنوروز السلطاني، بلغه الله فيه الأمانى، مستجيزاً من أعتابه في السير
نحو الشام إرم ذات العماد، سقى الله عهداً^(١) صوب العهد:

ألاح لبرق الشام وهو مليحُ
سرى نحوه^(٢) سرى الخيال فهاجهُ
وذكره مرّاه بالشام ربّ ربّاً
بوادٍ عُلّاه ربوة وقراره
إلى ظلٍّ أخوى منه منبجسٍ غَدَتْ
يصلُ الحصى فيه صليلَ الحليّ في
وتخطو به الريحُ الشمالُ فتشني
بلادها كنا زماناً مع الصبا
فبدلتُ عنها^(٣) غيرها الارضى بها
دمشق فإن تغب ربّاك سوافح^(٤)
وإني لتعروني لذكراك هِرَّةٌ
حِمَاكِ مَغَانِي اللّهُ لا زال بالدُمى
سقاكَ أخوجفن السحاب ولا عداً

عشيّة وافى الروم وهو طليح^(٥)
إلى الربع وجدّ بارعٌ وسنيحُ
نسيمٌ بأكناف اللّوى وتريحُ
لجّينُ مياهٍ في البطاح تسيحُ
تعلُّ به الأرواحُ وهو صحيحُ
نُحور الغواني علَّهنَّ صَبوحُ
ومن جيبها المسك الفتيق^(٦) يفوحُ
نرود ونغدو في الهوى ونروحُ
وإني ومثلي بالديار شحيحُ
ستروي بدمع العين منك سفوحُ
كما اهتزّ من جنّ النشاط مروح^(٧)
فصيحاً ومغنى الغانيات فصيحُ
رُبّاك الحيّا حيث المرادُ فسيحُ

(١) في ب: عهد حماها.

(٢) الطليح: المهزول والمجهود.

(٣) في ب: سرى نحو.

(٤) الفتيق: الذي خلط به ما يزيد في رائحته، وفي ب: الفتوق.

(٥) في ب: منها.

(٦) في ب: سوانح.

(٧) جنّ النشاط: عنفوانه.

مَرَّادُ الْفَتَاةِ الرُّودُ (١) أَمَا قَوَامُهَا
تَعَلَّقَ مَهْوًى قُرْطِهَا الْقَلْبُ وَالْحَشَا
تَذَكَّرْتُهَا بِالرُّومِ وَالشَّامِ دَارَهَا
وَارْقَنِي بِالرُّومِ نُوْحَ حَمَامَةٍ
أَطَارَحُهَا وَالْعَيْنُ شَكْرَى بِأَثَائِهَا
وَنَاحَتْ وَفَرَاخَهَا بِجَيْثِ تَرَاهَا
وَعَامَانِ قَدْ مَرَّآ وَذَا الْعَامِ ثَالِثُ
عَسَى فَضْلُ سَعْدِ الدِّينِ يَعْطِفُ نَحْوَهُمْ
إِمَامُ الْهُدَى سَعْدُ الْبَرَايَا مَهْدَبُ
مَلَقْنِ ظُلِّ اللَّهِ مَظْهَرُ آيِهِ
مَرَادُ حِبَاهِ اللَّهِ مُلْكًا مَخْلَدًا
هُوَ الْمُظْهَرُ الذَّاتِ الَّتِي قَدْ تَحَجَّبَتْ
هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى لَدَى مَتَمَسِّكِ
فَإِنْ تَحَلُّ مِنْكَ الْعَيْنُ حَقًّا شَهْدَتُهُ
وَإِيَّاكَ سِرًّا غَامُضًا دُونَ كَشْفِهِ
وَقُلْ لَفَقَى يَبْغِي الْحَقِيقَةَ طَالِبًا
وَفِيكَ لِإِدْرَاكِ الْمَعَانِي تَشَوُّفُ
أَنْخِ بِجِمَى سَعْدٍ لَهُ السَّعْدُ خَادِمُ

فَخِيفُ وَأَمَّا نَهْضُهَا فَرَجِيحُ
فَذَا خَافِقُ مِنْ خَافِقِي وَجَرِيحُ
فَكَدَتْ بِمَكْتُومِ الْغَرَامِ أَبُوحُ
لَهَا رَنَةٌ رَأَدُ الضَّحَى وَصَدُوحُ (٢)
بَنُوْحٍ وَذُو اللَّبِّ الْغَرِيبِ يَنُوْحُ
وَمِنْ دُونَ أَفْرَاحِي مَهَامُهُ فَيَحُ
وَهُنَّ إِلَى ذَاكَ الْجَنَابِ جُنُوحُ
عَنَانِي وَقَصْدِي فِي عِلَافِهِ نَجِيحُ
السَّجَايَا لِأَنْوَاعِ الْعَطَاءِ نَفُوحُ
بِرَقَمٍ عَلَى نَفْسِ الذَّوَاتِ يَلُوحُ
وَعُمَرَا طَوِيلًا عَنْهُ يَقْصُرُ نُوْحُ
بِمَجْلَى صِفَاتٍ فِي حُلَاةٍ وَضُوحُ
هُوَ السِّرُّ فَافْهَمْ مَا إِلَيْهِ أُتِيحُ
وَأَيَقُنْتَ أَنَّ الرَّمْزَ مِنْهُ صَرِيحُ
صَوَارِمِ شَرْعٍ لِلدَّمَاءِ تُبِيحُ
إِذَا كُنْتَ ذَا رُشْدٍ وَفِيهِ رَبِيحُ
وَعَزْمٌ إِلَى نَيْلِ الْعِلَافِ طُمُوحُ
وَعِبَادُهَا بِدَرِّ الْمَاءِ وَيُوحُ (٣)

(١) في ب: فراد مهات الرود.

(٢) رَأَدُ الضَّحَى: أي حين تَبْطِطُ شَمْسُهُ وَيَرْتَفِعُ نَهَارُهُ، وَهَذَا الْبَيْتُ وَالْبَيْتَانِ بَعْدَهُ.

(٣) يُوْح: اسم للشمس.

هناك تَلَقَى المجد مُلقِي رِوَاةُ
ويلقاك منه بالكارم والعلی
ألا أيها السعدُ الرفیعُ منازلًا
أرى الغرَّ من شَوسِ القَوافي مطيعةً
وقد قادها قبلي لبابك معشرُ
وما عَرَفُوا أن القريضَ لذي النُّهى (٣)
فخذ منه حُسَّانَ المدائح غادةً
لواستاف (٤) منها الثغر مهيارَ باسمًا
غرائبُ مدح في عُلاك تَنْظَمَتْ
على صفحات الدهر يبقى مَخْلَدُ
تهنّيك بالنوروز والعیدُ بعدهُ
ترقّت إلى الشّعري عن الشعرِ رُفْعَةً (٥)
فعبدُك في طامي عُبَابِك طامعُ
ليثني عنان السیر نحو دياره
ودُم في سماء المُلک سعداً مُرادُه
ولا زلتَ في أفق الخلافة سَعْدَها

له غرَّر من رأيه ووضوحُ
مُحَيًّا به وجهُ العطاء صَبُوحُ (١)
وأنواره في الخافقين تَلُوحُ
متى رُمْتُ مدحاً فيك وهي جُمُوحُ
وكلُّ بما أثنى عليك مشيحُ (٢)
ضروب فمنها ناقصُ رجيحُ
على عطفها ماء النسيب يسحُ
غدا ثَمِلاً والدارُ منه طَرُوحُ
غرائبُ فيها للمديح مديحُ
الثناء وقد ضم الأنام صفيحُ
يعودُ بما تحتاره ويروحُ
رجاء تَرَقَّى والرجاءُ صحيحُ
وإن يك ذا ذنبٍ فأنْتَ صَفُوحُ
فقد طال منه غُرْبَةٌ ونُزُوحُ
يُشير بما تحتاره ويُليحُ
لك الدهرُ عبدٌ خادِمٌ ومسيحُ (٦)

(١) في ب: صبح.

(٢) المشيح: الجاد.

(٣) في ب: وما علموا أن القريض لذي.

(٤) استاف: شم، وفي ب: اشتاف.

(٥) في ب: رقة.

(٦) السّيح: الملاين في قوله، والمطيع في فعله.

قصيدة بديعة طالباً ترقى المدرسة والانفصال

ومن أبدع ما كتبت به أيضاً لأعتاب سُدَّيْهِ الشاخنة، وأبواب ساحته
الباذخة، لا برحت قبلة الآمال وكعبة الآمال، طالباً إنجاز وعد طال،
من ترقى المدرسة والانفصال، وذلك في رمضان سنة ٩٩٤:

وفت إذ لَوْتُ بالوعد يوم لوى الرَّمْل	ومن عهدا لي المواعيدُ بالمَطْل
مَهًا من بُروج البدر لاحت ودَارُهَا	على المنحنى من ذي الأراكة فالأَثْل
عذابُ الثنايا من كواعبِ غادةٍ	حِسانُ التشنِّي قد ثلن من الدَلْ
كواعبُ إلا أَنَّهُنَّ كواكِبُ	سمت في سماءِ الحُسن عن سَمَةِ ^(١) المثل
كست حَبْر الوشي البديع معاً طِفْأً	سقاها الشَّبَابُ الرُّوقَ سَجْلاً على سَجْلٍ
وَقَلَّدَتْ الأجيادُ ما في ثغورها	تَقَلَّدَ أجيادِ الرُّبَا لؤلؤَ الطَّلِّ

وباتت على الجرعاء من أمين الحمى

حمى القلب ترعى لاحمى البان والرمل

ألا ربعت في دارها أربعية^(٢) سماكية الأنواء دائمة الهطل

من الضحك اللاقي يُضاحِكُ وذَقَّها^(٣)

ثغورَ الأقاحي في الرياض بمنهل

فتعطف ليت الرند نجو عرَّاره ويرنوها الحوذان عن أعين شُهْل^(٤)

(١) في ب: غمة.

(٢) الأربعة: المطرة في الربيع.

(٣) الضحك: السحابة تَلَأَّتْ وبرقت، والودق: السماء تنظر.

(٤) اللبت: صفحة العنق والرند: العود أو الآس أو هو شجر طيب الرائحة ينبت على سواحل الشام، والحوذان: نبات عشبي من ذوات الفلقتين منه أنواع تزرع لزهرها وأنواع تنبت برية.

تجدد من تلك الرسوم معاهداً
وأحورَ وُسنانَ الجفون إذا رنا
خليلي أقم بي في الديار لعلنا
أقم علها أن تُرجع القول أو على
فإن تَقِفَنَّ من أجل نفسك ساعةً
فربَّ فتاةٍ من مَهابةٍ بُدورها
وأجلت لنا عن أقحوان مفلجٍ
من الغيدِ بيضاءِ الترائبِ طفلة
وصالي يبذل النفس إن كنت طامعاً
فقلت لها والعينُ شكرى بمائها
فديتُك يا نفسي بملكي وإنها
إمامُ الهدى بحر الندى قامعُ العدا
هو العالمُ الطُّهرُ الذي يمينه
هو المجتلي سِرَّ الخليقة والذي
هو المظهرُ النورَ الذي ظهرت به

عهدتُ بها حُسانةً الجيد والشكلِ
أداركؤوس الراح بالحدق النُّجَلِ
نسائلُ مغناها عن الرِّشأِ الطِّفل (١)
أخلفُ فيها بعض ما بي من الخبلِ
فقَفَّها على تلك المعالم من أجلي
تجلَّت بداجي ليلِ فرعٍ لها جَنَلِ (٢)
يرود بعلُّ المسك في واضح رَتَلِ (٣)
وقالت قتيلي في الغرام بلا ذَحَلِ (٤)
وإلا الثريا منك أقربُ من وصلي
وفي القلبِ نارَ حرّاً برديها (٥) يغلي
تملَّكها سعدُ البرية من قبلي
حليفُ الندى لا يفتُرُ الدهرَ عن بذلِ
تَقَسَّم ما في العالمين من الفضلِ
رَوَيْتُهُ رمزَ الحقيقةِ تَسْتَجلي
هو المظهرُ النورَ الذي ظهرت به

حقائقُ ما يلقي من الجنس والفصل (٦)

هو المصدرُ الأحكامَ والحكمةَ التي تُرينا طريقَ الحقِّ واضحة السُّبُلِ

(١) الطِّفل: الرخص الناعم الرقيق.

(٢) الجَنَل: الطويل الملتف.

(٣) الرَتَل: بياض الاسنان وجمالها، والطيب من كل شيء.

(٤) الذَحَل: الثأر.

(٥) في ب: برده.

(٦) في ب: الحبس والفصل.

هو الفائض الأنوار والعلم الذي
ملقن ظل الله اسرار غيبه
مراد مريد الحق لا زال ملكه
فوجدان سعد الدين في مثل عصره
تبارك من أولاه رأياً^(١) مسدداً
ولولاك يا سعد البرايا لما غدا
وهذا يراع في يمينك دونه
وما الملك إلا غادة بك شكلها
ألا أيها السعد الذي سار ذكره
ومن دارت الأفلاك طوع مراده
لبابك جاءت بالمديح كأنما
إلى الشعر لا تغزى بوصفك بل غدت
تحامي فحول الشعر وزن عروضها
لها نسبة في طيئ غير أنها

نشت بين روض الشام في ذارف الطل^(٥)
رقية صفو الطبع إن هي لوينت وإن خوشنت فالحد من نابها يفي^(٦)

(١) في ب: سعداً.

(٢) المتحصد: المتشد الحكم، وفي ب: متحصب.

(٣) الأسل الذبل: الرماح الدقيقة.

(٤) القبل: المقابلة.

(٥) في ب: وارق الظل.

(٦) يفي: يقطع.

وكم مثلها بالروم لي خلت أنها
دعاها إليك العلم والحلم والحجى
أنت تمتري من جود راحتك الفنى
ولم يُبقِ منها صبرها غير مهجة
فمالك لا تختصها بشفاعه
فوالله ليست دون ما حاك وشيئه
وأنت امرؤ من فضلك الفضل والذي
وحاشاك مثل القطر في البلد المحل
وما ترتجي من صوب نائلك الجزل
وتستنزل النعمى لديك بلا مهل
معلقة^(١) بين المواعيد والمطل
وأمر كالمقدار ينفذ في الكل
صريح الغواني سلم^(٢) من حل الفضل
يشك كمن قد شك في الله والرسل

رد على مكاتبة من مولاي أحمد الشريف الحسني

ووردت إلى أعتابه السعيدة السعدية، مكاتبة شريفة شريفية^(٣) من
مقام مولاي أحمد الشريف الحسني عبد الله^(٤)، دامت عليه نعم الإله،

(١) في ب: معلقة.

(٢) في ب: في بدل من.

(٣) في ب: شرعية من مقام.

(٤) أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس المنصور، ابن الخليفة المهدي القائم بأمر الله
الشريف الحسني، سلطان المغرب.

اشتغل في أول أمره بالعلم وعزف عن الحكم، فتولّى ابن أخيه الملك، ولكنه وصل إلى علم
المنصور أنه ينتوي قتل أعمامه، فبادر إلى حربه وهزيمته، ثم تولى ملك المغرب وبقي فيه ثمانية
وعشرين عاماً، حتى توفي سنة اثنتي عشرة بعد الألف.

وكان سلطاناً عظيم القدر، حسن التدبير، وطد علاقته ببلاطين بني عثمان، وكان إلى
جانب ذلك أديباً له شعر جيد.

انظر ريجانة الألبا ٢٨٩/١، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٨٩/٢، خلاصة
الأثر ٢٢٢/١.

فأمرني بكتابة الجواب عن حضرته السنية، فامتثلت مصدراً بهذه
السينية:

ربّع الغمامِ على مَرابِعِ فاسِ	دارَ العلومِ ومَعْلَمِ الإيناسِ
ماوى السَّيادةِ حيثُ أنوارُ الهدى	تُفني عن المشكاة والنُّبراسِ
حيثُ استقرَّ المُلْكُ يحمي بيضةَ الـ	إسلامِ منه بالنَّدَى والبَّاسِ
فرعُ غنا من هاشمٍ في تُربةٍ	كان الكَفِيُّ لها من الأغراسِ
في ذروة الشَّرَفِ الذي ما فوقه	شرفٌ لمعتبرٍ يُرى في الناسِ
ولقد بعثتُ مع الرسولِ تحيةً	لجنابه مِنكِيةَ الأنفاسِ
لِتَذَكَّرَ العهدَ القديمَ وإن يكنْ	لم ينسَ منه تصرُّفَ الأحراسِ
عهدٌ كأَيَّامِ الصُّبا حيثُ الصُّبا	غَضُّ كصفو الراحِ وسَطَ الكاسِ
نورُ العُرارةِ نوره ونسيمُهُ	نَشْرُ الحُزَامى في اخضرارِ الآسِ

إلى شيخ الإسلام جوى زاده
مغرياً بعزل حاكم دمشق

ومما كتبت به في الديار الرومية عام أربع وتسعين وتسعمائة لحضرة
شيخ الإسلام مفتي الأنام محمد أفندي جوى زاده^(١)، زاد الله من
الفضائل والتقى زاده، مشيراً لوفاة العلامة النبيل، شيخ الشافعية

(١) سبقت ترجمته.

بدمشق الشام إسماعيل^(١)، ومغرباً لجنابه على عزل حاكمها وقصة
القاجي^(٢) وهي مشهورة:

أيها المولى تلّفت للشام	بأيّ الجنة والبيت الحرام
واعطفن نحو حماها نظرة	تشفيها مما اعتراها من سقام
شم لها مرهف عزم طال ما	كان من قبل لها والله حام
اطعم الموت الزؤام القاجي	وسقى سقاءه كأس الحيام
فابن علوان ^(٣) علا في أرضها	وابن بستان رعى رعي السوام
زاد في النقص بها منقوصها	قدوة الفاقة بل شيخ العوام
وغدا المقصور في شيعته	يقتدي لا بإمام بل إمام ^(٤)
فإليكم وإلى الله أتت	تشتكي الحال بعبرات سجام
تسأل المولى أماناً منها	ومن المولى لها نبح المرام
قد كفى ما حلها من حادث	هدد والله له ركناً شام ^(٥)
فقد إسماعيل مفتي قطرها	الإمام الحبر والبرّ الهمام

(١) هو إسماعيل بن أحمد بن الحاج إبراهيم النابلي الشافعي، شيخ الإسلام أستاذ العصر
ومفرد الوقت، تصدر للإفتاء والتدريس وصار إليه المرجع بعد شيخ الإسلام والده.
درس في عدد من مدارس دمشق وجوامعها الشهيرة، وكانت دروسه حافلة لصفاء ذهنه
وطلاقة لسانه وحن تقريره.

ولد سنة ٩٣٧ هـ وتوفي عام ٩٩٣ هـ هكذا ذكر في شذرات الذهب ٨/٤٣٠ مخالفاً لما هنا من
أنه توفي بعد ذلك سنة ٩٩٤ هـ.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) كان أبوه شيخ الصوفية في دمشق، انظر شذرات الذهب ٨/٤٤٢، وأما ابن بستان فقد
سبقت ترجمته.

(٤) وضع أمام هذه الكلمة في الهامش كلمة إمام أي أنها الكلمة المقصودة ووضعت كلمة امام
لضرورة الشعر.

(٥) شام كحباب: جبل.

شيخ أشياخ دمشق جاده سبل الأنواء موصول الرهام
وأدام الله مولانا لنا ركن مجد دائم حتى القيام

إلى محمد الأمين بصدد وشاية دنيئة

ومما كتبت أيضاً بالديار الرومية، مقر السلطنة السنية أواخر شوال
سنة ٩٩٤ إلى حضرة الأخ المكين، محمد الأمين، وقد نقل له بعض من
اتسم بسمة الرفاق وهو ممن مرّد في صورة الوفاق على النفاق، وشاية
تكدّر لها^(١) خاطره عن صفوه، وتردد بين إثباتها وصفحة محوه:

إذا مرضت نفسي فأنتم أساتها	وإن ظمئت يوماً فأنتم فرأتها
لها منكم الودّ الذي سار ذكره	وحدّث عنه الركب تحذو حدّاتها
فما خبرٌ قد زخرفته عصابة	تقوله عني الغداة غواتها
يرومون أن أسلو هواكم بجهلهم	وهيهات أن تسلو النفوس حياتها
لئن نقل الأقوام عني جناية	لهم والإمام الحقّ حقّاً جنايتها
وما شتم الإنسان إلا مبلغ	أفاعي قولٍ ظلّ فيها رقاتها
إذا نبأ من فاسقٍ جاء بفتة	تبين له فالنفس زين تقايتها
ابعد ولائي أصبح اليوم ناصبا ^(٢)	فيا خطة قد حار فيها هدايتها
وما هذه إلا أفيكة مضطح ^(٣)	وشى وشرار الناس عندي وشاتها

(١) في ب: وشاة تكدر له.

(٢) الناصب: العدو، والنواصب: هم الذين نصبوا لعلي رضي الله عنه أي عادوه.

(٣) هو مضطح أو مضطح بن أئمة صاحب قصة الإفك على عائشة رضي الله عنها والتي ورد ذكرها في سورة النور من القرآن الكريم.

هُمْ نَقَلُوا عَنِّي الَّذِي لَمْ أَقُفْ بِهِ وَمَا آفَةُ الْأَخْبَارِ إِلَّا رَوَاتُهَا

قصيدة طائية نظمها اقتراح محمد بن بستان

ومن ذلك ما كتبت به بالديار الرومية، مقر السلطنة السنية، لجناب
المولى الأستاذ محمد أفندي بن بستان^(٣)، أبقاه الله ما تعاقب الجديدان،
وقد فصل من قضاء مصر القاهرية، ونزل باسكندرية بدولته الباهرة،
أول عيد الأضحى سنة ٩٩٣، فأنشدني من لفظه للأستاذ الشيخ محمد
البكري الصديقي^(٤) أبياتاً على حرف الطاء وأمرني أن أخذو مثالها،
وأنسج على منوالها، فامتثلت أمره العالي، مقتصراً من مدحه بما ينجل
درر اللآلي، مع وعورة مسلك هذا الحرف، الذي تحاماه أهل الظرف:

(٣) سبقته ترجمته.

(٤) هو محمد بن محمد أبي السرور البكري الصديقي المصري زين الدين، مؤرخ من أهل القاهرة
وبها توفي سنة ١٠٢٨ هـ، من مؤلفاته: المنح الرحانية في الدولة العثمانية، وفيض المنان بذكر
دولة آل عثمان، انظر الأعلام ٢٩١/٧ وانظر هاشم فهو يرجح أنه هو نفسه زين العابدين
محمد بن محمد أبو السرور البكري، وهو من الأئمة في التفسير والافتاء وكان أول من لقب بمفتي
السلطنة في الديار المصرية وقد توفي سنة ١٠٠٧ هـ.

والواقع أن الخلط في أسماء هذه الأسرة كبير فهي أسرة معظم رجالها علماء، كما أن جل
أسمائهم محمد وهم من سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإليه نسبتهم ولم يكتفوا بغير
باسم بيت الصديق أورد فيه تراجمهم.

هذا وقد أورد المحي في خلاصة الأثر ١٩٦/٢ من اسمه زين العابدين بن محمد بن علي
البكري الصديقي، وذكر أنه عالم بالتفسير والعربية والبلاغة وله شعر، وقد توفي سنة
١٠١٣ هـ وما نحن نرى أنه يمكن أن يكون نفس الشخص السابق وقد ورد بكنيته لا باسمه،
فليتأمل.

يَحْنُ عَلَى بُعْدِ الْمَازِ وَإِنْ شَطَاً
وَيَشْتَاقُ مَعْنَى فِيهِ حُسَانَةُ الْهَوَى
مَنْ الرَّبِّبِ الْإِنْسِي فِي مَرْبَعِ الصَّبَا
كَوَاعِبُ إِلَّا أَنَّهُنَّ كَوَاكِبُ
لَهَا بَشَرُ الدَّرِّ الَّذِي قَلَّدَتْ بِهِ
تَعَلَّقَ مَهْوَى قُرْطِهَا الْقَلْبُ خَافَقًا
مَعْنَى يَأْرُضُ الرُّومُ قَدْ فَارَقَ الْهَوَى

وَشَرَحَ الصَّبَا وَالْأَهْلَ وَالْدَارَ وَالرَّمْطَا (٢)
بِأَحْشَائِهِ نَارُ الْغَرَامِ كَأَنَّمَا
أَسِيرٌ يَعْانِي سَوْرَةَ الزَّمَنِ الَّذِي
إِذَا شَامَ بَرَقَ الشَّامُ سَاقَطَ لَوْلَا
هِيَ الْغَرَضُ الْأَقْصَى وَرُؤَيْتَهَا الْمُنَى
بِلَادٍ إِذَا مَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ تَنْثَنِي

وَقَدْ حَمَلْتُ عَنْ رَوْضِهَا الْعُودَ وَالْقُسْطَا (٤)
سَقَاهَا وَحْيَاهَا الْإِلَهُ مَعَاهِدًا
وَحَصَّ بِهَا الْوَادِي الْمُقَدَّسَ شَاطِئًا
مَعَاهِدُ آرَابِي وَمَرْبِي مَارِي
سَحَابَ دُنُوِّ الْعَهْدِ إِنْ غَيْثُهَا أَبْطَا
وَجَانِبَهُ الْغَرْبِيُّ وَالرَّبْوَةُ الْوَسْطَى
وَأَوْطَانُ أَوْطَارٍ غَدَّتْ لِلْهَوَى شَرْطَا

(١) الأرضى: شجر ثمره كالغراب مرة تأكلها الإبل غضة وعروقه حمر، الواحدة أرضاة.
(٢) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به وتلتفع به المرأة.
(٣) الرمط: مجتمع الشجر من العرطف وهو نوع من الغضاء أي شجر الشوك.
(٤) القسط بضم القاف: عود هندي وعربي نافع للكبد والمغص شرباً، وللزكام والنزلات بخوراً، ولللهق والكلف طلاء.

فلي بين هاتيك المعاهد جُودُ

جَمَى القلب يرعى لا الكتيب ولا والسَّقَطُ (١)

أرودُ بعيني ورد خديهِ والذي جنى لحظه وردَ الحدود فما أخطأ
وأرشف بالأحاطِ خرة ريقه فإني فتى آليت لا ذقتُ إسْفَطًا (٢)
توهم ذاك الصدغ نوناً بجده فراح بمسك الحال ينقطه نقطاً
وحسنه لام العذار كأنه بباع ابن بُستانٍ أجدَّ به خطاً
فتى حكمه حكم الفتاة بنظرة كما أنه في علمه إصاحبُ الأنطأ
أُمات رياح الجهل وهي عواصفُ وأحيى رباع الفضل بالبذل والإعطا
إمام هدى يدعو إلى الله أمة من الناس لولا رأيه خلطتُ خلطاً
هو العروة الوثقى لنا ويمينه هي الركن فيهاشهد القبض والبسطا

له رتبٌ في الفضل تسقط دونها

الأماني حَصْرِي تشتكي الأين والسُّخْطَا

أفاد المعالي واستفادت به النهى طرائقُ آدابٍ لها سنٌّ واختطَّا
فلا مجدَ للأقوام إلا بمجده ومن لم يسلم عن رضى فليمت سُخْطَا
ولما تمت مصرٌ موطىء نعلهِ ومدت له فسطاطها علَّ أن يُوطَا
ثني نحوها عطف العنان فجاءهُ مجيءُ ابنِ عمرانٍ ولم يخفِ القبطَا
رأى هَرَمَاهَا فضله فتقاعا وكاداله من بعد رامة (٣) ينحطَّا
فوافي حماها يوسفًا وغدت به معالمها لا تشتكي الجذب والقحطَا

(١) السقط مثله السين: حيث انقطاع الرمل ورتته.

(٢) الإسْفَط بالكسر وتفتح الفاء: المطيب من عصير العنب أو أعلى الخمر سميت بذلك لأن الدنان تسفطتها: أي تشربت أكثرها، أو من السفيط للمطيب للنفس.

(٣) رامة: هضبة أو جبل لبني دارم.

وأصبحت الأرجاء منها نواضراً
وأجلى بنور العدل ظلمة ظلمها
عجبتُ ليمناه وفيها يراعةً
وأعجب من ذا أنها بيمينه
فطوبى لمصرٍ ثم طوبى لأهلها
إذا غاض ماء النيل يوماً أفاض من
وإذا نبع العشراتين جرت بها
أقام وكان العدلُ شرطَ إقامةٍ
وفارق مغناها الخصبَ فأصبحتُ
وسار مسير البدر يطوي منازلًا
ثوى فيهم كالشمس يُعطي ضياءه
ترفع عن عالي الصدارة قدره
وراد جمّام الطبع من كدّ منصبٍ
فيا أيها المولى الذي كلُّ منصبٍ

كأن رياض الحزن أهدت لها ربطاً^(١)
وجلّى غمام الجور عنها وقد غطّا
ولم يلحقها كيف انحنت حية رقطا
غدت لأفاعي الظلم تلهمها سَرطاً^(٢)
بهذي إمامٍ قد ملا قطرها قسّطا
يديه بحارّ الجود ينبطها نبطاً
عيونٌ تُسقي كلّ واحدة سَبطاً^(٣)
بها فانشنى عنها وقد أكمل الشرطا
معالمها من بعده تُكثر النخطا^(٤)
إلى الرُّوم حتى حلّ في أهلها عَمَطاً^(٥)
وليس كمثّل البدر يأخذ ما أعطى
ومن قبلُ قد نيّطت بأذياله نوطاً
فطنَ جهولٌ أن ذلك عن أُرطاً^(٦)
غدا وهو عالٍ دون قدرك مُنحَطّاً

(١) الریط: الملاة كلها نسج واحد وقطعة واحدة.

(٢) السرط: البلع في سهولة ويسر.

(٣) العشر اثنتان: يقصد بها الاثنتي عشرة عيناً التي وردت في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً»، والبط من اليهود كالقبيلة من العرب.

(٤) النخط: الزفر من النيط، أو تردد صوت البكاء في الصدر.

(٥) عمت: أي جاء سابقاً بعدما سبق أولاً.

(٦) جمّام الطبع: راحته، والأرطى: العقم.

إليك أتت طائفة في نسيبها قوافٍ تفوق السحر لا تعرف الايطا^(١)
لو اجتزئ بالطائي قَدْماً قضي لها بسقي وقال الطاء من بعد لا تُوطأ
عجبت لها بالروم ما برحت وقد أقام لي البكري في وزنها قسماً
وشام بنور الكشف من مصر برقها فحدث عنها مُشداً من قوافي الطأ
سقى قبره الروض الأريض سحائب تدلُّ على أرجاء ساحتها سقْطاً
فدونكها يا عالم العصر عادة

نشئت بين روض الشام في وارث الألط^(٢)

هي المركب الصعب المرام وإن غدت ذلولاً ولكن لا تكل من استمطى
نثرت عليها من مدحك لؤلؤاً فأهوت دراري الأفق تلقطها لقطاً
وناطت على الجوزاء منه مناطقا وصاغت لأذان الثريا به قرطاً
تمتع بها عذراء تسطو بمقلة لها إن رنت فعل الصوارم بل أسطى
ودم لبني الآداب ركن هداية إذا ما عدا الدهر الحثون أو اشتطأ
مدى الدهر ما اشتاق الغريب إلى الحمى
وحنَّ على بُعد المزار وان شطأ

★ ★ ★

(١) الإيطاء في الشعر: تكرار القافية لفظاً ومعنى، وهو عيب في الشعر إلا أن تتكرر الكلمة بعد أربعة أبيات على الأقل.
(٢) وارث الألط: أي الطري من المك.

يطلب منصب الدرس من ابن بستان

وما كتبت به أيضاً إلى جناب الدوحة البستانية، والشجرة الطيبة
الزكية العلامة، وقد ولى قضاء العساكر الروم ايلية، راجياً منصب
الدرس من كرمه الجسيم، ولطفه الشامل العميم، وذلك في غرة شهر
رمضان المعظم سنة ٩٩٤:

ذكر العقيقَ فسالَ من أجفانه	واشتفَه وجدُّ إلى سُكَّانه
واشتمَّ في ريح الصبا أرجَ الصَّبا	فصبا حَلِيفَ جوى إلى أوطانه
وشجَّاه مسجورُ الفؤاد إلى الحِمى	ورُقَّ سواجعُ هِجْن من أشجانه
تروى عن الورقِ الغرامَ وطال ما	درستُ فنونَ العِشق في أفانه
فيهنَّ سالة الحشا من لوعةٍ	لم تدر طعم الوصل من هِجرانه
تسمي وتُصبح في ارائك أيكَة	معُ إلفها والعمرُ في ريعانه
ترتادُ روض الشام أخصب منزلٍ	حيثُ العرارُ صفى إلى حوْذانه ^(١)
حيثُ المعالم مشرقاتٌ بالدمى	والغانياتُ يطفن حول مغانه
في ظل منبجس اللُّجن جرى به	ذهبُ الأصيل يسيلُ من قيعانه
ألمى الظلال كأن سمرته لَمَى	عذب المرافش ندَّ عن غُزلانه
بيننا تراود فيه من عذب إلى	عذب يفوق على العُذيب وبانه
في صفو عيش إذ رمتها نية	للرُّوم فاخْتها بسود رعانه ^(٢)

(١) العرار: زهر طيب الريح ينبت أيام الربيع، والحوذان نبات عشي من ذوات الفلقتين،
منه أنواع تزرع لزهرها وأخرى تنبت برية.

(٢) النية: الحاجة، والفاخنة: ضرب من الحمام المطوق إذا مشى توسع في مشيه وباعد بين
جناحيه وتمايل، والرعان: جمع رعن وهو أنف يتقدم الجبل، أو الجبل الطويل.

هبطت بها الأقدار أرضاً لم يكن
سوداء مظلمة الفضاء كأنها
فعدت تنوح على الديار بمدمع
ماسورة القلب المعنى من جوى
تبكي إذا ذكر الحمى حيث الحمى
تنفك تنثر لؤلؤاً من مدمع
حتى ترى روض الحمى أو تجتلي
قاضي العساكر من تبوأ منزلاً
المعتلي شرف العلا ببيانهِ
ذو غاية في المجد رام بلوغها الـ
سبقتهُ فاستعدى علينا طاوياً
لله مولى هام همته سماء
مولى تردى الفضل أبهى حلة
ظل الحياء لو يقابل نوره
وإذا دجى ليل الخطوب فرأيه
ماضي العزائم خير مولى أمه
في ثني بُرديه إمام تقى وفي
هو من علمت فدغ سواه ومن يرد
بجر لنا من راحتيه جداول
متبسم يوم الندى لعفاته

(١) الرملان: المرولة.

فيها نزول الوحي من فرقانه
قلب الحسود عليه ظلمة رانه
سح يُباري الغيث في تهتانه
مسجورة الأحشاء من نيرانهِ
روض تفرّد في ذرى أغصانه
كالدّر يُنظم في سموط جُانه
روض ابن بستان إمام زمانهِ
تُسمي النجوم الزهر من أقدانه
المجتلي سرّ القضا بعيانه
فلّك المحيطُ فجّد في دورانه
لصحائف الأعمال في سرعانه
هام السّاك فحلّ فوق مكانهِ
توشيعُها المعروف من إحسانهِ
بدر الدجى لهماه عن نقصانه
فيها كضوء الشمس في لَمَعانه
ركب بجوب البید في رملانه (١)
حقويه رضى بآن بعد إبانهِ
بجر المكارم صدّ عن غُدرانه
طفحت فالت من ميل بنانه
كالروض ضاحكه ندى هتانه

ما رَدَّ يوماً سائلاً وله سَطَى
 راوي حديث العلم عن نُعْمَانِهِ
 العالم الطهر الذي ظهرت له
 وجلا صدا الألوان عن مرآته
 فأتى على عين اليَقِينِ وقد مَضَى
 صَبَّ الإِلَهُ سَحَابَ رَحْمَتِهِ عَلَى
 حتى يعودَ ثراه أنْضَرَ رَوْضَةَ
 وغدت تحايا الرب كل عَشِيَةٍ
 فبحقه ربا عليك ووالدا
 ألا نظرتَ لعبد بابك راحما
 عطفاً عليه بمنصب يسمو به
 فلقد شجاه جاهل في درسه
 حاشا لما حَرَسَتْهُ كَفُّ نَدَاكَ أَنْ
 ولمثل فيضك^(٢) أن يؤخر ساعة
 واستجلها عريَّةً أوطانها
 قلدتها دُرَّ المَدَائِحِ لَوْلُؤَا
 وكسوتها وشيَ الثناء محبِّراً
 وابسط لها كَفَّ الرَّجَا وأقم لها

باس تردُّ الدهر عن حَدَثَانِهِ
 حاوي فنون الفضل من بستانِهِ
 كشفاً شُؤُونِ الْحَقِّ فِي أَعْيَانِهِ
 ورأى وُجُودَ الْحَقِّ فِي سَرَيَانِهِ
 والقومُ فيهمُ غَفْلَةٌ عَنْ شَانِهِ
 ذاكَ الصَّرِيحَ وحاضِرِي جِيرَانِهِ
 فيها جِمْ النبت من رِيحَانِهِ
 تُهْدِي إِلَيْهِ عَلَى يَدِي رِضْوَانِهِ
 وبحق ما ترعاه من رِضْوَانِهِ^(١)
 فالدهرُ جارٌ عليه في عُدَاوَنِهِ
 بين الأنام ومزه عن أقرَانِهِ
 يرقى وربُّ الفضل في حرمانِهِ
 يَذْوِي وفيضُ نَدَاكَ فِي جَرَيَانِهِ
 عنه وهذا الوقتُ وقت أَوَانِهِ
 شِغْبُ الْغَوِيرِ^(٣) وملتقى كُتْبَانِهِ
 رَطْبًا يكاد يفوقُ دَرْعَمَانِهِ
 بُرْدًا يفوحُ المسك من أَرْدَانِهِ
 بالروم وزناً تَعْلُ في ميزَانِهِ

(١) البيت ساقط في ب.

(٢) في ب: فضلك.

(٣) الغوير: ماء لبني كلب بأرض السماوة بين العراق والشام. معجم البلدان ٨٢٧.

فالشعر عند القوم حاشا سيدي لا فرقَ بين هجينه وهيجانه^(١)
واسلم ودُم في نعمة محسودة طولَ المدى والعيشُ في رِيانه
وبَنُوكَ أقمارُ الفضائل ما سرى برقُ فهاج الصَّب في لمعانه

★ ★ ★

البائية التي نظمها في تقريظ العلوي وفي مناقب السلطنة المرادخانية

ومما نظمته وأنا بالديار الشامية، دمشق الحمية عام ٩٩٧ تقريظاً
لنظم الأديب الفاضل جمال الدين يوسف العلوي^(٢)، وهي البائية^(٣)
التي نظمتمها في مناقب السلطنة المرادخانية، لا زالت مؤيدة بالقدرة
الصمدانية:

صيرت بدرَ النظم بعدك غارِباً لما امتطيت من البلاغة غارِباً^(٤)
وعلوت صهوتَه بثاقبِ فكرةٍ نظمت لك الزُّهر النُّجومَ كواكِباً
من كل ساحرةٍ اللحاظِ إذا رنتُ سلَّت عليك من الجُفون قواضِباً

(١) المهجين: اللبن ليس بصريح ولا لباً واللُّبأ هو أول اللبن عند الولادة قبل أن يرق، ولا يكون محبوباً وقت ذلك، والمهجين أيضاً: اللثيم.
أما المهجان من الأشياء فهي أجودها وأكرمها أصلاً.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) في ب: الثانية.

(٤) الغارب: السنام.

من ريم وَجَرَه أو شوارد رامية
 غيدٌ توشَّحت المعاني حُلَّةً
 وسمت إلى الجوزاء فاستلبت حلى
 ومشت فأزرت بالقضيب رشاقة
 يا حسنَهَا عريبةً لو ساجلتُ
 أو طارحتُ قُسَّ الفصاحة لفظها
 أو شام بارقَ ثغرها غيلانُ لم
 فيها رقيقُ اللفظ والمعنى معاً
 إن فاخرتُ يوماً بحسن نظاميها
 فيما حوته من الفخار بمدح من
 ظلُّ الإله مرادٌ من خضعتُ له
 ملكٌ سنان قناتِهِ وبنانه
 ذو سَطوة في الخافقين وعزْمة

ألفتُ حياك رَبَّارِباً وربائباً^(١)
 وتسربلتُ وشي الربيع سبائباً^(٢)
 ذاك النظام وقلدته ترائباً
 والظبي لحظاً والغزالة حاجباً
 سَحْبَان راح لذيلِ عِيٍّ ساجباً
 ما قام يوماً في عكاظٍ خاطباً
 يربغُ على أطلال مَيَّة نادباً^(٣)
 كالراح بالماء القراح تناسباً
 شُهَبَ النجوم طوالِماً وغوارباً
 بهرَ الملوك مَقَانِباً ومَنَاقِباً^(٤)
 هامُ الملوك مشارقاً ومغارباً
 يتباريان دماً وعُرفاً سَاكِباً
 منها زعيمُ الفُرس ولَى هارباً

-
- (١) وجرة بلدة على جادة البصرة إلى مكة منها يحرم أكثر الحاج، وهي سرّة نجد: ستون ميلاً لا تخلو من شجر ومرعى ومياه، والوحش فيها كثير. معجم البلدان ٦٠٦/٤.
 ورامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة ومنه إلى إمرة، وهي آخر بلاد بني تميم وبين رامة والبصرة اثنتا عشرة مرحلة. معجم البلدان ٧٣٨/٢.
 والربارب جمع ربرب وهو القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والإنسي، والربائب جمع ربيبة وهو ما يتولى الإنسان تمهده وتغذيته بما ينمي ويؤدبه.
 (٢) في ب: توحشت بدل توشحت، والسبائب جمع سب وهو الثوب الرقيق.
 (٣) هو غيلان بن عقبة الشاعر الأموي المعروف بذي الرمة، والذي كان يحب مية ويشبب بها في شعره، وقد طبع ديوانه مراراً.
 (٤) المقائب جمع مقتب وهو جماعة من الفرسان والخيال تجتمع للغارة، والمناقب: المفاخر والمآثر.

لا زالتِ الأملاكُ تحرسُ ملكه والسعدُ يُلقَى طالماً لا غارباً
ما قرّظت حلل القريض براعةً وكسته ديباج البديع عصائباً

وأخرى لسعد الدين التبريزي

ومن هذا الباب ما قرضت ^(١) له على أخرى نونية، بالديار الشامية سنة ٩٩٩ نظمها لحضرة الخواجة سعد الملة والدين وهو:

في شكل أم طلا وأم غوائي	ولحاط جُؤذر رملية وسنان
ومعاطف الرشا الأغن لحسنه	ألفتان ألحاطُ الحسان رَوَانِي
عطفت عليّ وفي معاطف أزرها	ريثُ الأناة وخِفةُ النَّشْوَانِ
هيفاء قامتُها الرشيقَةُ ما لها	في هَيْفِ أغصان النَّقَا من ثَانِي
فطفقتُ أعصر بانه من قدّها	ونعمتُ من فيها بأصهبَ عَانِي ^(٢)
تدنو فيرغب طامعٌ في وصلها	سَفَهَا وقد حَلَّت رفيع مكانِ
كالشمس في كبد السماء وضوؤها	فوق البسيطة للنواظرِ دَانِي
نظمتُ فريداً في فريدٍ فالتقى	سَعْدَانٍ قد نُظِّها بِجُحْنِ قِرَانِ
مد الإلهُ على الخليفة ظِلَّهُ	وأمدّه بروائع الإحسانِ
وجرت له الأقدارُ طوعَ مراده	في دولة السلطانِ ذي السُّلْطَانِ

(١) في ب: قرظت.

(٢) الأصهب الكأس من الخمر والعاني نسبة إلى عانة بلدة على الفرات تنسب إليها الخمر العانية.

أعني مرادَ الله مُظهِرَ فيضه إل أسمى ومصدرَ فعله ذي الشَّانِ
أبقاه ربُّ العرشِ ناصرَ دينه ما قرَّظتْ مدحاً رُقومَ بَنانِ

★ ★ ★

أبيات في صدر مكاتبة إلى محمد الأمين

وما كتبت به صدر مكاتبة من الديار الشامية إلى الديار الرومية،
لجناب مجمع الفضائل، ومنجع الأفاضل، الأخ الأفضل المكين محمد
الأمين، لا برج السعد ناظراً إليه، معولاً في المهات عليه قولي:

إلى حضرة الروح الأمين تحية	معطرة الأنفاس طيبة الورد
تضاعف منها الشوق والوجد سالم	وما اعتلَّ فيها الودُّ من ذلك العهد
يعطر قطر الشام والروم قطرها	ويخجلُ عَرَفَ المسكِ والبان والرَّندِ
وتحملُ من عليا دمشق رسالة	تَضُوعُ بأرض الروم كالعنبر الوردِ
وتشرحُ من حالي لعالِي جنابه	ليعلم حقاً ما ألاقِي من الوجدِ
وتخبره أُنِي على القُرب والنوى	على كل حالٍ واقفٌ موقفَ العبدِ
وكثرة أشواقٍ إذا رُمت حَضْرُها	أرى بعضها يربو على الحدِّ والعدِّ
فوالله والمجدِ الذي لا يُغيرُه	تفاخُرُ أهلِ العَصْرِ في القُرب والبُعدِ
لشم ثرى تلك الديار وطيبها	أحبُّ إلى المشتاقِ من جنة الخلدِ
سقاها وحياها الإلهُ معاهداً	تدورُ بأفلاك السَّعادةِ والسَّعدِ
ولا زالتِ الأقدارُ طوعَ مراده	سَحَابَ دُنُوِّ العهدِ مُوصلةَ العهدِ

★ ★ ★

قصيدة ينظمها عن رؤيا رآها وهو في طريقه إلى مصر

ومن اللطائف الإلهية والإشارات الربانية، ما اتفق لي نظمه غِبَّ
رؤيا عجيبة، وواقعة غريبة، رأيتها بالبيت المقدس، والحرم الأقدس،
وقت اجتيازي إلى الديار المصرية، والقاهرة المعزية، للأخذ عن علمائها
والتلقي من فضلائها وذلك عام ثمان وتسعين وتسعمائة:

إلى المسجد الأقصى من الحرم القدسي
سَرَيْنَا فَوَاقِيَ الْفَتْحِ مِنْ حَضْرَةِ الْقُدْسِ
وَجُنَّاهِمِ التَّقْدِيسِ وَاللَّيْلِ رَاقِدٌ وَقَدْ جُنَّ حَتَّى لَا يَفِيقَ مِنَ الْمَسِّ
طَلَائِعُ أَنْضَاءٍ عَلَى مِثْلِهَا لَهَا
عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالُ الظُّلُمِ عَلَى الْحَرَسِ (١)
تَبَارِي نَعَامَ الْجَوِّ طَوْرًا وَتَارَةً
تُجَارِي نَعَامَ الدَّوِّ فِي الْمَهْمَةِ الْوَعَسِ (٢)
إِلَى أَنْ بَدَتْ لِلْعَيْنِ أَعْلَامُ ذِي طُوى
وَبَانَ جَمِيعُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَنْ رِجْسِ
نَزَلْنَا مِنَ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ شَاطِئًا
عَلَى بَقْعَةٍ فِيهِ مَبَارَكَةُ الرَّمْسِ
فَلَا حَ لَنَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ لَامِعًا
سَنَا ضَوْءُ نَارٍ قَدْ جَلَّتْ ظُلْمَةُ اللَّبْسِ
وَمَا تِلْكَ نَارٌ بَلْ سَنَا رَبِّهِ السَّنَا
تَجَلَّى لِقَلْبٍ قَدْ تَخَلَّى عَنِ الْحَدْسِ
أَضَاءٌ سَنَاهَا طُورَ سِينَاءَ مَرَّةً
وَأَنَسَهَا مِنْ قَبْلِ مُوسَى بِلَا حِسِّ
سَمِعْنَا بِطُورِ الْقَلْبِ مِنْهَا نِدَاءَ مَنْ
تَنَزَّهَ عَنْ فَصْلِ يَدَانِيهِ أَوْ جَنْسِ

(١) الإرقال: السرعة، والظلم ذكر النعام والحرس الأرض ذات الحجارة.

(٢) نعام الجو: الحب، والوعس: الأرض ذات للرمل الذي تغيب فيه الأرجل.

ونادى مُنادي القُرب من حضرة الرُّضا
ألا فانعموا فالفتحُ فوق جَنَى الفُرسِ
فطوبى لنا من حَاضِرِي أَمِينِ الحِمَى
وطوبى لنا من حَاضِرِي حضرة القُدسِ

★ ★ ★

ومما كتبت به صدر مكاتبة من غزّة هاشم^(١)، سقتها غر الغائب، للعالم
الرباني، والقطب الصمداني، سراج الملة والدين، علامة الديار القدسية
زين الدين، عمر بن أبي اللطف لا زال مَشْرَبُهُ من العلوم والمعارف
صافياً، ولباسُ العوارف عليه ضافياً، في التاريخ المذكور وقد تشرفت به
مدّة إقامتي:

سَقَى مَفْهَداً من إيلياءَ ^(٢) هَتُونُ	فَلِي بين هاتيك الرُّبوعِ شُجونُ
ولا زال خَفَاقُ النسيمِ بربعه	يُطِيفُ فإن القلب فيه رهينُ
منازلُ أحبابٍ إذا عَنَّ ذَكرُهُمُ	سَقَتْهُمُ على بعد الديار شُئونُ ^(٣)
أقاموا وسِرْنا والفؤادُ لديهمُ	مقيمٌ وهل يَرعى الودادَ خدينُ
أيا ساكني البيتِ المقدسِ هل ترى	يجودُ بكم دهرٌ عليّ ضنينُ
سقى الله هاتيك الديارَ وأهلها	سحابُ دنوِّ العهدِ وهو هَتُونُ

(١) غزّة: هي المدينة المعروفة التي تقع بأقصى بلاد الشام من ناحية مصر، وهي من أرض فلسطين، وسميت بغزّة هاشم لأن هاشماً بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي بها وبها قبره، معجم البلدان ٧٩٩/٣.

(٢) إيلياء: اسم لمدينة بيت المقدس، قيل معناه بيت الله.

(٣) شئون: المقصود بها شئون العين، وهي مجاريها الدمعية.

وخصَّ جناباً فيه ركنُ هدايةِ
سراجُ المعاني عمدةُ القومِ والذي
عليكم سلامُ الله ما حنَّ عاشقٌ
فوالله ما فارقتكم قالياً لكم
له الفضلُ خِذْنِ والوفاءُ قرينُ
لديه جيعُ المشكلات تهونُ
تَضَاعَفُ منه أَنَّةٌ وحنينُ
ولكنَّ ما يقضى فسوف يكونُ

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني